

الشيماء السيوفي

عفريت من الإنس

رواية



دارك دارك
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.
51 ب شارع النزهة - من امتداد رمسيس - القاهرة.
02 24832669-010 27251915
info@darak-egy.com
عفريت من الإنس
اسم المؤلف: الشيماء السيوفي
تصميم الغلاف: عبير طوسون
تدقيق لغوي: هالة محمد
رقم الإيداع: 2023 / 29648
الترقيم الدولي: 9-7-87190-977-978
الطبعة الأولى: 2024

إهداء

إلى صديقي الذي أسمعته ولا أراه.

مقدمة

قال لي ذات مرة

رجل حكيم

أني أصلح لأشياء

تتطلب إغلاق الفم

لحدّ عظيم

فصدقته

وكفمته

فإذ بفمي ينقلب

شيطان رجيم

- «عمو (يوسف).. مين اللي واقف فوق السطح ده؟!»

- «ده.. ده أبوك الله يرحمه يا ابني!!»

شبرا

29 يوليو

2016

في صمت شبه تام، لا يكاد يكسره سوى صوت دوران المفتاح في قفل باب الشقة، دخل (عمر) وأمه (نازك) إلى صالة شقتهم الواسعة، والتي يصح أن نقول إنها صارت شقتهما، شقتهما هما الاثنان فحسب، فقد خَلَّت الآن تمامًا إلا منهما. الظلام شبه تام أيضًا كالصمت، ولا يكسره كذلك سوى إضاءة خافتة تأتي من مصباح ظرقة داخلية.

أغلق (عمر) الباب خلفهما بهدوء، في حين أضاءت (نازك) مصابيح الشقة، لتظهر معالمها الفاخرة، وأثاثها الذي ينم عن ذوق رفيع. ودون كلمة واحدة، أو اتفاق بينهما، اتجه الاثنان بخطوات مرهقة متخشبة إلى غرفة الصالون، ليجلسا متقابلين، نظراتهما زائغة لا تكاد تلتقي، وعلى وجهيهما آثار إعياء، ونظرة وجوم غريبة جامدة، كأنهما في حالة صدمة شديدة تجمعهما سوياً، وترسم على وجهيهما نفس التعبيرات، الفارقان الوحيدان كانا الاحمرار الذي يكسو وجه

(نازك)، والتورم الشديد في عينيها؛ علامتين المميزتين، اللتين لا تكاد تخطئهما عين، لشخص كان يبكي بحرقة، ويلطم خديه بقوة، لفترة طويلة على الأرجح. لم يبق سوى إلقاء نظرة عامة سريعة على ملابسهما، ليتبين الناظر إليها طغيان اللون الأسود فيها، ويصبح تخمين ما يعنيه هذا المشهد القاتم سهلاً إلى حد كبير.

كانت (نازك) متشغلة بحلّ حجابها عن رأسها، حين رفع (عمر) عينيه إليها ببطء، ليكسر الصمت فجأة، وهو يقول:
- «أنا اللي قتلتته».

شبرا

1997

- «خلاص بقى يا (فؤاد)، خلاص هو مش هيعمل كده تاني والله، خلاص».

هتفت بها (نازك) وهي تتشبث بذراع زوجها القوية، والتي ينهال بها ضرباً على ابنهما الوحيد، (عمر)، الذي كان يصرخ باكية منتفضاً وهو يتلوى من الألم، مع كل ضربة تسقط على جسده الصغير.

- «اسكتي انتي مش فاهمة حاجة».

صرخ بها (فؤاد)، وهو يحاول جذب ذراعه منها، لتتشبث هي به بقوة أكبر، صائحة بانفعال:

- «أستحلفك بالله تسبيه وهو والله ما هيعمل كده تاني، مش كده

يا (عمر)؟؟ اعتذر لبابا يا (عمر) وقل له إنك مش هتعمل كده ثاني». بدا وكأن تشبُّهها المستميت وصياحها اليائس لا يجديان نفقًا معه، ولا ينقذان الموقف، بل يزيدانه سوءًا للأسف، فلا قوتها الجسدية تقارن به، ولا يبدو أن كلماتها تجد أيَّ صدى لديه، بل بدا وكأن ثورة غضبه قد التهبت أكثر، ليدفعها بعنف وهو يصرخ هادرًا:

- «انتى عارفة أصلًا هو عمل إيه؟؟!!»

طارت مع دفعته بعيدًا لتصطدم بمنضدة صغيرة وتتعرَّب بها، فتفقد توازنها وتسقط على أريكة تجاورها، ثم تجهش فجأة بالبكاء، وهي تقول بمرارة:

- «طفل عنده 4 سنين!! هيكون عمل إيه يعني؟؟!!»

شبرا

29 يوليو

2016

- «...قتلت مين؟!»

بدا سؤال (نازك) استفهاميًا أكثر منه استنكاريًا، فقد بدت وكأنها لم تفهم، أو ربما لم تسمع أصلًا، ما قاله ابنها لتوه، خاصة وأن صوته كان خفيًّا محشرجًا بالفعل. أما (عمر)، فقد تحركت عيناه بلا كلام، وكأنه لا يقدر على الكلام، نحو صورة فوتوغرافية متوسطة الحجم، محاطة بإطار أنيق، وموضوعة وسط مجموعة من التحف، على

منضدة صغيرة في ركن الغرفة، لرجل وسيم صارم الملامح، في أوائل الخمسينيات من عمره.

نظرت (نازك) بدورها نحو الصورة، لا لتبينها بالطبع، فهي تعرف جيدًا أنها ليست سوى صورة زوجها، (فؤاد)، بل إنها هي التي وضعتها في هذا الموضع بيدها منذ عدة سنوات، وهي التي اشترت إطارها الأنيق هذا بنفسها، لكنها بدت وكأنها تنظر إليها لتتأكد من وجودها في مكانها، من أنها صورة (فؤاد) بالفعل، وأن (عمر) يتحدث حقًا عن أبيه، الذي عادا من عزائه منذ قليل.

عادت بعينيها نحوه وهو ما ي زال على صمته، وقد بدت نظراته زائغة، عاجزة عن التوقف على شيء معين، حائرة بين وجه أمه، وصورة أبيه، واللا مكان، وربما اللا زمن كذلك. صمتت بدورها لبضع ثوانٍ، وكأنها تنتظر منه إضافة أو توضيحًا ما، قبل أن تعود لتقول:

- «إنت بتقول إيه؟!»

مرت فترة أخرى قصيرة من الصمت، قبل أن يتكلم ببطء، ليقول:

- «آخر مقابلة بيئًا كانت خناقة كبيرة، وأنا كنت مخنوق ومضغوط أوي، أعصابي فلتت غصب عني وفضلت أزعق جامد وأقول كلام ماينفعش يتقال، كلام أنا نفسي مش عارف جيبته منين، ولا قلته ليه وإزاي.. أنا تخيلت ساعتها للحظة كده إني هموت، ماتخيلتش إنه هيضربني لأ، أنا قلت ده أكيد هيقتلني، وما أعرفش جبت الجرأة دي منين، قلت في نفسي يعني هي موتة ولأ أكثر، وبعدين قلت أحسن، ياريتة يقتلني ويخلصني لأن أنا أصلًا مش...»

بتر عبارته واحتقن وجهه وكأن شيئًا توقف في حلقه ومنعه من الكلام. أما (نازك)، فقد سالت دمة صامته من عينيها اللتين راحتا تتابعانه، وهو يعود ليقول:

- «الغريبة إنه ماعملش أي حاجة من دي، ماردش عليا حتى، مازعقش، ماشتمش، فضل قاعد ساكت وباصص لي كأنه مذهول أو مخضوض، كأن أنا اللي ضربته، ساكت تمامًا ووشه أحمر جدًا، وفي عينيه نظرة ماتتوصفش ومش قادر أنساها، كأنه اتشل أو اتجلط.. إنتي ماكنتيش هنا ساعتها، ماشفتيش منظره، أنا متهيألي إنني عمري ما شفته في الحالة دي قبل كده، وماجاش في بالي ساعتها إنني.. عمري ما هاشوفه أصلًا بعد كده، كل اللي كان في دماغي إنني حاسس إنني أخيرًا انتصرت عليه، وقدرت أتكلم وأزعق وأقول اللي في نفسي، وهو اللي يسكت».

صمت بعد عبارته الأخيرة وكأنه أفرغ كل ما في نفسه، أو كأن طاقته على الكلام هي التي فرغت، ليشملهما بعدها صمت وسكون تام وجيز، فما لبثت (نازك) أن مسحت آثار الدمع عن وجهها بيدها، وبدأت متماسكة على الرغم من صوتها المبحوح المشروخ، وهي تقول:

- «هو ده اللي خلاك تقول إن إنت اللي قتلتته؟»

لم يعلق، فأضافت:

- «ما انتم طول عمركم بتتخانقوا، إيه الجديد؟»

ظل صامئًا، فعادت تقول:

- «هي الخناقة دي كانت على إيه يا (عمر)؟»

- «حاجات كتير، مش فاكرك».

- «أيوه يعني إيه الحاجة اللي خلتها تبدأ من الأساس؟»

- «إيه فائدة السؤال ده دلوقت؟»

تجاهلت تساؤله لتجيب هي عن سؤالها بنفسها:

- «سقوطك السنة دي، مش كده؟»

- «طب وليه تقلب المواجه ده؟!»

- «مش دي الصيدلة اللي هو أجبرك تدخلها وهو عارف إنك لا

حبيبها ولا هتقدر على دراستها؟!»

شحب وجهه قليلاً ثم جمد تمامًا، وهي تكمل:

- «مش يبقى هو نفسه السبب في سقوطك المتكرر اللي كان

بيتخانق معاك عليه، عشان إصراره على إنك تدخل الكلية اللي على

مزاجه هو، وتكفل فيها غصب عنك، لحد ما بقى عندك 23 سنة

ولسه في سنة تانية، وزمايلك بقوا معيدين عليك وبيدّرسوا لك؟!»

ظلّ صامتًا جامدًا، في حين عادت الدموع إلى عينيها وهي تضيف:

- «مين فيكم كده اللي قتل الثاني؟!»

شبرا

1999

- «إيه اللي على دراعك ده يا ماما؟؟!»

قالها (عمر) متسائلًا بهلع، وعيناه المتسعتان تحديقان في ذراع (نازك) الذي بدا غريبًا مخيفًا بالفعل، بالذات بالنسبة لطفل. كان قد عاد لتوه من نزهة طريفة مع جده وأبناء خالته إلى حديقة الحيوان، أسعدته كثيرًا لدرجة أنه ركض، وهو لا يزال بملابس الخروج، من باب الشقة إلى المطبخ مباشرة، حيث أمه التي تُعدّ طعام الغداء، ليحكي لها بحماس عن كل ما رآه.

أما هي، فقد بدت طبيعية تمامًا، أنيقة وجميلة، حتى في المنزل، كعادتها، ومتجاوبة معه كذلك، بل وتبتسم أو تضحك لما يقوله من أن لآخر، وكأن كل شيء على أتم ما يرام. لكنها حين رفعت ذراعها لتفتح درفة أحد دواليب المطبخ العلوية، انزلق كم ثوبها الواسع لينحسر عن ذراعها الذي انتشر لون الكدمات الأزرق على سطحه بشكل مخيف، وداكن وكثيف، جعله أقرب للسواد. لم يكن قد رأى في حياته، وهو في تلك السن، كدمات بهذا الحجم أو الشكل أو اللون من قبل؛ لذلك بدا له المنظر رهيبًا مخيفًا، بل وعسير التصديق كذلك، من فرط بشاعته.

الغريب أن (نازك) ظلت تتصرف بشكل طبيعي رغم ذلك، لم تبد متألّمة من أثر الكدمات، ولا مذعورة لأنه رآها، فقط أنزلت كمّها كي يغطّي ذراعها ثانية، وتابعت ما كانت تفعله، قبل أن تقول ببساطة:

- «ما فيش يا حبيبي. يلا كمل قصتك، كنت بتقول إن الزرافة أكلت شعر (فيفي)، فقعدت تعيط. وبعدين إيه اللي حصل؟»

شعر أنه لا يفهم، وأنه غير راغب في الحديث عن أي شيء قبل أن يفهم، ليكرر سؤاله:

- «إيه الأزرق اللي على إيدك ده؟»

- «دي حاجة بسيطة، ماتشغلش بالك».

- «أيوه يعني حصلت إزاي؟؟»

- «وقعت من على السلم».

- «أنهي سلم؟ وقعتي إزاي؟ إيه اللي وقّعك؟»

- «السلم الخشب، طلعت عشان أجيب البطاطين من رف الدولاب اللي فوق، فوقعت على دراعي».

كانت منشغلة في غسل بعض قطع اللحم، فلم تكن تنظر نحوه. أما هو، فقد كانت عيناه مثبتتين على وجهها كالصقر، تراقبان كل خلجة فيه، كأنه يجري عليها اختبار كشف كذب طفولي مرتجل. لكن كل النتائج جاءت سلبية تمامًا. وجه أمه هادئ مبتسم كما هو، القصة متماسكة، الردود سريعة ومقنعة، لكنه لم يكن يعرف إن كانت هذه الكدمات تطابق تلك القصة أم لا، كان ذكيًا لكن ليس إلى هذا الحد، والتأكد من أمر كهذا يحتاج طبيبًا شرعيًا أو خبيرًا جنائيًا، أو شخصًا بالغًا على الأقل، ثم إنه يشعر، بشكل شبه غريزي، أن في الأمر خدعة ما، لكنه غير متأكد من معالمتها، غريزته وعقله كانا أكبر من سنّه بالفعل، لكنه كان، رغم كل شيء، لا يزال طفلًا في السادسة.

شبرا

29 يوليو

2016

دخل (عمر) إلى غرفته مغلقًا بابها خلفه، دون أن يهتم بإضاءة مصابيحها، مكتفيًا بالإضاءة الليلية الخافتة المتسللة من خصائص الشرفة الموارب. لم يهتم كذلك بتغيير ملابسه، فقط خلع جاكته وعلقها على ظهر مقعد بدا وكأنه مخصص لوضع الملابس عليه فحسب، لا للجلوس، فقد كانت عليه أيضًا ملابس أخرى، لا تظهر معالمها بوضوح في إضاءة الغرفة الضعيفة، لكن يظهر أنها مطوية ومرصوفة كأنها في دولا ب.

بدا ذلك المقعد وكأنه صورة مصغرة من الغرفة كلها، فوضى غريبة شبه منظمة، مكان تشعر أنه مزدحم بأشياء لا حصر لها، لكنه مع ذلك، مريح للنفس والنظر، لا يصيبك بتوتر أو نفور، قد تتصور أن صاحبه نفسه لا يستطيع المشي فيه دون تعثر، ولا إيجاد أي شيء يبحث عنه، دون قلبه رأسًا على عقب. لكن (عمر) تحرك في غرفته بيسر وسلاسة، حتى في هذه الإضاءة الخافتة، ليخلع ساعته ويضعها في مكانها المحدد، ويكرر الشيء نفسه مع حذائه، ثم يلقي بنفسه فوق سريره.

داعب النوم جفنيه، وقد كان جسده مرهقًا بحق، وعقله كذلك، لكنه إرهاب من نوع عجيب، يحول بينه وبين النوم، كأنه آلة ظلت تعمل طويلاً حتى أصابها عطب جعلها عاجزة عن التوقف، رغم أن توقفها أصبح ضروريًا كي لا تحترق. عقله يصر على استرجاع أحداث اليوم

بطوله، بل عمره كله، مركزًا على أجزاء معينة مؤلمة، ومتباطئًا عند كل ذكرى كئيبة وموقف حزين، كأنه يستعذب اجترار الألم. كل حياته تقريبًا مرت أمام عينيه كشريط طويل، منذ بدأ وعيه في التفتح وهو طفل، وحتى آخر حوار دار بينه وبين أمه منذ قليل.

لم يحاول المقاومة، كان مرهقًا إلى درجة عجز معها حتى عن مقاومة أفكاره وذاكرياته التي تمنعه من النوم. قرر الاستسلام متمنيًا أن تزداد وطأة الكآبة عليه، كعادتها، حتى تجثم على روحه فينام. وبدأ فعلاً ينام. شعر بمقل في رأسه كله وليس جفنيه فحسب. لم ينزلق إلى النوم بتلك الطريقة الناعسة المريحة الباعثة على الاسترخاء، بل شعر وكأن وعيه ينسحب منه، وحواسه تبدأ في التعطل تدريجيًا، الواحدة تلو الأخرى، حتى انطبق جفناه، ولم يعد يعرف إن كان نائمًا أم لا، حين سمع صوتًا في أذنه، يقول:

- «(عمر)».

فتح عينيه عن آخرهما وهو يهث معتدلًا على فراشه ناظرًا حوله بفرع، والإضاءة الخافتة تزيد الأمر سوءًا. مَدَّ يده بسرعة إلى المصباح المجاور لفراشه ليضيئه بيد باردة مرتجفة وقلبه يدق في عنف. لم تكن إضاءة المصباح الجانبي قوية جدًا، لكنها تمكنه من تبين ما حوله بشكل معقول، تتيح له تفحص معالم الغرفة والتأكد من أن كل شيء بها طبيعي، كأنه يُطمئن نفسه بذلك. لكن ذلك لا يُطمئنه كثيرًا في الواقع، فلا أحد في الغرفة سواه، لكن ليست هذه هي المشكلة.. المشكلة أن الصوت الذي حدّثه في أذنه، الذي سمعه بوضوح ونقاء شديدين، ويستطيع تمييزه من بين ألف صوت.. كان

صوت أبيه.. الذي دفنه بيديه اليوم، وتلقى العزاء فيه منذ بضع ساعات!

لم يكن هذا إلا حلقة بالطبع، رغم أنه غير متأكد أصلاً من أنه نام، لكنه بالتأكيد نام وحلم. هذا ما قاله (عمر) لنفسه، لأنه التفسير الوحيد لما حدث، أو الوحيد الذي يحفظ له سلامته العقلية والنفسية، ثم إنه منطقي كذلك، من الطبيعي جدًا أن يؤثر موت أبيه عليه، أن يحتل جزءًا كبيرًا من تفكيره وأحلامه، خاصة وأنه كان موثًا مفاجئًا، لم تمر عليه 24 ساعة كاملة بعد، حتى لو كانت علاقته بأبيه سيئة جدًا، وحتى وهو يشعر ببعض الخجل الآن من أن يعترف لنفسه بأنه لم يكن يحبه.

لكن، إذا كان كل شيء طبيعي ومنطقي فعلاً، فلماذا إذاً لا يزال يشعر أنه ليس وحده في الغرفة؟! ولماذا يريد أن يبكي؟!

- «(نرمين) أنا رجعت من شوية. أنا كويس يا حبيبتي ماتقلقيش، بس تعبان ومش قادر أتكلم دلوقت. نتكلم بكرة إن شاء الله. تصبحي على خير».

أنهى (عمر) تسجيل الرسالة الصوتية وأرسلها، ثم وضع تليفونه المحمول على الكومود المجاور لفراشه. لم يعد بإمكانه العودة للنوم بعد ما حدث، ولا حتى إطفاء النور. لكنه أيضًا عاجز عن النهوض لفعل أي شيء، ولا حتى تبديل ملابسه، حتى الكلام مع

(نرمين)، والذي كان غالبًا ما يهدئه ويرريحه، لم يقدر عليه، ولم يرغب فيه، اكتفى بتلك الرسالة الصوتية المقتضبة التي أرسلها لها على الواتساب، وحين سمع نغمة وصول رسالة ردّ منها عليه، لم يفتحها.

التقط تابلت الرسم الخاص به من على منضدة قريبة، وأمسك بقلمه محاولًا الانغماس في عالم لوحاته الذي كثيرًا ما يبتلعه وينسيه همه، بل ينسيه الواقع كلّه في بعض الأحيان، كأنه نوع خاص من المخدرات، لكن حتى هذا لم يقدر عليه، حتى الرسم الذي يعتبره عالمه الخاص، رفض أن يستقبله الليلة.

وحين استسلم أخيرًا، كعادته، لليأس، عاد (عمر) برأسه إلى الوراء، حتى استند على ظهر سريره، ثم عاد بأفكاره وذكرياته إلى الماضي.

شبرا

2001

كان قلب (عمر)، ذي العمانية أعوام، يدق بسرعة وقوة، وهو يفتح باب غرفة نومه ببطء وهدوء، محاولًا ألا يصدر أدنى صوت. لم يكن قلبه الصغير يدق فرحًا أو حماسةً، بل قلقًا وخوفًا، وهو يجيل بصره في صالة شقتهم الواسعة نصف المظلمة، والساكنة تمامًا في ذلك الوقت. وحين تأكد أنها خالية من أي بشر، وأن كل أبواب الغرف الأخرى، المطلة عليها، مغلقة، تسلل خارج غرفته مغلقًا بابها خلفه بنفس البطء والهدوء، حافي القدمين، بخفة كالقط، وممسكًا بشبشبته تحت إبطه. ورغم أنه لا يحب السير حافيًا هكذا في العادة، إلا أنه لم

يكن ليجازف بأي صوتٍ قد يصدر عنه وهو يسير.

وصل أخيرًا عند باب الشقة، أصعب جزء في المهمة. وقبل حتى أن يمسه، نظر خلفه أولاً ليتأكد أن أحدًا لم يره. كان كل شيء هادئًا ساكنًا بالفعل، حتى إن صوت دقات قلبه هو في أذنيه، كان أعلى ما يمكنه أن يسمعه في تلك اللحظة.

نبتت قطرات من العرق على جبينه وهو يضغط على الباب بجسده كي يخفض من صوت تكة لسان الكالون وهو يدير المفتاح فيه ببطء، مرة، ثم اثنتين، ثم يدير مقبض الباب نفسه. أخيرًا فتحه وانسل خارجًا من الشقة، معيّدًا إغلاقه خلفه من الخارج، حابسًا أنفاسه، ودقات قلبه تكاد تفجر طبلتي أذنه.

ورغم كل حرصه وحذره مع لسان الكالون اللعين الذي حسب حساب صوت تكّاته من الداخل والخارج، صدر عن الباب صوت خافت وهو ينغلق، بدا كالرعد في أذنيه، لكنه لم يعثّر عن المضي قدمًا في طريقه، لو تراجع الآن لذهبت كل مغامرته هذه سدى، ولربما عوقب بلا جدوى كذلك، فإن لم يكن من العقاب بُدّ، ليكن إذًا في سبيل شيء ما على الأقل، ليس من العدل أن يدفع ثمنَ ما لم يحصل عليه.

وحين وضع شبشه على الأرض بهدوء ليرتديه، ثم يخطو بحذر على درجات السلم هابطًا لأسفل، بدأ شعور الخوف والقلق في قلبه ينزاح بالتدريج، ليحلّ محله القليل من الحماسة والفرح.

هبط (عمر) من الطابق الثاني، أعلى طابق في البيت، والذي تقع فيه الشقة التي يعيش فيها مع والديه، إلى الطابق الأول، ومنه إلى الأرضي، حيث تقع وجهته المنشودة، وهدف مغامرته كلها، الشقة الواقعة على يسار النازل على السلم، ويمين الداخل من بوابة البيت، والتي يحمل بابها لافتة صغيرة كُتب عليها بخط زخرفي جميل: «مهندس / صابر عبد الرحمن».

وكما توقع وتمنى، لم يكن الباب موصدًا بالمفتاح؛ لذا فتحه ببطء وحذر، متسللاً إلى الداخل، ومغلقاً إياه خلفه بهدوء، لكن بلا خوف أو قلق هذه المرة، بل بابتسامة طفولية تراقصت على وجهه الجميل، وهو يهرول بخفة نحو غرفة الجلوس، هاتفاً:

- «صباح الخير يا جدو».

- «يا عفريت، داخل تتسحب، ما أنا شايفك وإنت بتفتح الباب».

قالها (صابر) مبتسماً وهو ينهض من فوق سجادة صلاة ويسحبها ليطويها، ثم يتمتم بتساويح ما بعد الصلاة، وهو لا يزال محتفظاً بابتسامته، في حين قال (عمر) ضاحكاً:

- «شفتني إزاي يا جدو؟! إنت كان ضهرك للباب أصلاً»

بدت الدهشة على وجه (صابر)، وهو يقول:

- «أنهو باب؟»

- «باب الشقة».

- «لا ما أنا باتكلم على باب شقتكم إنتم».

قالها بجدية جعلت (عمر) يضحك ثانية، وقبل أن يعلق، عاجله
بسؤاله:

- «صَبَحْتَ على خالتك (هالة)؟»

- «لا لسه، هي فين؟»

- «في المطبخ، اجري صَبَحْ عليها يلاً وساعدها. إنت لسه
مارجعتش؟!»

فضحك (عمر) للمرة الثالثة، وهو يهرول باتجاه المطبخ.

- «أنا اللي هشيل صينية الشاي يا خالتو».

قالها (عمر) بحماسة، لتردّ عليه (هالة) بصوتها الخفيض الرقيق:

- «تقيلة عليك يا (عمر) وممكن تقع منك».

- «مش هتقع والله، هاتيها بس وأنا هعرف أشيلها».

- «بلاش لاحسن الشاي السخن يندلق عليك. خد إنت طبق

البقسماط، وأنا جاية وراك بالشاي».

تململ قليلاً لكنه امتثل للأمر في النهاية لسببين، أولهما أنه يحبها
حقاً، ولا يحب أن يضايقها أبداً، فَمَنْ ذا الذي يضايق ملاكاً جميلاً
مثلها؟! وثانيهما، أنه لا يرغب في إضاعة الوقت في الجدل، ويتوق
لاقتناص السعادة الثمينة التي قام بمغامرته كلها لأجلها، والمتمثلة
في الجلوس مع جدّه في الشرفة في الصباح الباكر لتناول الشاي
بالحليب مع البقسماط، فقط، هذا كل شيء، كل ما كان كل هذا

الخوف والقلق والحرص والحذر لأجله.

ورغم أنه لم يكن عادة من محبي فترة الصباح الباكر هذه، لأنها تمثل له أشياء كثيرة يكرهها، كالمدرسة والامتحانات، إلا أنه كان يحب الصباح جدًا، حين تسنح له فرصة قضائه هكذا، في الشرفة، مع الشاي بالحليب، والبقسماط، وجده. الأخير بالذات كان بالنسبة له أجمل ما في الموضوع، بل هو الموضوع كله أصلًا. مع جده يشعر بالراحة والسعادة، والأهم منهما، بالأمان، أمان غريب لا يشعر به مع أحد سواه، يكفيه فقط أن ينظر لابتسامته التي تشرق في وجهه الطيب الحنون، ليشعر أنه في حماية كائن خارق، والأجمل، أن هذا الكائن الخارق يحبه، بل إن أمه أخبرته، أكثر من مرة، أنه أحب أحفاد جده إليه.

- «حضرتك عايز حاجة ثاني يا بابا؟»

قالتها (هالة) بعد أن وضعت صينية الشاي على المنضدة الصغيرة في الشرفة، ليرد عليها (صابر)، قائلاً:

- «لا يا بنتي شكراً».

- «طيب عن إذنك».

قالتها واستدارت مبتعدة بهدوء، ليلتقط (عمر) كوبه على الفور، ممارساً عليه طقوسه الطفولية الخاصة، والتي تبدأ بالنفخ في الشاي حتى يبرد، وتنتهي بتغطيس البقسماط فيه، مع حساب الوقت اللازم لكل بقسمطة كي تلين دون أن تتفتت وتسقط في قاع الكوب، فيضطر لانتشالها بالمعلقة من وسط التفل الذي يجعل طعمها سيئاً

لـلـغـايـة.

- «هي ليه خالتو (هالة) عمرها ما بتقعد معانا في البلـكـونـة يا جدو؟»

- «بتقعد ساعات يا حبيبي، بس إنت اللي مابتقاش موجود هنا».

- «أيوه عارف، بشوفها ساعات وأنا راجع من المدرسة، بس بتبقى قاعدة لوحدها، هي أصلاً على طول لوحدها، هي ليه دايمًا بتــــ... ؟»

- «(عمر)!»

بتر عبارته وتسمر في مكانه فور سماعه لتلك الصيحة التي لم تأت من جده، ولا من شقة جده كلها، بل من الخارج، من الأعلى على وجه التحديد. كانت مرتفعة بما يكفي كي تصل إلى مسامعه، بعيدة بما يكفي كي يتظاهر أنه لم يسمعها، أو يقنع نفسه أنه لم يميز صوت صاحبها، أو يتخيل أنها ليست موجّهة إليه. رغم ذلك، لم يستطع منع قلبه من الدق بقوة في صدره وأذنيه، ورغماً عنه أيضاً، شعر بحرارة الرغبة في البكاء في عينيه، وبرودة الخوف المثلّجة في أطرافه، مع نظرة ثابتة نحو جده، كأنه يستنجد به، وفي نفس الوقت، يحاول أن يستشف منه ما إذا كانت الصرخة حقيقية أصلاً، أم أن خوفه جعله يتخيل أنه سمعها.

لكن الخبر اليقين سرعان ما جاءه بشكل قاطع لا يقبل الشك للأسف، حين ظهرت خالته (هالة) عند باب الشرفة، قائلة:

- «باباك بينادي عليك يا (عمر). مامتك اتصلت دلوقت وبتقول لك

تعالى حالاً عشان بابا عايزك».

شبرا

30 يوليو

2016

- «سلام قولاً من رب رحيم!»

فتح (عمر) عينيه منتفضاً ليطالعه وجه أمه التي هتفت بتلك العبارة لتنتزعه من.. نومه؟ متى نام؟ آخر ما يذكره ليلة أمس هو أنه حاول النوم ففشل، ثم حاول الرسم ففشل أيضاً، ثم كف عن محاولة فعل أي شيء، وترك نفسه لتأملاته وذكرياته التي لا بُدَّ قادته للنوم الذي أيقظته منه أمه الآن، مشكورة، مذعورًا هكذا.

- «فيه إيه يا أمي؟! حد يفزع حد من النوم كده!»

- «نوم إيه يا بني؟! ده إنت اللي فزعتني!»

بدا وجهها خائفاً بالفعل وهي تجلس على طرف سريرها، مكملة:

- «إنت ماكنتش نايم يا (عمر)».

بدا عليه هو التشوش ففرك عينيه، وتنحنح ليسلك حلقه، قبل أن يقول:

- «مش فاهم».

- «أنا كنت فاكراك نايم فعلاً، لأنني خبطت على الباب وإنت

ماردتش، فتحتة لقيتك قاعد زي ما إنت كده على السرير بهدوم
إمبارح، وعينيك مفتوحة، والتابلت في جِرك وعليه الـ.. رسمة
دي..!»

خفض عينيه إلى حيث أشارت، إلى التابلت الملقى على ساقيه. لا
يذكر بالفعل أنه رده إلى مكانه حين عجز عن الرسم، فلا بُدَّ أنه نام
وهو على ساقيه هكذا، لكنه يذكر أنه.. عجز عن الرسم! فكيف ومتى
نشأت هذه الرسمة إذًا؟! والتي لم يكن أغرب ما فيها هو أنه لا يذكر
أنه رسمها، وإنما موضوعها كذلك، بل ووضعيته، والزاوية التي رُسمَ
منها.

لم تكن الرسمة إلا بورتريه شديد الإتيقان له هو، لـ (عمر) نفسه،
بنفس وضعية جلوسه وملابسه منذ ليلة أمس، ومن زاوية توحى
بأن من رسمها كان يجلس أمامه على سرير، في نفس الموضع الذي
تجلس فيه أمه الآن.

على مائدة الطعام، جلس (عمر) و(نازك) يتناولان إفطارهما في
صمت، وقد بدا وجه (نازك) أفضل حالًا من الليلة السابقة، صحيح
أنها لم تكحل عينيها كعادتها كل صباح، إلا أن خفوت حدة تورم
واحمرار الأُمس أظهر جمال وجهها الذي احتفظ بجاذبيته رغم
سنوات عمرها التي تخطت الخمسين. أما (عمر)، فقد بدا صامئًا
جامدًا كالأُمس، شاردًا عما حوله، عن طعامه، وأمّه التي تنظر له في
حنان بالغ وقلق.

شارد الفكر في لوحة التابلت وغرابة أمرها، ليس في كل تفصيـلة

على حدة، بل في اجتماع كل هذا مع بعضه البعض. فلو فكر في كل تفصيلة على حدة بالفعل، لوجد أنه أحيانًا ما يرسم وهو نصف واعٍ تقريبًا، لانشغال عقله بموضوع يفكر فيه، أو موسيقى يستمع إليها. الأمر ليس غريبًا جدًا، لا بالنسبة له، ولا في المطلق، لأنه يحدث مع من يشردون كثيرًا، لكنه.. شبه متأكد من أنه لم يرسم هذه اللوحة بالذات، عقله لا يحمل لها أي ذكرى ولو باهتة أو مشوشة كما يحدث في المعتاد. الأمر يبدو وكأن هذا الجزء من ذاكرته ممسوح أو مقطوع أو... أو أنه لم يرسمها بالفعل.

بالنسبة لرسمه لنفسه، فلا غرابة أيضًا، لا له، ولا في المطلق كذلك. البورتريه الذاتي شيء عادي ومعروف، وقد رسم هو نفسه مرارًا من قبل، ومن شتى الزوايا، لا عجب بالتالي في زاوية اللوحة، ولا في خلفيتها، فالغرفة غرفته على كل حال، يستطيع أن يرسم أي جزء فيها من الذاكرة لو أراد، ليس ضروريًا بالنسبة له أن يجلس في مواجهة هذا الجزء، ولا حتى أن ينظر له.

أما عن شدة الإتقان، فقد رسم عدة لوحات أبهرت الكثيرين بإتقانها، لكنه بالأمس كان مرهقًا للغاية، نفسيًا وجسديًا وعقليًا، روحه ذاتها كانت مرهقة. السؤال هنا إذاً هو: كيف استطاع أن يتفوق على نفسه بهذا الشكل، وهو في تلك الحال؟

كل نقطة في الأمر تحمل قدرًا من الغرابة، لكنها لا تجعله مستحيلًا، بل ربما كانت الغرابة الحقة تكمن في شعور (عمر) نفسه نحو اللوحة. جزء منه خائف منها، مرتاب في أمرها، يكاد يقسم إنه لم يرسمها، وأن هذا ليس أسلوبه في الرسم. وجزء آخر منجذب إليها، فخور

بها، لأنها، فنيًا، والحق يقال، رائعة رغم بساطتها. وجهه الذي يراه لا يحمل إلا قدرًا متوسطًا من الوسامة، بدا فيها وسيقًا للغاية، كأن اليد التي رسمتها محترفة خبيرة، تعرف جيدًا كيف تبرز مواطن الحسن وتخفي العيوب، محافظة، في الوقت نفسه، على الملامح الأصلية.

- «مالك يا (عمر)؟»

أفاق من تأملاته على صوت أمه المتسائل، ليتساءل بدوره:

- «مالي؟»

- «شكلك تعبان».

- «لا أنا كويس مافيش حاجة».

- «بس إنت مانمتش من إمبارح».

- «لا نمت عادي».

- «بهذومك؟!»

- «ماكنتش قادر أغير».

- «نمت قاعد وعينيك مفتوحة؟!»

- «إنتي محسساني إنك اتعرفتي عليا النهارده الصبح يا ماما، ما

إنتي عارفة من وأنا طفل إن عيني ساعات بتبقى مفتوحة شوية وأنا نايم، ده إنتي حتى أول واحدة تاخد بالها من الموضوع ده».

قالها وأطلق ضحكة باهتة قصيرة، قابلتها هي بجدية تامة، وهي

تقول:

- «عينك ماكانتش مفتوحة شوية يا (عمر)، كانت مفتوحة أوي،
كانك كنت صاحي، أنا أول مرة أشوفك بالشكل ده».

- «إنتي عارفة إنتي كام مرة تقولي لي إنك أول مرة تشوفيني
بالشكل ده؟!»

قالها بابتسامة خفيفة، فابتسمت بدورها بإشفاق، وهي تقول:

- «أنا بس قلقانة عليك يا ابني».

- «هيجرى لي إيه يعني؟ ياما دقت على الراس طبول».

قالها وعيناه تعودان لشرودهما، وعقله كذلك يعود لشروده، فيما
مضى من ذكريات.

شبرا

2003

في ساعة متأخرة من إحدى ليالي الصيف الطويلة، وفي ركن
شرفة غرفته الصغيرة، جلس (عمر) متربعا على شلثة فوق الأرض،
شاعرا بسعادة نادرا ما يشعر بمثلها، فبجواره صندوق فيه كل
ما يحبه ويحتاجه في عالمه الصغير، وكل ما يكرهه ويمنعه، بل
ويجزمه أحيانا، والده. كتب ومجلات، قصص مصورة وغير مصورة،
دفاتر للكتابة وأخرى للرسم، أقلام وألوان، وأدوات من شتى الأنواع،
أغلبها طفولي إلى حد ما، ومناسب لسنوات عمره العشرة.

صندوقه ذاك كان يرقد بصفة شبه دائمة، أسفل مرتبة سريره، في

التجويف المخفي بين ألواح الفلة وأرض الغرفة، فلا يخرج إلا في مناسبات معينة، كأن يكون والده نائمًا أو خارج البيت، أو الاثنين معًا، كما كان الحال في تلك الليلة، حيث ذهب لزيارة جدته وتأخر عندها، الأمر الذي جعل (عمر) يرجح، أو يتمنى، أن يبيت أبوه ليلته هناك.

لا يخرج الصندوق كذلك إلا بطقوس أو ضوابط معينة، تتغير تبعًا لتغير الموقف. ففي حالة نوم أبيه، وحين يكون الوقت متأخرًا، يترىث (عمر) قليلًا كي يتأكد أولًا من استغراقه في النوم، ثم يغلق باب غرفته على نفسه ويطفى أنوارها، مكتفيًا بإضاءة مصباح الشرفة الضعيف، كي لا يتسرب الضوء من أسفل باب الغرفة، وأشيًا ببقائه مستيقظًا، لوالده الذي يمنعه بحزم من السهر، حتى في إجازة الصيف.

أما في حالة خروج أبيه من البيت، فالصندوق يخرج فور التأكد من ذلك، كي يحظى بأكبر وقت ممكن من المتعة قبل عودته، لكنه يترك باب غرفته مواربًا، كي يتمكن من التقاط أي صوت أو علامة تشي بتلك العودة، فيتمكن من إعادة إخفاء الصندوق في الوقت المناسب.

كنتيجة لكل هذا، قامت حواسه بتطويع نفسها، بالتدرج، لتلائم هذا كله. عيناه أصبحتا قادرتين على تمييز الأشكال والألوان، بل والكلمات، في الإضاءات الخافتة جدًا، وبوضوح تام ودقة كذلك، كما صار بإمكان أذنيه، وهو في غرفته، التقاط وتمييز صوت سيارة أبيه حين تقترب من البيت، ليتوتر، وتجمع على صدره الكآبة، ثم صوت

خطواته وهو يصعد السلم، ليدق قلبه بعنف، وعرق التوتر ينبت على جبينه، وأخيرًا، صوت دوران مفتاحه في باب الشقة، ليقفز من مكانه حرفيًا، وأذناه تصفران من شدة الخوف، حتى لو لم يرتكب أيّ أخطاء على الإطلاق.

في تلك الليلة، بعيدًا عن كل هذه الكآبة وذلك الخوف، جلس (عمر) في مكمنه الأثير ممسكًا بدفتر رسم، مقطبًا جبينه بتركيز، لا توتر، يحاول نقل رسمة أعجبتة في مجلة، لا يشغله إلا درجة لون معينة فيها، يمزج ألوانه القليلة محاولًا تقليدها، معتمدًا في ذلك على خبرته القليلة كألوانه، وموهبته التي تفوق خبرته وألوانه، وسنوات عمره كذلك.

فجأة، تسمرت يده فوق الورق حين أتاها صوت أبيه، من داخل الشقة، من موضع قريب، وبنبرة حادة كذلك، كأنه يتشاجر.

لكن مهلاً.. هل يسمعه فعلاً أم يتخيل ذلك فحسب؟ لأنه يعرف أن هذا يحدث له أحيانًا. يكون في غرفته أو الحمام، ثم يسمع شجارًا أو صراخًا يميز فيه صوت أبيه. يهرع خارجًا ليرى ما هناك، فيفاجأ به صامتًا أو نائمًا حتى. يسرع نحو أمه سائلًا إن كانا قد تشاجرا، أو إن كان والده قد صرخ لسبب ما، فتجيبه بالنفي والحيرة ترتسم على وجهها، ليتركها وهو أشد حيرة منها. تكرر معه ذلك الموقف حتى ألفه ولم يعد يثير دهشته، خاصة حين منحته أمه تفسيرًا، يشعر أنها محقة فيه، وهو أن هذا الذي يحدث له، على الأرجح، سببه شدة خوفه من أبيه.

رغم ذلك، أراد التأكد من أن البر أمان. أرهف سمعه وأنصت جيدًا،

لكنه وجد هذا غير كافٍ. ترك ما بيده ونهض، وسار بحذر نحو باب الغرفة، ليصك مسامعه صوت أبيه الذي ارتفع في تلك اللحظة أكثر، ليجفل (عمر) متراجعا برأسه إلى الوراء، ومتأكدًا تمامًا، من أنه قد عاد بالفعل.

لكن متى؟! ولماذا في تلك الساعة المتأخرة وهو يكره القيادة ليلاً أصلاً؟! وكيف فاته هو، (عمر)، صوت سيارته الذي لا يفوته ولا يخطؤه؟! أسبب تركيزه في الرسم وشروده عما حوله كعادته؟؟

لا وقت للتفكير أو التساؤل الآن، يجب أن يهدأ ويحاول التصرف بسرعة، والتظاهر بالنوم. قد يظنه والده نائمًا بالفعل لأن نور غرفته وبابها مغلقان، لكن، ماذا لو قرر التأكد من ذلك بنفسه؟؟

دق قلب (عمر) بقوة وجسده كله يرتجف. يجب أولاً أن يخفي الصندوق، فليس أسوأ ما يمكن أن يحدث له هو الضرب، بل مصادرة صندوقه، الذي لو رآه والده وتبين ما بداخله، لصرخ فيه، ولضربه وعنفه، ولربما ألقى عليه محاضرة عن تضييع الوقت والتفاهة والكلام الفارغ، ولو توقف الأمر عند هذا الحد، لما اكرث (عمر) كثيرًا في الواقع، لكنه يعرف أن صندوقه في النهاية قد يختفي فلا يراه ثانية أبدًا، وأنه قد يجن، حرفيًا، لو حدث هذا.

لا بُدَّ إذًا أن يختفي الصندوق عن عين أبيه. لكن إعادته إلى مكانه تحت السرير لا وقت لها الآن، بل قد تتسبب في نتيجة عكسية تمامًا لو فتح والده الباب أثناءها، وقتها ينكشف أمر الصندوق، بل والمخبأ كذلك. لا وقت إلا لإلقاء الشلطة التي كان يجلس عليها فوقه، بحيث يصبح محصورًا بينها وبين الحائط. فيما بعد سيجد الوقت الكافي

لإعادته لمكانه الأصلي حين تسنح الفرصة، لكن ليس الآن.

جمع حاجياته بسرعة ورمها داخل الصندوق وأغلقه، ثم رمى الشلثة فوقه وتأكد من اختفائه خلفها، قبل أن يطفى نور الشرفة ويركض نحو سريره ليقفز إليه، وقلبه لا يزال يدق بعنف شديد.

الصراخ في الخارج لا يزال مستمرًا، بل وترتفع حدته. بدأ يميز فيه صوت أمه مختلطًا بصوت أبيه. أغلق عينيه محاولًا تهدئة أعصابه والتظاهر بالنوم، متمنيًا لو كان باستطاعته إغلاق أذنيه كذلك. لو دخل والده الغرفة الآن لعرف أنه قطعًا ليس نائمًا، فجسده يرتجف وأنفاسه متقطعة وجفناه يختلجان، لكنه لا يعرف أيهما يخيفه أكثر، اكتشاف أبيه لأمره، أم الحرب المشتعلة الآن بين أمه وأبيه.

انقلب على جانبه الآخر موليًا ظهره للباب، محاولًا إخفاء وجهه في وسادته، لكن الصراخ ارتفع أكثر، وازدادت حدته أكثر. بدأ يميز أصوات تشابك جسدي، مختلطة بأصوات أجسام ثقيلة ترمى أو تتصادم أو تسقط على الأرض، ثم سمع أمه تصرخ بلوعة وألم، ليفتح عينيه عن آخرهما مذعورًا سائلًا نفسه، هل يضربها أبوه الآن..؟؟

بل هو يقتلها! صراخها المدوي يقول إنه لا يضربها وإنما يقتلها!! ما الذي يجب عليه فعله الآن؟؟ أينأى بنفسه عن الحرب المخيفة الدائرة في الخارج، أم يهرع لينقذ أمه من براثن أبيه؟؟

لكن الحرب نفسها لم تمهله حتى يفكر في كيفية التعامل معها، مبادرة هي باقتحام غرفته، إذ فوجئ بالباب يُفتح ويُدفع بعنف لتدخل منه أمه يتبعها أبوه، وقد اعتصر ذراعها بقبضته، وبدأ على وجهه غضب مخيف، في حين بدت هي منهارة باكية مبعثرة الهيئة

والشعر، تحاول جذب ذراعها من يده، صارخة:

- «ابنك عندك أهو، اسأله إن كان الكلام اللي بتقوله مامتك ده صح ولا لا، اسأله».

ليجذبها هو نحو باب الغرفة، صائحا:

- «مش هسأل حد، أنا أمي مابتكدبش».

راقب (عمر) هذا كله متسع العينين، مرتجف الشفتين. جف حلقه وكأنه تائه في صحراء، وتعلجت أطرافه وكأن تلك الصحراء جليدية. شعر وكأنه مفصول عن العالم، أو كأنه في كابوس. انتبه في تلك اللحظة إلى صدر ثوب أمه الممزق المشقوق، لتفزع تلك التفصيلة أكثر، أو تزعجه ربما، أو تزيد من كابوسية المشهد بشكل ما.

- «هو بيبقى قاعد معاهم وشايفهم، ما تسأله!»

صرخت بها أمه وهي تحاول التملص من أبيه الذي ظل يحاول جذبها خارج الغرفة، صارحا:

- «كفاية بقى اللي بتعمليه ده، كفاية».

- «كفاية إنت اللي بتعمله فيا إنت وأمك، مافيش مرة تروح لها إلا وترجع مقلوب عليا وعلى أهلي!! إيبقيه؟! عملنا لكم إيه؟؟!! حاطينا في دماغكم ليه إنت وأمك؟؟!!»

- «يا بنت ال.....!!!»

صرخ (فؤاد) بتلك العبارة المبتورة في ثورة، بدت وكأنها هي نفسها السبب في ذلك البتر، كأنه استشاط غضبا لدرجة لم يعد

يعرف كيف يعبر عنها بكلمات، بل بحركات وأفعال، إذ بدا وكأنه قد فقد السيطرة على أعصابه تمامًا، لتجذب عيناه بشدة وهو يجذب (نازك) من شعرها، ثم ينهال عليها ضربًا.

(عمر) أيضًا كاد يفقد السيطرة على أعصابه، أو فقدتها بالفعل، وهو يشاهد ذلك المنظر. دمعت عيناه لا إراديًا، وتشنّج فمه رغما عنه، ثم فقد الشعور بأطرافه كلها، وكاد يفقد التحكم في مئنته كذلك، وصرخات أمه تعلو بتزايد يصم الآذان، ويحطم الأعصاب، بل ويكاد يخرق حوائط الشقة نفسها، ليحطمها هي الأخرى.

لا بُدَّ أن البيت كله، بل الشارع بطوله، يسمع هذا الصراخ الآن. كذا فكر (عمر)، متمنيًا أن يدفع هذا أحدهم إلى المجيء وإيقاف هذه الكارثة، متسائلًا، في قرارة نفسه، عن إمكانية أو جدوى ذهابه بنفسه للإتيان بأحدهم، جده، زوج خالته، أو حتى إحدى خالتيه، أي شخص، أي نوع من أنواع النجدة.

لكنه يعلم أن هذا التصرف، على الأرجح، لن يأتي بالنجدة لأمه، بل بالوبال عليه هو، لأن أباه يكره جدًا أن يتدخل الآخرون في حياتهم، أو أن يتدخلوا هم في حياة الآخرين، يكره الاختلاط بالبشر أصلًا، حتى من يعيشون معهم في نفس البيت، وقد حذره مرارًا، حتى في الأوقات العادية، وبلا سبب تقريبًا، من الاختلاط الزائد بأبناء خالته. ثم إنهما، أبوه وأمه، يسدان فتحة باب الغرفة بجسديهما، بطريقة تمنعه من الخروج منها حتى لو أراد. ليس أمامه إذًا إلا الدعاء والتمني، أن تنتهي الكارثة من تلقاء نفسها، أو أن تأتي نجدة ما، كي تضع حدًا لها.

المشكلة أن صوت الصراخ عالٍ فعلاً، بشكل يفوق الوصف، ولدرجة أنه، حرفياً، يمكن أن يغطي على أي صوت آخر حولهم، ولربما كانت النجدة المنشودة عند باب الشقة الآن، تطرقه فلا تُسمع، وتدق الجرس فلا تجد من يفتح لها.

ثم بدا وكأن نفس الأفكار قد خطرت لـ (فؤاد) أيضاً للأسف، لأنه توقف عن ضرب (نازك)، فقط كي يسد فمها بيده، صارخاً:
- «كفاية فضايح بقي».

لتنسع عيناها ويحمر وجهها وكأنها تختنق، وهي تحاول دفع يده الضخمة عنها. ضربت وخمشت وتشنجت وطاشت ضرباتها، كل هذا ووجهها يحمر أكثر، وعروق عنقها تنفر إلى حدٍ مخيف.

هنا انفجر (عمر) باكياً بلا صوت. شيء ما، في المشهد المائل أمامه، ذكره بمشهد ذبح الفرارجي للدجاجة في السوق. هي أيضاً تنتفض وترفرف كأمة الآن، وتقاوم رغم الكف القوية التي لا تفلتها أبداً، لكن.. ماذا لو تشابه المشهدان حتى النهاية؟؟ هل يعني هذا أن أمه ستموت الآن؟! هنا حالاً؟! أمام عينيه؟؟!!

وجد نفسه، رغماً عنه وفي ثوانٍ معدودة، يتخيل حياته من بعدها، وحاله من دونها. تخيل حاله وحياته بمفرده مع أبيه، أو، وهو الأسوأ، مع جدته وأبيه...

دفعته بشاعة الفكرة للقفز، غريزياً، من مكانه. القفزة الأولى أوقفته فوق فراشه، والثانية ألقت به مباشرة بين والديه. لكنه لم يكد يحاول التخليص بينهما، حتى أصابته ضربة، لم يتمكن من تحديد

مصدرها، أطاحت به ليطير عبر الغرفة ويسقط متكومًا، مذهولًا أكثر منه متألمًا. وقبل أن يحاول معاودة لم شتات نفسه المبعثرة، ومسح ضباب الدموع عن عينيه كي ينهض من جديد، سمع أباه يصرخ عاليًا فجأة، مُطلقًا سبّةً، ورأى أمّه، من خلف غشاوة دموعه واضطرابه، تتحرر أخيرًا من قبضة أبيه، لتندفع نحوه هو صارخة:

- «إنت شفت ولاد خالتك بيعاكسوا جدتك في التليفون يا (عمر)؟!؟!»

شبرا

30 يوليو

2016

في نفس المسار الذي سار فيه (عمر) مرارًا وهو طفل خائف من بطش أبيه، سار الآن وهو شاب حزين عليه. خرج من شقتهم التي تحتل كامل الطابق الثاني من بيت العائلة الذي يعيشون فيه جميعًا، والذي بناه جده (صابر) في سبعينيات القرن العشرين، في حي (شبرا) بمدينة (القاهرة)، مُخصصًا فيه شقة له ولزوجته الراحلة، وثلاث أخريات لكل واحدة من بناته.

هبط إلى الطابق الأول حيث الشقتان المغلقتان المهجورتان طيلة حياته تقريبًا، شقة أمّه، وشقة خالته الصغرى (هالة). بالنسبة لشقة أمّه، فهي خالية ومغلقة لأن والده رفض أن يعيش أو أن يؤسّس أسرة في شقة ليست من خر ماله، مملوكة لزوجته؛ لذلك قام ببناء

الطابق الثاني كاملاً بماله الخاص. وأما شقة خالته (هالة) فـ...

- «(عمر).. إزيك دلوقت؟ عامل إيه؟ وخالتو عاملة إيه؟»

- «الحمد لله، إزيك إنتي يا (صافيناز)؟»

احمرّ وجهها قليلاً إثر عبارته، وتشاغلت بحبك حجابها الصغير حول شعرها الذي يصر على الانزلاق خارجه. كانت بكامل أناقتها ومساحيق تجميلها كعادتها، ممسكة بتليفونها المحمول، ومستندة إلى درابزين السلم أيضاً كعادتها، (صافيناز) ابنة خالته الكبرى (زينب)، والتي تقع شقتها في مواجهة شقة جده (صابر)، في الطابق الأرضي الذي وجد نفسه قد وصل إليه دون أن ينتبه، ليعود وينتبه مرة أخرى على صوت (صافيناز)، التي عادت تقول:

- «إحنا كنا طالعين لكم كمان شوية أنا وماما، هي خالتو صاحية؟»

- «آه صاحية، اطلعوا لها».

قالها واتجه نحو بوابة البيت، لتستوقفه متسائلة:

- «إنت خارج؟»

- «آه».

- «بدري كده؟ على فين؟»

- «مفيش، هتمشى شوية».

واستدار كي يولج مفتاحه في بوابة البيت ليفتحها ويخرج، ثم يعيد غلقها خلفه ثانية بالمفتاح، كعادتهم جميعاً. كل من يسكن في البيت معه مفتاح لبوابته، والكل يجب أن يوصد البوابة خلفه دائماً،

حتى يظل البيت مغلقًا وآمنًا على مَنْ بداخله طوال الوقت. كان هذا هو قانونُ (صابر) الصارم الذي تعوّدوا عليه جميعًا، حتى أصبح عادة عندهم أكثر منه قانونًا عليهم. وقد أتاح لهم هذا القانون شيئًا من الراحة فيما بينهم، تجعلهم يتركون أبواب شققهم غير موصدة أحيانًا، فيما عدا شقة واحدة، لم يكن صاحبها يسمح بتركها مفتوحة أبدًا، مهما كانت الظروف، شقة (فؤاد علي)، والد (عمر).

لم يكن الأخير صادقًا مائة بالمائة حين قال إنه سيتمشى قليلًا. كان في مخططه أن يجلس على القهوة قليلًا، ثم يقابل (نرمين)، أو العكس. لكنه وجد نفسه يصدق رغبا عنه، وجد نفسه يتمشى فعلاً، يهيم على وجهه بلا هدى بمعنى أدق، ويهيم، بنفس الطريقة، في ذكرياته كذلك.

شبرا

1998

أثار الصراخ المنبعث من داخل الشقة، من خلف بابها المغلق، فزع أطفال العائلة الأربعة، بقدر ما أثار فضولهم، من أكبرهم لأصغرهم، بالأخص أصغرهم، (عمر)، بسنوات عمره الخمس، وعينيه المتسعيتين في وجهه المتصلب، بنظراته الملتصقة بالباب، ووعيه الطفولي الذي لا يفهم ما يجري جيدًا، لكنه يضخمه رغبا عنه، بل ويشوّهه قليلًا كذلك، ليتحول الأمر كله في النهاية إلى ذكرى باهتة مشوّشة جدًا في عقله، لكنها أيضًا مخيفة وغريبة، ولا ثمكى أبدًا.

أكثر من فهم ما يحدث وقتها كان (سعيد)، أكبر أطفال العائلة، وأكبر إخوته كذلك، الأمر الذي جعله دائمًا شبه مسؤول عنهم بشكل ما، أمام نفسه وأمام الكبار؛ لذلك كان هو المكلف بإبعاد الصغار، أخيه (شريف) وأخته (صافيناز) وابن خالتهم (عمر)، عن شقة جدهم (صابر)، التي تجتمع فيها الكبار، مغلقين بابها عليهم، قبل أن تبدأ حفلة الصراخ المريع الذي ينبعث من داخلها الآن.

لا يزال (عمر) يذكر ذلك اليوم، بطريقة مشوشة مهتزة نعم، لكنه يذكره. يذكر أنه شعر أن جو البيت كله تكهرب فجأة، وأنه لم يكن يعي وقتها ما يحدث، أو لماذا يحدث، لكنه كان يفهم بشكل ما أنه يخص خالته (هالة). لا يذكر من كان بداخل شقة جدهم بالضبط، لكنه يذكر أنه كان يقف مع (شريف) و(صافيناز) أمامها، يحاولون سماع ما يحدث خلف بابها المغلق، حين أتى (سعيد) ليهشهم إلى الخلف، حتى وقفوا جميعًا عند باب شقة خالته (زينب)، المواجهة لشقة جدهم.

لكن (سعيد) لم يفلح في إبعادهم أكثر من ذلك، أو ربما منعه فضوله هو أيضًا من الابتعاد أكثر، ليقف معهم، متقدمًا عنهم بخطوة كنوع من إثبات السيطرة. كان أكبرهم بالفعل، لكنه كان طفلًا في الحادية عشرة رغم كل شيء. هكذا وقفوا متسمرين عند الباب المفتوح، متعلقة أبصارهم وأسماعهم بالباب المغلق، يمنعهم الخوف من التقدم، والفضول من التقهقر.

لا يذكر كيف ولا متى هدأت الأمور قليلًا، سكت الصراخ وفتحت

الأبواب، ووجد (عمر) طريقًا إلى غرفة خالته (هالة) نصف المظلمة، حيث جلست (هالة) نفسها تبكي، بحرقة لكن بصمت، كأن بداخلها بركائًا مكتومًا. لا يزال يذكر حيرته وانقباض صدره حين رآها على تلك الحال. خالته الجميلة التي يحبها، وتحبه، كثيرًا، تجلس في الضوء الخافت الكئيب على طرف سريرها. جسدها الرقيق متشنج منحنٍ على نفسه كأنها تتلوى من الألم، شعرها الناعم الجميل مبعثر حول رأسها، ويدها متشنجتان فوق وجهها، كأنها لا تريد أن تكتم بكاءها فحسب، بل أنفاسها كذلك.

- «خالتو إنتي بتعيطي؟»

قالها وهو يصعد فوق السرير كي يجلس بجوارها، ثم يمد يده الصغيرة ليملس بها على شعرها وكأنه يحاول ترتيبه أو تصفيفه بأصابعه. هنا أنزلت هي يديها عن وجهها، ليفزعه وقتها ما رآه. لم يكن قد رأى قبل ذلك في حياته وجهًا محمّرًا متورمًا إلى هذا الحد من فرط البكاء. لم يكن يدرك أن البكاء يمكن أن يغير الملامح بهذه الطريقة أصلًا. هاله المنظر لدرجة أنه أربعه تقريبًا، وجعله يتساءل برهبة وقلق بالغين:

- «هو إيه اللي حصل؟!»

العباسية

30 يوليو

2016

ماذا؟ كيف وصل إلى هنا؟ بل متى؟ ولماذا؟

نظر (عمر) حوله في حيرة ممزوجة بشيء من الدهشة. هل ابتلعتة أفكاره وذاكرياته إلى هذا الحد؟ هل سار حقًا على قدميه من حي (شبرا) إلى حي (العباسية) شاردًا، ودون أن يدري حتى إنه فعل؟ غريبة، والأغرب هو ذلك الشارع الذي وجد نفسه يقف عند ناصيته الآن، الشارع الذي قادتة إليه قدماه لا شعوريًا، وبدقة وتحديد بالغ رغم ذلك، كأن في لا وعيه نوعًا خاصًا من الـ GPS، ورغبة غريبة في زيارة المنزل الذي ولد أبوه وتربى فيه.

الآن يغزوه الحنين، أو شيء يشبهه. سار في الشارع حتى وصل إلى العمارة المنشودة، المبنية على النمط القديم، بزخارفه الجميلة ونوافذه الطويلة، وكل ما يحبه ويفتقده في طراز بيت جده (صابر) الحديث. لم يأتِ إلى هنا منذ وقت طويل، لا يذكر حتى آخر مرة كان فيها هنا، لكنه يذكر المكان جيدًا، بمدخله الذي كان، ولا زال، باردًا رطبًا صيفًا وشتاءً، خافت الإضاءة ليل نهار.

صعد السلم ببطء، وقشعريرة الذكريات تزحف على جسده ببطء مماثل، حتى وصل إلى الطابق الأول، حيث تقع الشقة. كانت من الطراز الذي له بابان، بشراعة على كل منهما. الباب المواجه هو الرئيسي، المخصص لأهل البيت، والأيمن هو باب غرفة الصالون، المخصص للضيوف، والذي لا يذكر (عمر) أنه رأى ضيفًا، أو غير ضيف، يمر عبره أبدًا. لم يره أصلًا مفتوحًا أبدًا. كان دومًا مغلقًا وموصدًا ومسدودًا بواحد من مقاعد الصالون المذهب الثقيل، والذي يذكر أنه حاول زحزحته مرة وهو طفل، لتنهزه جدته بعنف، وتمنعه

من الاقتراب من هذا الجزء من الشقة أصلاً، أو حتى السؤال عن سبب ذلك المنع.

انتبه في تلك اللحظة إلى أنه كان يحدق بنصف وعي في شراعة الباب الرئيسي التي سود زجاجها المنقوش تراكم الغبار. تأرجحت مشاعره ما بين الحيرة والتوتر والرغبة. ما الذي يفعله هنا حقاً؟ بل ما الذي أتى به إلى هنا أصلاً؟؟ هل يدخل إلى الشقة؟ وهل مفتاحها معه؟ أخرج سلسلة مفاتيحه من جيبه ليجد نفسه يلتقط المفتاح المنشود منها بيسر وتلقائية، كأنه يستخدمه كل يوم، رغم أنه قبل لحظة فاتت، لم يكن يعرف إن كان معه أصلاً أم لا.

بيد ترتجف قليلاً، أدخل المفتاح في الكالون، وقبل أن يديره بداخله، سقط الغبار الذي كان يسد زجاج الشراعة من الداخل، فجأة ودفعة واحدة، من جراء دفعته الخفيفة للباب وهو يدخل المفتاح فيه على الأرجح. سقط أو... انزاح. لم يسقط بالفعل بل «انزاح»، هي الكلمة الأدق؛ لأن السقوط يكون لأسفل، أما السواد الذي كان يغطي الشراعة، فقد تحرك إلى اليسار.

فجأة فطن (عمر) إلى الحقيقة؛ السواد الذي كان يسد زجاج الشراعة، الذي ظل واقفاً في مواجهته يحدق فيه، لا تفصله عنه سوى خطوة واحدة، لم يكن غباراً بل شخصاً ما، شخصاً داخل الشقة يقف مباشرة خلف الباب.

لكن هذه الشقة، على حد علمه، لم يطأها مخلوق منذ سنين.

جقد الخوف (عمر) في مكانه تمامًا. تمكن فقط من التراجع، لا إراديًا، خطوتين إلى الوراء، قبل أن تنشل كل قدرة لديه على الحركة أو التفكير. وقف ثابتًا يحدق في الشراعة دون أدنى تعبير على وجهه، لا يرمش حتى بعينه. شعر أنه لا يستوعب ما حدث، أو لا يصدق، ولا يعرف كيف يتصرف حياله. عيناه معلقتان بالباب وكأنه يطلب منه توضيحًا أو تفسيرًا، وكأنه يسأله، هل كان يتخيل؟ هل مراقبته للشراعة يمكن أن تؤكد له ما حدث أو تنفيه؟ هل سيظهر ذلك الشخص، أو الشيء، ثانية؟ وهل يريد أن يظهر أصلًا؟!

هنا فقط، بدا وكأن عقله وجسده عادا للعمل فجأة. انضخ الأدرينالين في عروقه ليتخذ قراره بسرعة ودون تفكير. استجمع شجاعته وجذب المفتاح من الكالون بسرعة البرق، قبل أن يتراجع بحذر بظهره كي لا يوليه للباب، حتى يصل إلى السلم، فيطلق ساقيه أخيرًا للريح.

المهندسين

30 يوليو

2016

- «إيه رأيك؟»

- «حلو جدًا!»

قالتها (نرمين) بحرارة وصدق واضحين في صوتها، وانبهار ظاهر في عينيها المعلقتين بشاشة تليفونها المحمول، وهي تجلس إلى منضدة صغيرة قُربَ النافذة في ذلك المقهى الأنيق في حي (المهندسين)، بجوار (عمر) الذي عاد يسألها:

- «تفتكري مين اللي راسمه؟»

- «مين اللي راسمه يعني إيه؟! مش إنت اللي رسمته؟!»

- «لا مش أنا».

- «أمال مين؟؟»

- «ما ده اللي أنا عايز أعرفه».

- «مش فاهمة».

قص عليها ما حدث بخصوص البورتريه الغامض الذي لا يعرف من أين أتى، وهي تنصت له بصمت واهتمام، حتى أنهى كلامه بنفس السؤال الذي بدأه به:

- «تفتكري بقى مين اللي رسمه؟»

عادت تنظر إلى البورتريه على شاشة تليفونها وهي لا تزال صامته،
والحيرة بادية على وجهها. كبرته لتتمعن في تفاصيله، ثم صغرت
ثانية لتنظر له ككل، ثم عادت تكبره، وهكذا دواليك، إلى أن قطع هو
صمتها وحيرتها، سائلًا:

- «هو ده أسلوبى فى الرسم؟»

- «إنت شايف إنه مش أسلوبك؟»

- «مش عارف، أنا بسألك».

- «أنا شايفة إن إنت مالكش أسلوب ثابت فى الرسم أصلاً».

- «يعنى ممكن أكون أنا فعلاً اللي رسمته».

ترددت قليلاً قبل أن تقول:

- «ممكن».

ارتسم الغم على وجهه، وزاغت عيناه قليلاً، وهو يقول:

- «يعنى إيه؟؟ يعنى أنا بتجنن بقى ولا بافقد الذاكرة ولا إيه اللي

بيحصل لى بالضبط؟! إيه كل اللي بيحصل معايا ده؟؟»

- «هو حصل حاجة تاني؟ أقصد.. غير وفاة باباك يعنى».

زفر بضيق وهو يقول:

- «حاجات، حصلت حاجات مش حاجة واحدة».

- «حصل إليه؟؟»

قالتها بقلق وهي تتطلع إليه بتساؤل مشفق، في حين صمت هو قليلاً وكأنه يستجمع ما يريد قوله في رأسه، إلا أنه ما لبث أن أجاب باقتضاب:

- «سيبك».

وصل الجرسون في تلك اللحظة بطلباتهما فصمتا سوياً. تشاغل هو مع الطلبات، في حين راحت هي تراقب تعابير وجهه التي تبدلت فجأة وهو يبتسم للجرسون ويشكره بلباقة، قبل أن تختفي ابتسامته بنفس سرعة ظهورها، وفور انتهاء الغرض من وجودها. كانت تعرف أن محاولة سبر أغواره من تعبيرات وجهه أمرٌ شبه مستحيل. صحيح أنه يملك وجهًا وسيماً هادئاً مريحاً، إلا أنه كذلك جامد متصلب، تصعب قراءته أغلب الوقت، حتى عليها، تصعب لكنها ليست مستحيلة، فهي تعرف الآن أنه حزين ومغتمٌ للغاية، ومتوتر ويفكر بعمق كذلك، رغم هدوء مظهره الخارجي.

أما هي، فقد كانت تعرف أنها على النقيض التام منه في هذا الصدد، فمشاعرها تنطبع بسهولة على تعابير وجهها، وهو بالذات أفضل من يقرؤها، تكفيه نظرة واحدة إلى وجهها كي يعرف كل ما بداخلها، وتكفيها هي نفس النظرة كي تحمّر خجلًا أمام عينيه العاقبتين، اللتين كانتا تتأملانها في تلك اللحظة بهدوء أربكها. كانت ترتدي فستانًا أسود محتشماً مع حجاب أبيض، وتضع القليل جدًا من مساحيق التجميل، فبدت في نظره جذابة للغاية.

- «بس إنت أحلى على فكرة».

- «أنا إيه؟؟»

- «إنت أحلى، أوسم يعني».

- «أوسم من مين؟»

- «من البورتريه».

- «أنا أوسم من البورتريه بتاعي أنا شخصيًا؟!»

قالها ضاحكًا، لتعود هي وتقول:

- «آه والله».

أخذ رشفة من قهوته، وانقلبت ضحكته إلى بسمه ساخرة قليلًا،
قبل أن يقول:

- «البورتريه اللي أنا نفسي راسمه لنفسي!»

- «مش شرط تكون إنت اللي راسمه على فكرة».

- «مش انتي اللي لسه قايلة كده؟»

- «أنا قلت ممكن، ماقلتش أكيد».

ارتشف ثانية من قهوته، وقال:

- «اشربي قهوتك طيب قبل ما تبرد».

- «إنت متضايق مئي يا (عمر)؟»

- «ليه بتقولي كده؟»

- «لأنك بتحاول تغير الموضوع».

- «عشان أنا متضايق فعلاً، بس مش منك».

- «متضايق من إيه طيب؟ إيه اللي حصل؟ احكي لي».

عاد يرتشف من قهوته ببطء وشروء، وصمت قليلاً ثانية وكأنه سيحكي هذه المرة، لكنه في النهاية قال:

- «ماتشغليش بالك».

شبرا

2002

- «إيه اللي إنت بتعمله ده؟!»

انتفض جسد (عمر) حين صك أذنيه ذلك الهتاف، بصوت أبيه الذي وجده يقف خلفه فجأة، وسط غرفته التي لا يعرف كيف ولا متى دخلها، ليتجمد تمامًا في مكانه كالتمثال، لا يعرف ماذا يقول أو يفعل، ولا حتى كيف يفكر.

- «إيه اللي إنت قاعد تعمله ده؟؟!»

ازداد خوفه وارتبأكه مع إعادة أبيه لنفس السؤال، لكن بطريقة مختلفة قليلاً. وجد نفسه، بسنوات عمره التسع، يتساءل في سره جدًّا، ما إذا كان يوبخه بسؤال استنكاري، أم يريد إجابة حقيقية عليه؟ وأيها أقرب للنجاة، الصمت أم الرد؟ إذا صمت وصبر حتى ينتهي هذا كله، هل سيعتبر عدم رده تجاهلاً وبرودًا، بالتالي قلة تهذيب؟ أم أنه إذا ردّ وحاول التلطيف أو التبرير، سيعتبر رده تحديًا،

وبالتالي، أيضًا، قلة تهذيب؟

لكن أباه لم يمهل كي يفكر أو يرد، بل انهال عليه ضربًا كعادته، بكل أداة ممكنة وغير ممكنة، باليد والقدم، بالعصي والأحذية والأحزمة، بل وأحيانًا بالمقاعد والمناضد، وما يسهل حمله من أثاث أو أدوات. الغريب أن (عمر) كان يفضل مرحلة الضرب هذه، رغم كل ما فيها من ألم نفسي وجسدي، على المرحلة التي تسبقها، مرحلة انتظارها، بالأعبيها العقلية التي تفوق قدرات عقله كطفل. هل هذا السؤال استنكاري أم استفهامي؟ هل يتكلم أم يصمت؟ لو تكلم ماذا سيقول؟ ولو قال شيئًا فكيف سيقوله؟ باختصار، كان يفضل وقوع البلاء على انتظاره، قبل حتى أن يعرف المثل، أو يدرك معناه.

- «فيه إيه يا (فؤاد)؟! إيه اللي حصل؟؟»

كانت تلك العبارة تمثل المرحلة الأفضل، والأسوأ كذلك، بالنسبة لـ (عمر)، مرحلة ظهور شخص ما، أي شخص. الأفضل لأنها تحمل احتمالية أن ينقذه هذا الشخص، بشكل ما، مما هو فيه. والأسوأ لأنها تهينه أكثر للأسف. فبرغم الألم الجسدي الحارق الذي يسببه له ضرب أبيه المبرح، إلا أن الألم النفسي الذي يخلفه فيه أقوى بكثير، وبكثير جدًا بالطبع، حين تكون الإهانة على مرأى ومسمع من آخرين.

أما قائلة العبارة، فقد كانت (فريال)، جدة (عمر) لأبيه، والتي اعتادت زيارتهم والمبيت معهم أحيانًا. كان (عمر) يرحب بزيارات جدته تلك، لما تخلقه في نمط حياته الكريهة من تغيير، رغم أنه لم يكن يميل إلى جدته نفسها كثيرًا. كان يراها أكثر حدة وصرامة مما ينبغي. وبالمثل، كان يخيل إليه، أحيانًا، أنها أيضًا لا تحبه كثيرًا، رغم

كونه حفيدها الوحيد. أما أمه، فقد كان شبه واثق أن جدته لا تحبها على الإطلاق، بل تكرهها ربما، رغم أنه لم يَر من أمه تجاهها، إلا كل توقير واحترام.

- «كفاية يا (فؤاد)! كفاية!! هو عمل إيه؟؟»

قالتها (فريال) بجزع، محاولة إمساك ذراع ابنها لتوقفه. صحيح أنها كانت بالفعل قوية قاسية، وربما لم تكن تحب (عمر) فعلاً كما كان يتصور، لكن مشهد ضربه كان دائماً أقسى من أن يتحملة أقوى الناس. أما (عمر) نفسه، فقد كان الألم الجسدي يدفعه للصراخ بأعلى صوته، والألم النفسي يدفعه لإطباق شفثيه خجلاً، لتصبح النتيجة دائماً هي ذلك الصوت المؤلم الغريب الذي يخرج منه أثناء الضرب، كأنه يزمجر أو يزوم.

كان وهو أصغر سنًا يبكي ويصرخ بعنف أثناء الضرب، وبلا تحفظ على الإطلاق، لدرجة أنه يرثي لنفسه أحيانًا، بل ويشعر بشيء من الغثيان، كلما تذكر نفسه وهو على تلك الحال. أما الآن، فلم يكن يسمح لأحد أن يراه هكذا، ولا حتى أبيه، بل أبوه بالذات، الذي كان يُخيّل إليه، أحيانًا، أنه يستمتع بإيذائه، لهذا لا يرغب في منحه هذه المتعة المقيتة أبدًا.. أبدًا.

- «اتفضلي يا أمي شوفي، قاعد يرسم ويشخبط وسايب مذاكرته! بصي شوفي بنفسك!!»

قالها (فؤاد) بغضب وهو يقبض بيده على كومة أوراق كانت على مكتب (عمر)، مليئة بالرسومات بالفعل، ليربها لـ (فريال)، قبل أن يطوح بها لتتناثر في كل مكان. ومن موقعه، حيث تكوم لاهثًا دامعًا

في أحد أركان الغرفة على الأرض، حمد (عمر) الله على تلك الهدنة البسيطة التي تسببت فيها جدته، والتي، لدهشته، عادت تقول:

- «له حق يا ابني، ما هو طول النهار قاعد ما بيرفعش عينه من على الكتب، له حق يزهدق».

عجيبة! كذا فكر (عمر). أين عبارات اللوم والتقريع التي تحبها جدته كثيرًا؟ أين وقوفها، شبه الدائم، ضده وفي صف أبيه؟
- «قاعد عامل نفسه بيذاكر يا أمي، وهو بيلعب».

قالها (فؤاد) بعصبية، لتعود (فريال) وتقول بإصرار:

- «لأنه محتاج تغيير يا (فؤاد)، محتاج يلعب بجد، أنا من ساعة ما جيت ماشفتوش قام من على مكتبه تقريبًا».

تابع (عمر) الحوار وهو لا يزال على دهشته. أتراه كان ظالمًا لجدته حين اعتقد أنها لا تحبه؟ أتراها ليست بالقسوة التي يحسبها عليها؟ أم أن أباه هو الذي تمادى في قسوته، لدرجة فاقت قسوتها هي، فجعلتها تعترض؟

- «إيه يا أمي اللي انتي بتقوليه ده؟!»

قالها (فؤاد) مستنكرًا، وكأنه، بدوره، لم يتوقع رد فعل (فريال) التي عادت تقول:

- «خليه ينزل يلعب شوية مع ولاد خالته ولأ حاجة، ماينفعش يفضل محبوس كده».

هنا بدأ (عمر) يشعر أن في الأمر خدعة ما، ليس مصدرها جدته

ربما، بل الكون نفسه، فلو وافق أبوه على اقتراحها، وتركه يلعب فعلاً، ومع أبناء خالته! لظل ينتظر انبعاث موسيقى برنامج الكاميرا الخفية من مكانٍ ما. ورغم ذلك، فقد شعر أيضًا بأمل طفيف يراوده على استحياء، أمن الممكن أن يقتنع أبوه أنه مخطئ فعلاً؟! وأن الحياة ليست كلها ضربًا ومذاكرة فحسب؟! أمن الممكن حقًا؟!

- «يلعب إيه بس؟! ده ماقراش 3 ورقات على بعض من أول النهار!»

- «طب عشان خاطري، ساعة واحدة بس راحة ينزل يغير فيها جو شوية، ويوعدك دلوقت إنه يطلع بعدها يقعد على مذاكرته على طول».

- «راحة من إيه؟؟!! بقول لك ماذاكرش كلمة من الصبح!!»

- «طب ليك عليا لما الساعة تخلص، أنزل أنا أجيبه بنفسي من تحت».

- «لأ يا أمي لو سمحتي، مش هينفع الكلام ده».

قالها (فؤاد) بالنبرة التي يعرف (عمر) جيدًا أنها تحسم كل النقاشات، وتغلق كل أبواب الأمل، ففُضي الأمر وغادرت جدته الغرفة مستسلمة. وقبل أن يغادر أبوه الغرفة بدوره، وبصوت صارم غاضب أمر، قال:

- «خلّص اللي قلت لك عليه، هاجي كمان ساعة أشوفك عملت إيه».

شبرا

30 يوليو

2016

- «(زينب) و(فيفي) قاعدين بره يا (عمر)».

قالتها (نازك) الواقفة على عتبة باب غرفته الموارب، ليشير هو نحو السماعة الصغيرة الموضوعة في أذنه، قائلاً:

- «معلش يا ماما معايا تليفون».

فهمت رأسها وغادرت، مغلقة الباب خلفها، ليعود هو إلى استرخائه فوق سريره، ولمكالمته التليفونية، قائلاً:

- «بحلم أحلام غريبة، وبسترجع ذكريات بعيدة أوي، حاجات ماكنتش أتصور إنني لسه فاكرها أصلاً، وفي أوقات عشوائية جداً، بدون أي سابق إنذار».

- «أحلام غريبة إزاي يعني؟ كوابيس؟»

قالتها (نرمين) على الجانب الآخر من المكالمة، ليجيبها:

- «مش كوابيس بالمعنى، مش عارف، مش عارف أوصفها إزاي».

- «وإيه كمان؟»

صمت قليلاً قبل أن يقول:

- «مافيش».

لتصمت هي بدورها قليلاً، قبل أن تقول:

- «إنت فيه حاجة مخبيها».

- «حاجة زي إيه؟»

- «مش عارفة، حاسة إن فيه حاجة ناقصة».

قاطعهما صوت طرقات على باب غرفته الذي انفتح لتقف (نازك) على عتبته مرة أخرى، قائلة:

- «الجماعة هيمشوا خلاص يا (عمر)، مش هتيجي تسلم؟»

عاد يشير إلى السماعه، ليتكرر نفس السيناريو السابق، حين هتفت (نرمين) فجأة:

- «(عمر)، أنا عرفت مين اللي رسم البورتريه بتاعك».

مرت فترة قصيرة من الصمت، انتظر (عمر) خلالها أن تكمل (نرمين) كلامها، لينفذ صبره أخيراً، فيقول:

- «مين؟؟»

- «أنا مش عارفة إحنا إزاي ماخدناش بالناس قبل كده، مع إن الموضوع سهل جداً وبابن أوي».

- «انجزي يا (نرمين) وقولي مين».

- «مامتك».

- «نعم؟!»

- «فكر فيها كده، هي الوحيدة اللي عايشة معاك دلوقت، وانت قلت لي قبل كده إنها بتعرف ترسم كويس».

- «مستحيل».

- «ليه مستحيل؟»

- «أولاً، لأن رسمها مش حلو أوي كده. ثانيًا.. هي هتعمل كده ليه يعني؟!»

- «وهي عملت إيه أصلاً؟! إحنا ليه بنتكلم على الموضوع وكأنه جريمة؟! دي مجرد رسمة».

- «طب ليه على التابلت بتاعي؟! وليه ماقالتليش؟!»

- «عشان إنت ماسألتهاش، ابقى اسألها».

- «بس هي كانت بتتعامل وتتكلم على أساس إنها ماتعرفش حاجة عن الرسمة، وكأنها أول مرة تشوفها!»

- «وجايز إنت اللي فهمت كلامها غلط».

صمت قليلاً وكأنه يفكر أو يتذكر، قبل أن يقول:

- «لا لا، الكلام ده مش منطقي، فيه حاجة مش منطقية».

- «الأكثر منطقية إن إنت اللي رسمتها وناسي كل حاجة عنها؟!»

- «انت بتتريقي يا (نرمين)؟!!!»

قالها بصوت أجش، فيه رنة غضب مكتوم، لترد هي بجزع، قائلة:

- «لا يا حبيبي، أنا ما قصدش كده أبدًا والله!»

لم يعلق، فعادت تقول:

- «ما تزعلش يا (عمر) والنبي».

- «مش زعلان».

قالها بعد فترة من الصمت، بصوت سمعت فيه امتزاج الحزن بالغضب رغم خفوته، ليلين صوتها وهي تقول:

- «خلاص طيب، انس كل اللي أنا قلته، وما تفكرش فيه خالص».

- «بالعكس، صحيح أنا مش مقتنع أبدًا إن ماما هي اللي رسمت البورتريه، لكن انتي برضو صح في نقطة معينة».

قالها بصوت بدا وكأنه يستعيد طبيعته، ورغم ذلك سأله بتردد حذر:

- «نقطة إيه؟»

- «إن أكيد مش أنا اللي رسمته. لكن هارجع تاني وأقول، أقال مين طيب؟؟ إذا كنت أنا أصلًا ما أعرفش في حياتي كلها حد بيرسم حلو أوي كده غير...».

بتر عبارته وصمت، لتستحبه هي على إتمامها، قائلة:

- «غير مين؟؟»

- «..خالتي (هالة)».

- «باب شقة (هالة) افتتح لوحده ثاني».

طرقت العبارة الآتية من غرفة الصالون، أذن (شريف) الجالس في الصالة. كانوا في شقة جده (صابر)، (شريف) ذو الأعوام التسعة، وابن خالته (عمر) الذي يصغره بثلاثة أعوام، في الصالة يرسمان ويلونان، وجده (صابر) وأمه (زينب) في الصالون يتحدثان، بصوت يفترض أنه خفيض، من جهة (صابر) على الأقل، لكنه، بالنسبة لـ (شريف)، مسموع بوضوح، صوت أمه بالذات مسموع دائمًا بالنسبة له، حتى وهي تهمس، أما لو صرخت أو رفعت صوتها، فشارعهم كله يسمعها تقريبًا.

- «يمكن هي اللي فتحت، ما المفتاح معاها، وانتي عارفة إنها ساعات بتطلع تقعد مع نفسها شوية في الشقة وتنزل ثاني».

- «طب وهتسيبها مفتوحة ليه؟!»

- «نسيت تقفلها. انتي عارفة أنا كام مرة ألقاها ناسية حاجة على النار، ونايمة أو قاعدة سرحانة في أوضتها؟! ما انتي فاهمة».

قالها (صابر) وفي صوته شيء يشبه رنة حزن أو أسف خفيف، لم ينتبه إليها (شريف)، رغم سرعة تلوينه التي تباطأت بسبب تركيزه مع ما يُقال. أما (عمر)، فقد بدا وكأنه لم ينتبه إلى أي شيء من الأساس، لا الكلام نفسه، ولا طريقة قوله. بدا منهمكًا مندمجًا مع أوراقه وكأنه لا يعي أي شيء خارج نطاق رسمه وتلوينه.

- «والخبط والرزع اللي بنسمعه بعد نُص الليل! هي برضو؟!»

- «جايز يا بنتي، أنا بانام بدري وماعرفش هي بتعمل إيه بالليل».

- «ده الشقة حتى مافيهاش كهربا! بتطلع تقعد وحدها كده في الضلمة؟!»

هنا كان (شريف) قد توقّف تقريبًا عن التلوين. رفع رأسه قليلًا واختلس النظر بجانب عينه إلى (عمر) الذي لم يبذ عليه أنه تأثر بشيء، أو سمع حتى أي شيء، و(صابر) و(زينب) يكملان حديثهما.

- «طب وهتسيبها كده يا بابا؟!»

- «هاعمل لها إيه يعني يا (زينب)؟»

- «امنعها من الطلوع، خُد منها المفتاح، اللي هي بتعمله ده هيتعبها أكثر».

- «مش عايز أضغط عليها يا بنتي، كفاية اللي هي فيه، من يوم ما ابن الكلب ده بعت لها ورققتها وهي على الحال ده، مش هنبقى إحنا والزمن عليها بقى».

هنا ظهرت (هالة)، بالنسبة لـ (شريف) على الأقل. ظهرت عند مدخل الصالة من جهة غرف النوم، في زاوية تسمح للأخير فقط برؤيتها، فلا (عمر) انتبه لها، ولا (صابر) و(زينب) الجالسان في الصالون رأياها. (شريف) نفسه لم يعرف إن كانت تنصت للحديث من أوله، أم أنها أتت في تلك اللحظة فحسب.

ومع ظهورها، تحول المشهد بالنسبة له إلى شيء أكثر إثارة من

التلوين الذي تجاهله تمامًا، لينقسم تركيزه إلى نصفين، نصف ينصت، ونصف يراقب (هالة) وهي تنصت، وجزء صغير يشعر بشيء من التعالي الطفولي على (عمر) الصغير الأحمق الذي لا يعي ما يحدث، بعكسه هو طبقًا، لأنه الأذكى والأكبر، وبثلاثة أعوام كاملة.

- «مش أنا اللي سبت الشقة مفتوحة يا بابا».

كانت (هالة) قد عبرت الصالة حتى وقفت عند باب غرفة الصالون، قبل أن تقول عبارتها التي جعلت عيني (زينب) تتسعان وجسدها كله ينتفض، قبل أن تستدير بحركة حادة نحوها. كانت تجلس بزاوية لا تسمح لها برؤيتها وهي تقترب، وكان من الطبيعي أن يفاجئها ظهورها المباغت، لكنها، لسبب ما، بدت مذعورة أكثر مما ينبغي، على عكس (صابر) الذي بدا هادئًا، وهو يقول:

- «تعال يا (هالة) اقعدي».

فلم تجلس، لكنها كررت عبارتها، قائلة:

- «مش أنا اللي سبت الشقة مفتوحة».

- «وحتى لو انتي اللي سبتتها يا حبيبتي، عادي بتحصل، جلّ من لا يسهو».

قالتها (زينب) بابتسامة مشرقة عريضة، بدت وكأنها تحاول أن تخفي بها ما بصوتها من توتر، لتعود (هالة) وتقول بإصرار:

- «مش أنا اللي سبتتها، أنا مادخلتهاش من زمان أصلاً».

- «لأ دخلتها، أنا شفتك».

وكانت تلك من (شريف).

مرت فترة قصيرة من الصمت، بدت طويلة للجميع، حتى كسرتها
(هالة) أخيرًا، قائلة:

- «شفتني أنا؟! إمتى؟؟»

- «إمبارح».

- «أنا يا (شريف)؟! شفتني بعمل إيه؟؟»

- «بتفتحي الباب بشويش وتدخل».

- «والله العظيم ما حصل!»

- «(شريف)، تعالى هنا حالًا».

أجفل قليلًا حين جاءته العبارة الأخيرة بصوت جده الجمهوري من
الصالون، لينهض بتماقل متجهًا إليه. وحين وقف أمامه، وجد مظهره
هادئًا بشكل لا يتفق مع صيحته السابقة، وصوته كذلك، وهو يسأله:

- «إنت شفت خالتك (هالة) بتفتح الشقة إمبارح؟»

- «وهو هيكذب ليه يعني يا بابا؟!»

قالتها (زينب)، ليتجاهلها (صابر) تماقًا، مكرّرًا سؤاله لـ (شريف)
الذي بدا عليه القليل من التوتر وهو يختلس النظر لأمه، ليعود
(صابر) ويقول:

- «قول الحقيقة يا (شريف)، وماتخافش».

ظلّ على صمته المتوتر، ونظراته تتبعثر ما بين جده وخالته، وأمه التي قالت بخفوت:

- «اسمع كلام جدك يا (شريف)».

بدا وكأنه حسم أمره أخيراً، ليقول:

- «أيوه شفتها».

- «ليه كده يا (شريف)؟! ليه بتكذب؟!»

قالتها (هالة) بانفعال، لترد (زينب):

- «أنا ابني ما بيكذبش».

أسكتها (صابر) بنظرة صارمة من عينيه، قبل أن يديرهما نحو (شريف) ثانية، ويعود فيسأله:

- «متأكد إنك شفتها؟»

- «متأكد».

- «مش جايز تكون ناسي أو بيتهياً لك؟»

- «مش ناسي ومش بيتهياً لي».

- «يمكن كانت معدية بس من قُدام الشقة؟»

- «لا، أنا شفتها وهي بتفتح الباب وتدخل».

هنا صرخت (هالة) فجأة:

- «كذب! الكلام ده كله كذب!!»

انتفضت (زينب) مع صرخة أختها المفاجئة، واتسعت عينا (شريف)، في حين احتفظ (صابر) برباطة جأشه، وهو يقول:

- «اخرج إنت دلوقت يا (شريف)، واقفل الباب وراك».

لكن (شريف) تسمر في مكانه، في حين ارتجف صوت (زينب)، وهي تقول:

- «اهدي يا (هالة) مش كده».

لتصرخ الأخيرة بمورة أكبر:

- «تلاقيكي انتي اللي مسلطاه يقول الكلام ده».

- «أنا يا (هالة)؟! وأنا هعمل كده ليه؟!»

- «عشان تجننيني وتطلعيني مجنونة، مش ده اللي انتي عايزاه؟؟»

ارتسمت الصدمة على وجه (زينب) وكأن عبارة أختها صفعتها عليه، لتتسمر في مكانها صامتة لبضع ثوان، قبل أن تجهش فجأة بالبكاء، قائلة:

- «الله يسامحك».

- «اخرج حالاً يا (شريف)، أنا مش قُلت لك تخرج!»

- «أنا اللي هخرج يا بابا، هنخرج إحنا الاتنين، يلاً يا (شريف)».

قالتها (زينب) من بين دموعها، وهي تسحب ابنها من يده ليغادرا الغرفة، ثم الشقة كلها.

- «ماكانش فيه داعي لكل ده».

قالها (صابر) بعد خروج (زينب) و(شريف)، بشرود كأنه يكلم نفسه، وصوت أجش رغم هدوئه، لتنفعل (هالة) وتقول:

- «حضرتك شايفني أنا اللي غلطانة؟!»

لم يجب، فعادت تقول:

- «أنا مادخلتش الشقة يا بابا، إنت مصدقني ولا لا؟»

ظل على صمته وهدوئه، لتزداد انفعالاً وهي تضيف:

- «والله العظيم ما دخلتها، أنا مش مجنونة يا بابا، الشقة هي اللي فيها حاجة غلط، والله العظيم الشقة دي فيها حاجة غلط، وأنا أصلاً بقيت أخاف أدخلها».

حين انتهى كل هذا، وانقشعت عاصفة الشجار والصراخ عن الشقة، ليحل محلها هدوء كئيب، ترك (عمر) أوراقه وألوانه، لينهض بهدوء متجهاً إلى غرفة (هالة). طرق الباب قبل أن يفتحه ويدخل ليجدها تجلس وحدها، منزوية منطفئة كعادتها. لم تقل هي أي شيء. أما هو، فقد اقترب منها حتى وقف أمامها تماقاً، قبل أن يقول:

- «أنا مصدقك».

شبرا

30 يوليو

2016

- «جذك جاب النجار النهارده وإنت بره، وباب الحمام اتصلح خلاص».

قالتها (نازك) وهي تتناول طعام العشاء مع (عمر) الذي بدا شاردًا وهو يهز رأسه بلا معنى، قائلاً:

- «خدت بالي، كثر خير».

- «و(زينب) و(فيفي) كان نفسهم يشوفوك».

- «معلش، مرة ثانية إن شاء الله».

- «هو إنت متضايق من (فيفي)؟»

انتبه قليلاً من شروده، متسائلاً:

- «وهتضايق منها ليه؟!»

- «أصلك ما طلعتش تسلم عليهم لما جم».

تسلل القليل من نفاد الصبر إلى صوته، وهو يقول:

- «عشان كان معايا تليفون، مش عشان متضايق، ما أنا قابلتها

الصبح على السلم وأنا نازل وسلمت عليها عادي».

- «ما هي قالت لي، وقالت إنها حست ساعتها إنك متضايق وإنت

بتكلمها».

- «ما أنا متضايق طبقًا يا ماما، بس مش منها، إيه اللي خلاها تحس إن أنا متضايق منها هي يعني؟!»

- «أصلك قلت لها: يا (صافينان)».

ترك (عمر) اللقمة التي كان يمسكها تسقط من يده إلى طبقه، قبل أن يعقد حاجبيه مستنكرًا، وهو يقول:

- «نعم؟!»

توترت قليلًا دون أن تجيب، ليعقد هو حاجبيه أكثر، ويقول:

- «وهي اسمها إيه إن شاء الله؟! مش (صافينان) برضو؟!»

تشاغلت بطعامها وكأنها لا ترغب في مواجهة عينيه، وهي تقول:

- «ما إنت عارف إنها مابتحبش حد ينده لها باسمها الحقيقي».

- «عنها ما حبت».

أجفلت مع صيحته الحادة المفاجئة، وتوقفت عن الأكل هي الأخرى، في حين تابع هو بنفس الحدة:

- «يعني أنا أبقى لسه دافن أبويا إمبرح، ومطلوب مني النهارده أنسى خالص إنه مات، عشان أعرف أركز وأنا بتكلم مع صاحبة الجلالة اللي بتزعل لو قلت لها يا (صافينان)؟!»

- «مش مطلوب منك حاجة يا (عمر)، ماحدش قال كده».

قالتها بصوت مضطرب، محاولة تهدئته، لكن ثورته اشتعلت أكثر، ليهب واقفًا وهو يكمل صارخًا:

- «أنزل أبويا بإيدي لقبره، وتاني يوم أبقى عادي!! لا وأشوف كمان مين زعل ومين ماسلمش ومين ماتقالوش يا (فيفي)!!!»
- «يا ابني هي مش زعلانة، هي فاكراك إنت اللي زعلان».
- «وأنا مش من حقي أزعل؟! مش من حقي أحزن؟!»
- «من حقتك طبعا، مين قال غير كده؟!»
- «انتني! انتني أهو كل اللي هأمك (فيفي) وزعلها!!»
- «أنا يا (عمر)؟!»

- «أنا عارف إن علاقتك بيه ماكانتش كويسة، بس مش للدرجة دي! انتني ليه بتتصرفي وكأن مافيش حاجة حصلت؟! ليه بتتصرفي وكأنه ماماتش؟!»

هنا أجفل هو حين اختلط بكاؤها بصراخها فجأة، وهي تقول:
 - «لأنني لسه مش مصدقة إنه مات بجد».

خيم السكون عليهما بعد عبارة (ناذك) الأخيرة، وكأنها ألجمت لسانيهما معًا، سكون تام لم يتخلله سوى صوت نهبتها وقد أسندت رأسها على يدها منتحبة في صمت. أما (عمر)، فقد تراجع حتى جلس على مقعد قريب، معقود الوجه واللسان. تجمد المشهد كله كلوحة فنية خانقة كئيبة، حتى انكسر صمته المتجمد أخيرًا، حين رفعت (ناذك) رأسها عن يدها ببطء، لتقول:

- «إحنا عاملين زي جن سيدنا (سليمان)، اللي فضلوا يتصرفوا

وكأنه عايش حتى بعد ما مات. الفرق بيننا وبينهم إنهم ماكانوش يعرفوا إنه مات، إنما إحنا مش مصدقين إن أبوك مات».

لم يرد (عمر). لم يتحرك. لم يرتسم أي تعبير على وجهه حتى. حتى حين نهضت أمه بعد عبارتها وبدأت بجمع بقايا العشاء الذي بدا واضحًا أن أحدًا لن يكمله، ظلّ في مكانه صامتًا جامد الوجه، لا يتحرك فيه سوى عينيه اللتين راحتا تتابعانها بشرود وهي تروح وتجيء، من وإلى المطبخ، حتى استقرت أخيرًا فيه، قبل أن يرتفع صوت التنظيف وغسيل الصحون من داخله.

هنا فقط، بدا وكأنه أفاق قليلًا من جموده، لتتغير تعبيرات وجهه تغيرًا طفيفًا، قبل أن يقول وكأنه يكلم نفسه، بصوت مسموع رغم ذلك:

- «بس هفّا فرحوا لموته».

العباسية

2000

- «تيتا هو جدو مات إزاي؟»

توقفت (فريال) عن المضغ لحظة، وتصلب وجهها للحظة أخرى، قبل أن تعود لطبيعتها سريعًا، معاودة المضغ والاكل ثانية وكأن شيئًا لم يكن، وكأن شيئًا، حرفيًا، لم يكن. لم تجب عن السؤال الذي وجهها له حفيدها، (عمر)، الذي كان وقتها طفلًا في السابعة، يقتله الفضول نحو أي شيء وكل شيء. وبسبب فضوله ذاك، وحماسه كذلك، اندفع

يناديها:

- «يا تيتا!»

- «نعم يا (عمر)؟»

لم ينتبه للانقباضة التي علت وجهها، أو انتبه دون أن يهتم كثيرًا، لاعتياده ربما على تجهم ملامحها، الحادة أصلًا، أغلب الوقت، ليعيد عليها سؤاله:

- «جدو مات إزاي؟»

- «مات عادي يا (عمر)، زي الناس ما بتموت».

- «والناس بتموت إزاي؟»

- «لما ربنا بيريد، بيقبض روح البني آدم، فبيموت».

بدا وكأنه لم يفهم، أو لم يقتنع، فلما همّ بفتح فمه لإلقاء المزيد من الأسئلة، عاجلته بالإشارة إلى طبق طعامه، قائلة:

- «مايصحش تتكلم على الأكل. كقل أكلك الأول وبعدين نبقى نتكلم».

ليصمت مرغفًا، متشاغلًا بطعامه، وبالتطلع لما حوله من قطع أثاث وتفاصيل. كانا يتناولان طعام الغداء على طاولة السفرة في شقتها العتيقة، التي طالما أحبها أكثر مما أحب صاحبته، لكنه في الوقت ذاته، هابها كما يهاب صاحبته، بلا سبب واضح، أو لاقتران كل منهما بالأخرى ربما. وكما أحب شقة جدته أكثر مما أحبها هي نفسها، أحب كذلك طعامها، فقد كانت، والحق يقال، طاهية ماهرة فعلاً، طعامها

شهى بحق، أشهى حتى، فى رأيه، من طعام أمه، بل وبشهادة أمه نفسها.

ورغم تلذذه بالأكل، أنهاه سريعًا كي يتمكن من استكمال فقرة الأسئلة التى قطعها مجبًرًا. نهض متقافًرًا نحو الحمام ليغسل فمه ويديه، ونهضت هى لتنظيف المائدة والصحون، ليتقابلا فى النهاية فى صالة الشقة، حيث سبقها ليشعل جهاز التلفزيون ويجلس أمامه، قبل أن تتبعه حاملة صينية عليها طبق من الفاكهة، وكوبا شاي، وسكرية صغيرة.

رغم كل شيء، كان (عمر) يحب جلساته مع جدته، تقريبًا، كما يحب جلساته مع جده، مع وضع خطوط عدة تحت كلمة «تقريبًا» تلك، فلا حب عنده، وهو فى تلك السن، كان يضاهي حبه لجده، حتى حبه لأمه نفسها. كانت جدته لأبيه هى الجدة الوحيدة بالنسبة له، فهو لا يذكر جدته لأمه تقريبًا، كما كان جده لأمه هو الجد الوحيد كذلك، لأنه لم يرَ جده لأبيه إلا فى الصور.

وكحال جلساته مع جده، كانت له طقوسه فى جلساته مع جدته كذلك، بقدر ما تسمح به شخصيتها الصارمة طبقًا، فلا سهر أمام التلفزيون مئلاً، أو بمعنى أصح، لا سهر أصلًا، رغم أنه لا يمكث عندها إلا أيام معدودات، تكون جميعها خلال إجازة نصف العام أو نهايته، وجميع الصلوات يجب تأديتها فى مواعيدها، شاء أم أبى، حتى صلاة الفجر، ولا مجال للتكاسل فى ذلك.

أما عن طقوسه، فكانت تتلخص فى تناوله للفاكهة أولًا، ريثما يبرد الشاي، الذى يجب أن يكون سكره زيادة، لأن طعمه يصبح أقرب

للمرارة في فمه، بعد حلاوة طعم الفاكهة فيه. وقد كان يتعجب دائمًا من قدرة جدته على تناول الشاي وهو لا يزال ساخنًا جدًا، يتصاعد منه البخار، وبملعقة سكر واحدة فقط.

أمر آخر كانت جدته تفعله، وكان (عمر) يعجب له، وظلّ يعجب له دومًا، حتى بعدما كبر، وحتى بعد وفاتها، أمرًا لا علاقة له بتناول الشاي أو غيره، بل بشيء أكبر بكثير، وأكثر جوهرية، وله علاقة به هو، (عمر) نفسه. فإن كانت جدته لا تحبه فعلًا، كما يشعر هو، وكما تقول أمه، لماذا إذاً تطلب من أبيه إبقاءه عندها بضعة أيام كل إجازة؟!

لكن ذلك الأمر لم يشغل باله كثيرًا وقتها. كان عقله الطفل يجد صعوبة في الاستقرار والتركيز على موضوع واحد أصلًا، كما أنه كان منشغلًا أكثر بنفس الموضوع الذي أمطرها بالأسئلة حوله على مائدة الغداء، بجده لأبيه، جده (علي) الذي لا يكاد يعرف عنه سوى اسمه وشكله في الصور، فوالده وجدته لا يتكلمان عنه تقريبًا، وهما المصدر الوحيد لأي حكايات عنه، وهو فضولي، ويحب الحكايات، ويريد أن يعرف أكثر.

- «هو جدو مات إمتى يا تيتا؟»

شردت ببصرها قليلًا، قبل أن تقول:

- «من زمان يا (عمر)، من زمان أوي».

- «إمتى يعني؟ يعني أنا شفته وأنا صغير أوي ومش فاكره؟»

ابتسمت قليلًا لعبارته، ثم قالت:

- «لأ إنت ماشوفتوش خالص، لأنه اتوفى قبل ما إنت تتولد بكتير».

- «قبل ما بابا وماما يتجوزوا؟»

- «قبلها بكتير برضو».

- «ياااه! ده من زمان أوي فعلاً!»

ثم صمت قليلاً، قبل أن يعود ليسأل:

- «هو مات هنا؟ في الشقة دي؟»

- «أيوه».

صمت ثانية متأملاً، لفترة أطول هذه المرة. بدا على وجهه التفكير، ودارت عيناه فيما حوله، في تفاصيل الشقة القديمة، سقفها المرتفع الذي يشعره بالدوار، وأبوابها العالية التي تشعره بالضآلة، أثاثها العتيق الذي يطقطق ليلاً لأن الخشب «بيرّيح» حسب قول جدته، ونوافذها ومصابيحها التي لا تفلح أبداً، لسبب ما، في إضاءتها بشكل كامل، لتبقى دائماً ضبابية خافتة الإضاءة، حتى العريا الضخمة المدلاة بسلسلة من سقف غرفة الصالون، كانت أغلب لمباتها محترقة دوماً، ولا يذكر أنه رآها أبداً مضاءة بالكامل.

بدا وكأنه يرى كل هذا لأول مرة، أو يتأمله من زاوية جديدة مختلفة. في النهاية، وبعد برهة من صمته المتفكر المتأمل ذاك، بعدما مزج تفكيره فيما سمعه للتو، بتأملاته فيما يراه حوله، رفع عينيه إلى جدته، متسائلاً:

- «تيتا انتي إزاي مش بتخافي وانتي لوحدك هنا؟!»

العباسية

31 يوليو

2016

كيف أجابته وقتها؟

تسللت الذكريات إلى رأس (عمر) خلال رحلته من (شبرا) إلى (العباسية)، والتي كان واعيًا لها هذه المرة، لأنه قرر القيام بها بمحض إرادته، وإن ظلّ مفتقرًا للسبب. يعرف أنه يريد الذهاب إلى شقة (العباسية)، لكنه لا يعرف لماذا يريد أن يفعل. المفترض أن أي أسباب لديه ستكون لعدم الذهاب، وليس العكس، ورغم ذلك، اتخذ قراره وذهب فعلًا، نهارًا بالطبع.

دار شريط الذكريات في عقله، رغما عنه، حتى وصل إلى تلك النقطة، في نفس اللحظة التي وطأت فيها قدماه أرض الطابق الأول. كيف أجابته جدته وقتها حقًا؟ لقد نسي بالفعل. تقدم بخطوات مرتجفة مترددة نحو الشقة، محاولًا تذكر إجابة جدته، متعجبًا، في نفس الوقت، من رغبته في تذكر أمر كهذا الآن أصلًا. ما جدواه أو فائدته؟ لماذا يحاول تذكر شيء قيل منذ 16 عامًا، ماتت قائلته، وهُجرت الشقة التي قيل فيها منذ زمن؟!

أ تكون الإجابة جزءًا من السؤال نفسه؟ هل يبحث عن طريقة للسيطرة على خوفه من هذه الشقة المهجورة الموحشة؟ الشقة

التي كانت مخيفة بما يكفي وهي مأهولة مسكونة بالبشر، تتردد فيها أصوات وأنفاس وصلوات آدمية كل يوم، كيف ستكون بعد أن أغلقت وهجرت كل هذا الوقت؟؟ وكيف عاشت امرأة مسنة وحيدة في شقة يرتجف هو عند بابها الآن؟! كيف؟!

حاول التنفس ببطء وعمق للسيطرة على أعصابه، وعيناه تتفحصان بابي الشقة وما حولهما، وإذا لو كان بإمكانه تفحص ما خلفهما كذلك، لكنه اكتفى بالتركيز على الشراعتين. لم يكن هناك ما يريب. ثبتت عينيه عليهما كالصقر وانتظر قليلاً، كي يتأكد من عدم وجود ما يريب فعلاً، كأنه يمنح الشيء المريب مهلة كي يعلن عن وجوده، إن كان له وجود.

لكن شيئاً لم يحدث، كل شيء ظل طبيعياً تماماً، ليراود (عمر) بعض الشك في وجود شيء غير طبيعي أصلاً. ربما كان ما رآه في المرة السابقة ألعاب ظل ونور فحسب. خفت الخوف بداخله قليلاً، أو أرادته هو أن يخفت، لكن الرهبة ظلت موجودة رغم كل شيء. الشقة التي سيدخلها الآن بمفرده، مغلقة ومهجورة منذ وفاة جدته، أي منذ ما يزيد على 6 سنوات تقريباً، هذا وحده يبعث على الرهبة بالتأكيد.

بصوت خفيض لكنه مسموع، تلا (عمر) آية الكرسي وهو يخرج سلسلة مفاتيحه من جيبه، منتقياً المفتاح المنشود الذي أدخله في الباب الرئيسي ليفتحه ويدخل. ورغم الشمس التي تتوسط السماء، كانت صالة الشقة تسبح في إضاءتها الخافتة التي عهدا عليها دوماً، ولم يستغربها وقتها بالذات، فخصاص جميع النوافذ

والشرفات مغلق بكل تأكيد، ولا بُدَّ أن أطنأنا من الأتربة تغطيه الآن أيضًا، مُزيدة من قتامة المكان على الأرجح.

مَدَّ يده ضاغظًا أقرب مفتاح إضاءة له، شبه واثق أنه لن يعمل. لكنه، لدهشته، أضاء المكان، بنفس الإضاءة الكثيفة المرتعشة الخافتة. غريبة. هل نسيت شركة الكهرباء أمر الشقة؟ أم أن فواتيرها كانت تُدفع بانتظام؟ من سيهتم بأي أمر يخص الشقة بعد وفاة جدته سوى أبيه؟ لا بُدَّ أنه هو. صحيح أنه لا يذكر أي حديث له عن الشقة أصلًا منذ مدة طويلة، لكنه ليس غريبًا جدًا أن يدفع فواتيرها رغم ذلك، لسببٍ أو لآخر.

لكن الفواتير لم تكن الشيء الوحيد الذي اهتم به والده فيما يبدو، فالشقة لم تكن مهمة أو متربة جدًا كما ظنها ستكون، بل أقرب لحالها كما رآها آخر مرة، وقت كانت جدته تعيش فيها، والذي يعني أن أحدهم، ولا بُدَّ، قد نظفها مؤخرًا، أو ينظفها بانتظام، فلماذا؟ إن كان دفع فواتير شقة مغلقة لا يسكنها أحد، مفهومًا إلى حدٍّ ما، فتنظيف تلك الشقة يُعد غريبًا بعض الشيء. البيوت تُنظف، غالبًا، كي تصبح صالحة للسكن، فمن الذي يسكن هنا إذًا؟؟؟

العباسية

2000

رفع عينيه إلى جدته، متسائلًا:

- «تيتا انتي إزاي مش بتخافي وانتي لوحدك هنا؟!»

فارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي جدته، وهي تقول:
- «ما أنا مش لوحدي يا (عمر)».

العباسية

31 يوليو

2016

والده كان يتردد على الشقة بلا شك. كذا فكر (عمر) وهو يخطو بهدوء وحذر داخلها. لماذا؟ أكيد لنفس السبب الذي يأتي به هو نفسه إليها، والذي لا يجد له تعريفًا أو تسمية واضحة حتى الآن. الحنين؟ ليس بالضبط، أو ليس فقط. هو قطعًا يشعر بالكثير من الشجن والحنين الآن وهو يسير في الشقة متأملًا تفاصيلها، مستنشقًا رائحة خشب أثائها القديم الذي يشبه رائحة البخور، لكنه يشعر أيضًا أن هذا الحنين ممتزج بمشاعر أخرى غريبة.

دخل أولًا غرفة الصالون وضغط مفتاح التريا، ليضيء أقل من نصف لمباتها كالعادة. تأملها قليلًا في الضوء الخافت الباهت، قبل أن ينتقل إلى غرفة السفارة المجاورة، مكرّرًا ما فعله في الصالون، وهكذا دواليك، يدخل غرفة فيشعل أضواءها ليتأملها قليلًا قبل أن ينتقل لأخرى، تاركًا الضوء خلفه مشتعلًا في كل مكان يطأه، حتى أضواء مصابيح الشقة كلها تقريبًا.

بدا كسائح في متحف للذكريات، يسير بخطى هادئة حذرة لا تصدر صوتًا تقريبًا، كأنه في متحف فعلاً، يخشى خرق هالة الصمت

والهدوء بداخله. صحيح أن ضوء الشارع والمناور تتسرب إليه، لكنها تضيف طعمًا خاصًا على تلك الهالة ولا تخرقها، كأنها موسيقى تصويرية في الخلفية للذكريات.

أخيرًا جلس، على أقرب مقعد لباب الشقة، وبزاوية تسمح له بكشف أكبر قدر ممكن من المكان. صحيح أن مشاعر أخرى، كالحنين، طغت قليلًا على خوفه، لكن إحساس الرهبة لم يزل تمامًا من داخله، بالإضافة إلى حذره الطبيعي، أو المكتسب، من طول خوفه من أبيه، والذي جعله دومًا يريد أن يكون كاشفًا لما حوله، لا مكشوفًا له.

سمع صوتًا، كأنه دقة، يأتي من جهة غرفة الصالون، ليلتفت نحوها مجفلاً. لم يكن هناك ما يريب، لكنه، رغم ذلك، زحزح نفسه حتى صار يجلس على طرف مقعده، كي يحصل على زاوية رؤية أفضل للصالون، أو يهب منتفضًا نحو باب الشقة لو استلزم الأمر. حبس أنفاسه وفتح عينيه عن آخرهما ليدور بهما متفحصًا الصالون من موضعه. لا شيء. لا شيء غريب. لا بُدَّ أن جدته كانت على حق في موضوع تريح الخشب أو..

قطعت أفكاره صوت دقة أخرى بدت أوضح وأعلى هذه المرة، لأنها كانت فوق سقف الصالة التي يجلس فيها.

العباسية

2000

فارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي جدته، وهي تقول:

- «ما أنا مش لوحدي يا (عمر)».

ثم صمتت قليلاً، قبل أن تضيف:

- «أنا معايا ربنا».

العباسية

31 يوليو

2016

.. أو أن هذه الطرقات تأتي من عند الجيران. ثم وكأنما لتتأكد فكرته، توالى بضع دقائق وطرقات أخرى في مواضع متفرقة من السقف، بدا واضحاً أنها لأشخاص يركضون أو يلعبون، أطفال على الأرجح. وجد (عمر) نفسه ينظر لأعلى وعلى شفتيه شبح ابتسامة، فيها القليل من الخجل من نفسه، والكثير من الامتنان لشعور الوئس الذي منحه له أطفال الجيران، خاصة حين سمع أصوات لعبهم وضحكهم تنتقل من السقف إلى السلم إلى الشارع، لتختلط بضوضائه المطمئنة المحببة.

شعر أخيراً أنه اكتفى من جرعة الحنين هذه، لينهض عازماً على المغادرة، مدركاً أن عليه إعادة الشقة إلى ما كانت عليه أولاً. هو لم يغير فيها شيئاً تقريباً، بالكاد لمس أي شيء أصلاً، سيطفى الأنوار فحسب إذًا، بادئاً بالجزء الداخلي، حيث غرف النوم والحمام والمطبخ، ومتقدماً إلى الخارج بالتدريج، كي يضمن بقاءه في مكان مضيئ في كل مرحلة حتى يغادر.

وبالفعل، أطفأ مصابيح الجزء الداخلي كله، فلما همّ بإطفاء مصباح
الطريقة الطويلة المؤدية إليه، توقف للحظة وقد خطر له أن يتركه
مضاء كي لا تصبح الشقة شديدة الظلمة حين يعود.. حين يعود؟!
وهل سيعود.. سيأتي هنا ثانية؟؟ نعم، ربما، على الأرجح، لا يعرف
حقًا، لكنه سيتركه مضاء على أي حال.

كان على وشك الانتهاء، فلم يبقَ إلا أضواء الصالة والصالون،
والطريقة التي قرّر تركها مضاءة بالطبع. وقبل أن يمد يده لمفتاح ثريا
الصالون، لمح شيئًا على المنضدة الرخامية التي تتوسطه، شيئًا يشبه
الكتاب، موضوعًا بطريقة تلفت النظر، كأن أحدهم ألقاه على عجل أو
دونما اكتراث، لأنه كان على حافة المنضدة تقريبًا، بل كان جزء كبير
منه خارج حدودها، وكأنه على وشك السقوط من فوقها.

وجد (عمر) نفسه يتعجب قليلًا من المشهد. هل كان هذا الكتاب
هنا، وعلى هذه الوضعية، منذ البداية؟؟ كيف إذا لم يلاحظه وقتها؟!
منظره وهو موشك على السقوط هكذا يغري أي شخص بتعديل
وضعه، فكيف لم يلاحظه وهو موسوس دقيق الملاحظة؟! أم تراه
هو الذي حرّكه ونسي؟؟ يبدو أنه صار يشرد وينسى كثيرًا هذه
الأيام، لكن.. أبهذه السرعة؟!

لا، لا، لن يخيف نفسه هكذا ثانية. الكتاب كان بالتأكيد على
المنضدة منذ البداية، وفي وضعية عادية لا تلفت النظر، كل ما في
الأمر هو أن ساقه اصطدمت به أثناء سيره، دون أن ينتبه، فزحزحته
حتى صار على هذا الوضع. هذا هو الاحتمال الوحيد والصحيح،
والآمن كذلك. أي فكرة غبية أخرى سيلقيها خلف ظهره أو في

مؤخرة رأسه. أفكار مثل أنه شبه متأكد أن المنضدة لم يكن فوقها إلا مفرشًا صغيرًا وإناءً من الكريستال فحسب، أو أنه شبه واثق أنه لم يقترب من المنضدة أصلًا، بل لم يدخل غرفة الصالون من الأساس، واكتفى بالتطلع إليها وهو واقف ببابها.

كل هذا كلام فارغ. الشقة عادية جدًا وهو الذي يصز على تخويف نفسه منها بلا سبب، أو لسبب يعرفه جيدًا، والدته، أو للدقة، كلامها الذي أثر عليه طوال حياته. هي التي كانت دائمًا تكره الشقة وتخافها وتخيفه منها، محيطة إياها بهالة رعب زائفة رسختها في عقله، بسبب العلاقة السيئة بينها وبين جدته ربما. الأسباب لا تهم الآن، ولا الماضي كله أصلًا.

ورغم كل طمأننته لنفسه، ظل خائفًا قلقًا بلا سبب، يراوده شعور غريب لا يعرف من أين يأتي، وما من دليل ملموس عليه، بأنه ليس وحده هنا. لم يعد يعرف حقًا، أهو خائف يقنع نفسه أنه غير خائف، أم غير خائف يقنع نفسه أنه خائف؟

لا يهم، كل هذا لن يهم لو عدل وضع الكتاب وأطفأ الأنوار، وترك كل الخوف والقلق والتساؤل خلفه ورحل. لكنه حين اقترب من المنضدة ومدّ يده نحو الكتاب، اكتشف أنه ليس كتابًا، بل أجندة، أجندة لعام 1986، لها غلاف أسود سميك، جعلها تبدو من بعيد كالكتاب. وجد (عمر) نفسه يلتقطها دون تفكير ليتأملها قليلًا، قبل أن يفتح أولى صفحاتها، ويبدأ في قراءة المكتوب فيها:

((ولدي الحبيب، (عمر)..

إذا كنت تقرأ هذه السطور الآن، فهذا يعني أن أسوأ كوابيسي قد

تحقق...

العباسية

31 يوليو

2016

لم يتوقع (عمر) شيئًا كهذا، لم يتوقعه على الإطلاق. جمدته تلك العبارة تمامًا، ليتوقف عن متابعة القراءة، بل عن التنفس والتفكير، لكن لعدة ثوان فحسب، لأن الانفعال دفعه للمتابعة ثانية، وبلهفة:

((... وحاشا لله أن أعني بذلك موتي. الموت قضاء محتوم من عند رب العالمين، نافذ على كل ابن آدم، وسبحانه لا راد لقضائه. ولو أنك صبرت فأكملت قراءة ما سأخظّه لك، لتبينت ما أعنيه.

لكن قبل الدخول في صلب الموضوع، دعني أبدأ كلامي ببضع نقاط مهمة.

أولًا، الشكر. لك مئي يا ابني جزيل الشكر، فقراءتك لهذه السطور تعني أنك اخترت طوعًا المجيء إلى هنا، تعني أنك تهتم لأمرى، وأنت لم تنسني)).

توقف (عمر) ثانية حين غشيت بصره غلالة من دموع، رمش بعينه ليتخلص منها وهو يأخذ نفسًا طويلًا، محاولًا تهدئة أعصابه. لكن ذلك لم يكن كافيًا على ما يبدو، فلا يزال غير قادر على القراءة بوضوح؛ لذا قرر الانتقال للصالة، حيث الإضاءة أفضل قليلًا، وجلس ليكمل:

((ثانيًا، السرية. وهو أمر غاية في الأهمية، لا أملك فرضه عليك بالطبع، لكنني أرجو أن تلتزم التزامًا تامًا به، لأجل خاطري، ولأجل مصلحتك أنت، وستفهم لاحقًا ما أرمي إليه. بالنسبة للشقة، فالمفتاح الوحيد لها هو الذي بحوزتك الآن، لأنني تخلصت من كل النسخ الأخرى وسأتخلص من نسختي أنا لاحقًا، فاحرص على أن يظل دائمًا كذلك، الوحيد وبحوزتك. لا تضعه أبدًا، ولا تصنع منه نسخًا تحت أي ظرف. أما الأجندة التي بين يديك الآن، فلا تخرجها من الشقة مهما حدث. ومن الآن فصاعدًا، زيارتك للشقة يجب أن تظل طي الكتمان. لا تخبر عنها أحدًا، لا تصطحب إليها أحدًا، ولا تحكي ما ستقرؤه فيها لأحد.

ثالثًا، الصبر. الصبر على أمرين. أولهما ما ستقرأ، فحديثي معك قد يطول وقد يصدمك. بإمكانك اعتباره ضربًا من الفضفضة، وبإمكانك التعامل معه كما يتراءى لك، فأنا - كما قلت آنفًا - لا أريد ولم أعد أستطيع، أن أفرض عليك أمرًا. وثانيهما ما سيحدث، ما قد تسمعه وتراه، فما ستسمعه وتراه قد يخيفك، لكن لا تدعه يفزعك أو يفقدك صوابك. اصبر فإن الله مع الصابرين، ولا تحزن فإن الله معنا.))

توقف (عمر) عن القراءة للمرة الثالثة، ليرفع عينيه عن الأجندة ويديرهما فيما حوله بقلق. ما سيحدث! ما قد يراه ويسمعه! ما الذي يعنيه والده بالضبط؟؟ كل شيء حوله هادئ وطبيعي تمامًا الآن، لكن، ماذا عما قد يحدث لاحقًا؟ وماذا عما حدث بالفعل؟ هل كانت تلك الجلبة من عند الجيران وأطفالهم حقًا؟ أم تندرج تحت بند «ما قد يسمعه»؟ ماذا عن الظل الذي رآه خلف باب الشقة في المرة السابقة؟ ألا عيب ظل ونور؟ أم نوع من «ما قد يراه»؟ هذه

الأجندة نفسها، التي يمسكها بين يديه، أمن قبيل الصدفة أن يلاحظ وجودها فقط بعد سماعه لتلك الدقة في غرفة الصالون.. أم أنها لم تكن موجودة في البداية فعلاً، وصوت الدقة كان ناجماً عن ارتطامها بالمنضدة لأن شخصاً، أو شيئاً ما.. ألقاها عليها؟!

شبرا

2006

- «لسه بتصلي؟»

قالتها (نازك) الجالسة على أحد مقاعد طاولة السفارة التي رُصت فوقها أطباق طعام العشاء، لـ (عمر) الذي أوماً برأسه وهو يجلس بدوره على المقعد الذي يواجهها، لتعود وتسأله:

- «قلت لها طيب إن العشا جاهز؟»

التقط زيتونة من طبق مخلل أمامه وهو يومئ مجدداً.

- «ربنا يتقبل منها».

قالتها بهدوء، قبل أن يسود الصمت هنيئة، تسلى هو خلالها بأكل المخلل، في حين خفضت هي صوتها، وعادت تقول:

- «بتصلي كتير أوي جدتك، وبتصوم كتير كمان، ما شاء الله عليها ربنا يديها الصحة ويقوي إيمانها، أنا اللي اسمي لسه شابة ما قدرش على المجهود اللي هي بتبذله ده».

لم يعلق. أما هي، فمدت عنقها مجيلة بصرها بتوتر في محيطهما،

كأنها تتأكد أن لا أحد قريب، ثم عادت لوضعها الأول، مقرّبة رأسها منه، وخافضة صوتها أكثر، وهي تقول:

- «تعرف.. أنا ساعات بيحي لي خاطر غريب أوي، أستغفر الله العظيم مش عارفة ليه، بس هو إحساس كده».

ظلّ على صمته وإن بدا على وجهه تساؤل، أجابته قائلة:

- «أصل التدين الشديد ده، ساعات بيبقى نوع من التكفير عن ذنب كبير».

- «ذنب إيه؟»

قالها مقطبًا، لتعود هي وتتأكد أن أحدًا لا يسمعهما، قبل أن تقول:

- «أخذت بالك إن جدتك تكاد تكون مش بتجيب سيرة جدك خالص؟»

صمت قليلًا كأنه يفكر أو يتذكر، قبل أن يرتسم على وجهه تعبير من انتبه فجأة لأمر كان غاية في الوضوح، وهو يقول:

- «فعلاً، أنا تقريبًا ما أعرفش حاجة عنه».

- «تعرف إنه مات فجأة في عز شبابه، ولأ كان مريض، ولأ بيشتكي من أي حاجة؟»

تصلب وجهه بعد عبارتها، وعاد لصمته المقطب. أما هي، فشردت ببصرها قليلًا قبل أن تضيف، ببطء كأنها تكلم نفسها:

- «وبعدين، شقة (العباسية) دي.. مش مريحة أبدًا، دايقًا بحس إنه.. زي ما يكون..».

- «زي ما يكون إيه؟؟»

- «... فيه حد اتقتل جواها».

شبرا

31 يوليو

2016

- «(عمر)».

أجفل (عمر) ملتفتًا للهتاف الصادر من نافذة سيارة توقفت لتوها بمحاذاته، خلف مقودها رجل وقور بشوش، عاد يقول:

- «آسف يا ابني والله، ماكانش قصدي أخضك كده».

جاهد كي يرسم ابتسامة مجاملة شاحبة على شفتيه، وهو يقول:

- «لا يا عمو إنت ماخضتنيش ولا حاجة، أنا اللي كنت ماشي سرحان».

- «ورايح فين كده؟ تعالى أوضلك».

- «مش رايح حتة، كنت بتمشى شوية ومروّح خلاص».

- «مانا كمان مروّح، اركب نروّح سوا».

كان ذلك هو (يوسف)، زوج خالته (زينب)، والذي ما إن استقر (عمر) في مقعده بجواره، حتى عاد يقول:

- «سبحان الله!»

التفت إليه متسائلًا، لتفاجئه نظرة التأثر على وجهه وهو يتأمله مليًا، فكملاً:

- «كأنني شايف أبوك الله يرحمه».

مرت فترة وجيزة، ثقيلة رغم ذلك، من الصمت، قطعها (عمر) أخيرًا، مغمغماً:

- «الله يرحمه».

ران عليهما الصمت ثانية، و(يوسف) ينطلق بالسيارة، في حين شردَ (عمر) ببصره خارج النافذة، وبعقله إلى شقة (العباسية). لم يكذب حين قال إنه كان في طريقه للبيت، لكنه كذبَ «قليلاً» حين قال إنه كان يتمشى فحسب، فقد كان يتمشى عائداً من الشقة التي لم يعد إخبار أي شخص بأي أمر يخصها ممكناً. قرّر أن يعود منها مشياً لأنه أراد أن يرتاح ويفكر، والمشي يتيح له الأمرين، يريحه نفسياً من الكآبة والتوتر، ويمنحه مهلة كافية للتفكير فيما حدث وما قرأ.

وَدَّ لو كان بإمكانه أن يمكث في الشقة مدة أطول ليتابع القراءة في الأجندة، أو أن يأخذ الأخيرة معه ليكملها في غرفته، لكن ما كتبه والده منعه من الأمرين للأسف، منعاً مباشراً من إخراج الأجندة من الشقة، وآخر غير مباشر، من المكوث في الشقة نفسها طويلاً، بكلامه عما قد يحدث فيها، والذي سيزداد سوءاً، على الأرجح، حين تقترب الشمس من المغيب.

الغريب أنه لا يذكر أي سرّ جمعه من قبل مع أبيه. الأسرار في حياته دائمًا كانت تُخبأ عن أبيه، لا معه. ورغم ذلك، فهو حريص كل الحرص الآن على تنفيذ وصيته، وكتمان ما طلب منه أن يكتبه، حتى وهو ما يزال لا يفهم سببًا، ولا يعرف هدفًا، لهذا الكتمان.

- «(عمر) أنا عاوز أقول لك على حاجة».

قالها (يوسف) منتشلاً إياه من شروده للمرة الثانية، ليلتفت نحوه منصتًا له، وهو يضيف:

- «هي حاجة مش محتاجة قوالة طبقًا، وتبان من برة كده كأنها كليشييه، بس هي حقيقية يا ابني والله، مش كلام وخلص».

جذب الكلام القليل من انتباهه، ليثبت عينه على (يوسف) الذي كانت عيناه على الطريق، وهو يكمل قائلاً:

- «والدك الله يرحمه بالنسبة لي كان أخ، ويمكن أكثر من أخ كمان، لأنه وقف معايا وقفات لا يمكن أنساها له، فأنا عاوزك تعتبرني زيه تمام، ولو احتجت أي حاجة..».

وشرّد (عمر) مرة أخرى رغماً عنه، من شدة التعب والضغط النفسي ربما، أو لأن كلام زوج خالته بدا له مليئًا بالكليشيات التي أقسم له إنه خال منها. حتى لو كان صادقًا، لم يكن هذا يهم (عمر) كثيرًا، ولا كان ما يرغب في سماعه، في هذه اللحظة على الأقل. كان يرغب في الاختلاء بنفسه، وسماع صوت (نرمين) الدافئ الودود. ودّ لو كان بإمكانه أن يقص عليها كل ما حدث، ثم يناقشها فيه، لكنه مضطّر للاكتفاء بمناقشة نفسه للأسف.

- «.. وإنت عندي زي (سعيد) و(شريف) بالظبط والله العظيم، ده حتى لما..».

زوج خالته لا زال يتكلم، ولا زال هو يتظاهر بالإنصات، لكنهما صارا قريبين من البيت لحسن الحظ، صار في مرمى بصريهما، وبدأ (يوسف) في تهدئة سرعة السيارة استعدادًا لصفها، منهيًا حديثه بـ:

- «خلاص يا (عمر) اتفقنا؟»

لكنه لم يسمع ردًا منه، ليلتفت نحوه مستفهمًا:

- «(عمر) انت سرحت تاني؟»

لم يكن شاردًا، النظرة التي رآها (يوسف) على وجهه جعلته يضغط فرامل السيارة ليووقفها في منتصف الشارع الذي يقع فيه البيت، والذي كان جانبيًا غير مزدحم لحسن الحظ.

- «مالك يا ابني؟؟»

قالها (يوسف) بقلق متفحصًا وجه (عمر) الممتقع الذي تصلب على تعبير غريب. عيناه كانتا متسعيتين بشدة، شاخصتين لأعلى، كأنه في حالة صدمة أو خوف شديد. فكه كان متصلبًا، وفمه مفتوح ويرتجف، كأنه راغب في الكلام وعاجز عنه في الوقت ذاته. ثم بدا وكأنه قد استعاض عن الكلام بإصبعه الذي رفعه قليلًا ليشير به نحو شيء ما، نفس الشيء الذي تشخص نحوه عيناه، لأنه نفس الاتجاه. تلقائيًا أدار (يوسف) وجهه إلى ذلك الشيء، وسرعان ما ارتسم نفس التعبير عليه هو الآخر و..

- «عمو (يوسف)... مين اللي واقف فوق السطح ده؟!»

- «.. ده.. ده أبوك الله يرحمه يا ابني!!»

العباسية

2008

- «بسم الله الرحمن الرحيم!»

شهقت بها (نازك) حين ارتطمت بجسم في الظلام، جسم حي في ظلام حالك. كانت قد خرجت لتوها من الحمام، ليصطدم بصورها أولاً بظلام الطريقة المؤدية له، والتي كانت متأكدة أنها تركتها مضاءة قبل أن تدخل. وأثناء سيرها وتحسسها للحائط بحثًا عن مفتاح الإضاءة، اصطدمت بذلك الجسم.

- «حاسبي يا (نازك) لا تقعي».

جاءتها العبارة في نفس اللحظة التي وجدت فيها يدها مفتاح النور وضغطته، ليطالعها وجه (فريال) حماتها، وقد ارتسمت عليه ابتسامة خفيفة.

- «أنا آسفة يا طنط، أصل الدنيا ضلمة أوي وماكنتش شايفة».

قالتها (نازك)، لترد (فريال) بسرعة:

- «ولا يهمك يا حبيبتي».

ثم دخلت الحمام وأغلقت خلفها، تاركة (نازك) وحدها في دائرة

صغيرة من الضوء الضعيف المنبعث من مصباح الطرقة الذي تقف تحته، يحيطها ظلام تام من جميع الجهات، كجزيرة نور وسط بحر من ظلام. سارت ببطء نحو غرف النوم مسترشدة بما يليق لها مصباح الطرقة من ضوء خافت ضعيف، وهي تتمتع وتبسم وتستعيد، تتحس مواضع قدميها كي لا تصطدم بشيء أو شخص آخر، كما تتحسس الحائط بيدها بحثًا عن أقرب مفتاح لأي مصدر ضوء في طريقها، حتى وصلت أخيرًا لغرفة ينبعث الضوء من تحت عقب بابها المغلق، لتفتحه وتدخل بسرعة، ثم تغلقه خلفها وهي تتنفس الصعداء.

- «إيه يا ماما فيه إيه؟! خضيتيني».

كانت تلك من (عمر) الذي انتفض جالسًا على سرير كبير قديم كان راقدًا عليه، متدثرًا بكوفرتة يغطي بها جسده وكأنه نائم، مغطيًا بها كذلك، كتاب جيب كان يقرؤه.

- «أنا اللي اتخضيت من شوية حنة خضة».

- «بابا جه؟؟؟»

ألقي سؤاله بحذر وخفوت وهو يدس كتابه أسفل الوسادة من باب الاحتياط، قبل حتى أن يسمع الإجابة، لتهز (نازك) رأسها نفياً وهي تتجه نحو كنبه أسطنبولي تجاور الباب وتواجه السرير، فتجلس عليها، وبصوت خفيض وعينين متسعيتين، تقول:

- «هي ليه جدتك بتحب تضلم الشقة كده؟! ليه دايقا تطفئ كل

الأنوار؟!»

- «هو إيه اللي حصل؟»

تابعت وكأنها تكلم نفسها، أو لم تسمع سؤاله:

- «وكان يجرى إيه لو أبوك خلّاها هي اللي تيجي تقعد عندنا بعد العملية بتاعتها؟! مش صح أبدًا إن الواحد يقعد في مكان ضلّمة خالص كده، والشقة دي بالذات مش ناقصة».

تجاهل تجاهلها لسؤاله الأول، ليلقي عليها سؤاله الثاني:

- «مش ناقصة إزاي؟ تقصدي إيه؟»

- «أقصد إنها مش طبيعية، الشقة دي غير طبيعية بالمرّة».

- «هي تخوّف شوية فعلاً».

- «شوية؟! أصلك ما شفتش اللي أنا شفته فيها في أول جوازي».

- «شفتي إيه؟؟»

شردت ببصرها قليلاً كأنها تفكر أو تتذكر، قبل أن تقول:

- «وجدتك تخوف أكثر، ومش طبيعية هي كمان».

ضايقه قليلاً تجاهلها المستمر، المقصود أو غير المقصود، لما يقول، ورغم ذلك جاراها في تغييرها لدفة الحديث للمرة الثانية، سائلاً:

- «ليه؟ مالها؟»

امتزج الخوف بالقلق والتوتر على وجهها، وهي تقول:

- «بتتحرك في الضلّمة بطريقة غريبة، كأنها شايفة كويس. أنا ببقى ماشية أحسّس وأتكعبل وأقع، وهي بتتحرك عادي جدّا، وبسرعة

كمان».

ليرد هو بهدوء:

- «طب ما أنا كمان كده».

لم تغير (نازك) دفعة الحديث، لأنها صمتت تمامًا هذه المرة، وكان عبارة (عمر) الأخيرة عقدت لسانها في فمها، وسمرت عينيها على وجهه. لكن صمتها الزاهل ذاك لم يدم طويلًا، فسرعان ما كسرتة هي بنفسها، مغمغمة كالمشدوكة:

- «إنت كمان إيه؟!»

- «بقدر أشوف وأتحرك في الضلعة عادي».

- «إزاي؟!!»

- «بالتعود».

- «التعود على إيه بالضبط؟؟!!»

قالتها بعينين متصلبتين، وصوت هامس يزداد تحشرجًا مع كل كلمة، حتى بدت وكأنها تجاهد كي تخرجه من حلقها، ليجيب هو ببساطة:

- «تعود العين على الإضاءات الضعيفة جدًا، وتعود المخ على أبعاد وعناصر الأماكن اللي بيتحرك فيها بصفة دائمة».

لم ترد، ولم تكن في حاجة للرد، فقد بدا واضحًا على وجهها أن

كلامه لم يقنعها، لم يقنعها على الإطلاق.

شبرا

31 يوليو

2016

مضت بضع ثوانٍ، مرت على (عمر) و(يوسف) كأنها دهور، وبصرهما معلق بسطح البيت، حيث يقف (فؤاد) مستندًا إلى السور، المرحوم (فؤاد علي)، الذي حملا نعشه بأيديهما أول أمس.

لم يكن في الأمر أدنى شك أو شبهة، ولا ألعيب ظل أو خداع بصر، فالشمس لن تغرب قبل ساعة، والبيت ليس شاهق الارتفاع ولا مسقوف السطح. لا يمكن كذلك أن تكون أحلامًا أو تهيؤات، فكلاهما صاحٍ وواغٍ تمامًا، وبالقدر الذي يسمح له أن يؤكد للآخر أنه صاحٍ وواغٍ مثله، ويرى بالضبط نفس ما يراه. ثم إن هذا الواقف فوق السطح لم يكن يشبه (فؤاد)، كان هو! وبطريقة أبعد من مجرد تطابق للملامح، كان تطابقًا للهيئة والبنية، للوقفة والحركات، بل حتى لنمط الملابس وطريقة تصفيف الشعر. لا يمكن ألا يكون هذا هو (فؤاد).

وأمام أعينهما الذاهلة، تحرّك (فؤاد) مبتعدًا عن السور، وعن مجال بصريهما. وكأن تلك الحركة كانت ما يحتاجه (عمر) كي يخرج من تصلبه، ليفتح باب السيارة ويقفز منها منطلقًا كالسهم نحو البيت، غير عابئ بهتافات (يوسف) التي تطلب منه التمهّل. لم يفعل شيئًا في حياته بهذه السرعة من قبل. بدا وكأنه يطير. فتحّ البوابة وقفز

فوق السلالم حتى وصل للسطح ففتح بابه و...

شبرا

2003

- «أهلاً يا (عمر)، إزيك؟ تعالى ادخل».

قالها (يوسف) بابتسامة مرخبة، مُفسحاً الطريق لـ (عمر) الواقف أمام باب الشقة محمر الوجنتين، ممسكاً بصينية فرن مغطاة بورق قصدير.

- «إزي حضرتك يا عمو عامل إيه؟ هي خالتو (زينب) هنا؟»

- «آه بتعيط جوه، خش عيط معاها».

ازداد احمرار وجنتي (عمر) واتسعت عيناه قليلاً، بدا عاجزاً عن الفهم أو الرد، خاصة حين أطلق (يوسف) ضحكة مرحة، جاوبتها أخرى أنثوية قادمة من داخل الشقة، ظهرت بعدها (زينب) محمرة الوجه دامعة العينين بالفعل، وتضحك رغم ذلك وهي تقول:

- «بلاش هزارك التقييل ده يا (يوسف)، ماتخضش الواد».

ثم موجّهة حديثها لـ (عمر):

- «عمو بيهزر معاك يا حبيبي، أنا مش بعيط ولا حاجة، أنا بقطّع بصل».

- «ما انتي بتعيطي عشان زعلانة عليه».

قالها (يوسف) فضحكا ثانية، وانتبه (عمر) لحظتها للبصلة والسكين في يديها، ليشاركهما الضحك على استحياء، قبل أن يرفع الصينية التي يمسكها بحذر، قائلاً:

- «ماما باعثة لحضرتك دي يا خالتو».

- «تاعبة نفسها بس ماما. طب معلىش يا حبيبي، ممكن بس تدخلها لي المطبخ عشان إيدي مش فاضية؟»

تردد قليلاً، قبل أن يقول:

- «طب.. ممكن عمو ياخدها؟»

ليرد (يوسف) بسرعة:

- «لا أنا لو خدتها هاكلها لوحدي. هي جواها إيه الصينية دي؟»

- «مكرونة بالبشاميل».

- «هاكلها لوحدي. ادخل بقى بدل ما آكلها لوحدي».

- «لا أصل...».

- «إنت مش عاوز تدخل عندنا ولا إيه؟!»

قالها (يوسف) مداعباً، ليرتبك (عمر) ويتلعثم، ويحمر وجهه أكثر وهو يقول:

- «لا يا عمو مش كده خالص والله، أنا.. عشان ما أتأخرش بس».

تبادل الزوجان نظرة صامتة سريعة، وقد بدا على وجه (زينب) ما يشبه الحزن، في حين عاد (يوسف) يلتفت لـ (عمر)، قائلاً:

- «طب إيه رأيك في الفكرة دي، أنا كده كده كنت طالع لبابا كمان نص ساعة، هاخذك في أيدي، وهاخذ عليه عهد إنه لا يزعل لك ولا يعاقبك. تمام كده؟»

- «(عمر)! جبنا سيديهاات جديدة للبلايستيشن، حلوين أوي تعالى أوريهم لك».

كان ذلك الهتاف الصادر من (صافيناز)، التي أتت متقافزة في تلك اللحظة من الداخل، هو ما قضى على ما تبقى من تردّد (عمر) ومقاومته، لتلتصع عيناه وتنفرج أساريره وهو يخطو بالفعل داخل شقة خالته، لكن ليجد نفسه مرتبكًا مرة أخرى، حائرًا بين الرغبة في الاندفاع نحو غرفة المعيشة حيث البلايستيشن، والامتناع لأمر التوجه للمطبخ حيث طُلب منه وضع صينية البشاميل. لكن (يوسف) سرعان ما أنقذه من حيرته تلك وهو يتناول منه الصينية بابتسامة ودودة، ويتابعه بنظرة أبوية مشفقة، و(صافيناز) تمسك بيده ليهرولا معًا نحو غرفة المعيشة، و(زينب) تتابعهما بنظرها هي الأخرى، لكن بابتسامة أنثوية خبيثة.

- «قوم يا (سعيد) عشان نلعب».

قالتها (صافيناز) بلهجة شبه أمرة، يصعب أن تخرج من فتاة في الحادية عشرة من عمرها، خاصة إذا كانت تحدّث أخاها الذي يكبرها بـ 5 سنوات، والذي كان يجلس على الأرض موليًا ظهره لها، ووجهه لشاشة تلفزيون كبير يتوسط مكتبة بعرض الحائط، موصول بجهاز بلايستيشن. ودون أن يلتفت، أو يحيل بصره عن اللعبة التي بدا

منهمًا فيها، قال:

- «اصبري طيب لما أخلص الحرة دي عشان أسيف».

- «لأ قوم دلوقت».

- «ما انتي قاعدة تلعبى من الصبح يا (فيفي)، أنا مابقاليش 5 دقائق قاعد».

- «يا باباااا، (سعيد) مش عاوز يخلينا نلعب أنا و(عمر)».

جاءت صيحتها المفاجئة، لتجاوبها أخرى مماثلة من مكان ما في الشقة، تتبعها مباشرة وكأنها صداها، من (يوسف):

- «خليهم يلعبوا يا (سعيد)».

ومع الصيحتين، سرى الحرج في عروق كل منهما، (سعيد) الذي أصابه الحرج والدهشة معًا، لأن ظهره كان لـ (عمر)، فلم ينتبه لوجوده من الأساس، و(عمر) الذي شعر أنه سبب مشكلة في البيت وضيّقًا لـ (سعيد)، الذي التفت نحوهما، قائلاً:

- «مش تقولي إن (عمر) هنا طيب!»

ثم نهض وابتسم مصافحًا إياه، قائلاً:

- «(عمر) باشا، عامل إيه؟ تعالى يا عم اقعد».

وموجّها كلامه لـ (صافينان)، أضاف:

- «أنا قمت عشانه على فكرة مش عشانك».

لثخرج هي لسانها له، راسمة تعبيرًا عابثًا على وجهها، في حين قال

(عمر) بخجل:

- «شكرًا يا (سعيد)».

- «أي خدمة يا عم».

قالها واتجه لأحد أرفف المكتبة الكبيرة، عليه صف، مرصوص بنظام بالغ، من كتب الجيب، انتقى من بينهم واحدًا، وجلس يطالعه على مقعد قريب، في حين جلس (عمر) و(صافيناز) على الأرض، وأمسك كل منهما بذراع بلاستيشن و...

- «أنا كمان عاوز ألعب».

كانت تلك من (شريف) الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة، ليرفع (سعيد) عينيه عن كتابه، محدجًا إياه بنظرة لائمة، وهامسًا:

- «سيبه يلعب شوية يا (شريف)، ده لسه جاي حالي».

- «طب ما (فيفي) تقوم وألعب أنا معاه».

قالها (شريف) عابسًا، وبصوت مسموع لا مبالي، لترد عليه (صافيناز) هذه المرة، بلهجة تقريرية، ودون أن تلتفت إليه:

- «لا أنا اللي هلعب معاه».

- «اعملوا اللي تعملوه بقى أنا ماليش دعوة».

قالها (سعيد)، وعاد لكتابه.

- «سيبهم يلعبوا شوية يا (مشمش) عشان خاطري معلش».

دون أن يلحظ أحد، ودون أن يرفع هو عينيه عن كتابه، التوى فم

(سعيد) قليلًا في سخرية وامتنعاض من لفظة (مشمش)، في عبارة (زينب) التي دخلت الغرفة في تلك اللحظة حاملة صينية عليها أكواب من عصير البرتقال، وضعتها على منضدة تتوسط المكان، مضيئة:

- «اشربوا البرتقان يا ولاد، لسه عاصراه حالًا وطعمه جميل أوي».

- «مش وقته يا ماما إحنا بتلعب».

- «اشربوا وانتم بتلعبوا».

قالتها (زينب)، ثم اقتربت من (شريف) لتربت على خده هامسة، وكأنها تحدث طفلًا في الخامسة لا مراهقًا في الثالثة عشر:

- «معلش يا (مشمش)، هي كلها نص ساعة سيبه يلعبها حرام، ولك عليا بعدها أخليك تقعد تلعب لوحذك خالص بقية اليوم، اتفقنا؟»

لم يرد (شريف)، ولا حتى هز رأسه، بل ظلّ عابثًا متذمرًا وكأنه طفل في الخامسة بالفعل، لكنه كَفَّ عن الشكوى والإصرار على اللعب على الأقل، مكثفياً بتصويب نظرات غِلْ خفي صامت نحو (عمر). ظلّ على حاله تلك قليلًا، قبل أن ينسحب تاركًا غرفة المعيشة كلها. لم ينتبه له أحد وهو ينصرف، كما لم تنتبه له والدته وهو يتأكد من طرف خفي أنها عادت للمطبخ وانشغلت فيه، ولا والده الذي تأكد أيضًا من أنه يأخذ دشًا في الحمام.

في النهاية، بعدما تأكد أن كل من في الشقة منشغل في تلك اللحظة بأمرٍ ما، توجه (شريف) إلى غرفته هو و(سعيد)، التي دخلها مغلقًا بابها خلفه، قبل أن يتجه نحو التليفون الأرضي ليرفع سماعته

ويطلب رققًا، فلما سمع صوت سماعة الطرف الآخر ثرفع هي الأخرى،
غير صوته قليلاً ليصبح هامسًا مبحوخًا، وهو يقول:

- «(فريال) هانم موجودة؟ حضرتك؟ طب إيه؟ مش ناوي تحن
علينا بقى يا جميل؟»

شبرا

31 يوليو

2016

...كما توقع (عمر) بالضبط، كان السطح خاليًا تمامًا. دار فيه بعينه
ثم على قدميه، متفحصًا كل جزء فيه. عاوده شعور أنه ليس وحده،
كما راوده شعور آخر بأن شيئًا سيقفز في وجهه فجأة.

لكن لم يقفز شيء، ولم يحدث شيء، لم يكن على السطح أصلًا أي
شخص أو أي شيء، ليجد (عمر) نفسه يتساءل في سره، إن كان هذا
أفضل.. أم أسوأ؟

كان ذلك حين أتاه صوت الخطوات واللاهات، ليلتفت بسرعة نحو
مصدره، والذي لم يكن سوى (يوسف) الذي وصل السطح في تلك
اللحظة، وفي عينيه نظرة تشبه تلك التي كانت في عيني (عمر)
نفسه منذ قليل، فيها نفس الترقب والتوتر والخوف، لكن بصورة
أكثر حدة، وأكثر غرابة كذلك، إذ سرعان ما تحولت إلى مزيج غريب
من الحزن والهلع والكآبة واليأس، نظرة رجل يواجه كارثة، أو ينتظر
وقوعها.

- «عمو (يوسف)، إنت شُفته معايا، مش كده؟!»

كسر (عمر) الصمت الذي خيم عليهما بعبارته التي بدا (يوسف) وكأنه لم يسمعها، بدا تائهاً زائغ النظرات، و(عمر) يهتف به ثانية:

- «عمو (يوسف)!»

- «... كان بيتهياً لنا يا (عمر)».

- «إحنا الاتنين اتهياً لنا نفس الحاجة بالضبط في نفس الوقت؟!»

- «عشان إحنا الاتنين كان نفسنا نشوفه، قربنا أراد إننا نشوفه فعلاً، روحه طلبت الرحمة، اقرأ له الفاتحة».

لم يبد عليه الاقتناع، وهمّ بإضافة شيء ما، لكن (يوسف) أسرع يقول:

- «يلاً ننزل».

تردد (عمر) قليلاً، لكنه شعر أنه من الأفضل أن يهبطا بالفعل، ليس لاقتناعه بتفسير (يوسف) لما حدث، بل لترجيحه أن بقاءهما حيث هما لن يمنحه تفسيراً أفضل. يمكنه هو أن يبيت ليلته على السطح لو أراد، لأنه لا يستطيع إجبار (يوسف) على البقاء معه بالطبع، لكنه شبه واثق أن هذا لن يفسر أي شيء، قلبه يحدثه أن التفسير الحقيقي ليس هنا بل هناك، في الأجندة، في شقة (العباسية).

وبالفعل هبطا، بعد تأكدهما من إعادة غلق باب السطح بالمفتاح كما كان، لأن نفس قواعد بوابة البيت تنطبق عليه هو الآخر. توقفا في الطابق الثاني أمام باب شقة (نازك) و(عمر) ليتبادلا تحية شاردة

مقتضبة، قبل أن يكمل (يوسف) هبوطه حتى الطابق الأرضي، حيث شقته هو و(زينب).

دش (عمر) مفتاحه في باب شقته شاعرًا أنه صار أهدأ قليلًا، وأنه اتخذ القرار الصحيح بهبوطه من السطح. من الأفضل فعلًا أن يشحن طاقته كي يتأهب نفسيًا وجسديًا لرحلة الغد إلى (العباسية). سيأكل وإن لم تكن به رغبة في الأكل، وسيأخذ حمامًا يزيل به توتر وغبار اليوم. كذا فُكّر وهو يخطو داخل الشقة متجهًا نحو غرفته، حيث خلع حذاءه وارتدى شبشبته، ثم تناول بُرنسه واتجه إلى الحمام.

أدار مقبض بابه ليجده موصدًا ففهم أن أمه بالداخل، لكنه تعجب قليلًا حين لم يسمع ما هو معتاد، منها أو من أي شخص في موقف كهذا، مثل: «أيوه»، «ثواني»، أو أي شيء من هذا القبيل. طرق الباب كي يدفعها دفعًا للإجابة، فلربما لم تلاحظ حركة المقبض. أنصت. لا شيء. هنا شعر بشكة قلبي تنغز قلبه. ألقى بُرنسه على فواعة مجاورة وعاود الطرق، بقوة هذه المرة، هاتفًا:

- «ماما، انتي هنا؟؟»

طفى قلقه على حرجه فألصق أذنه بالباب كي ينصت جيدًا، ليأتيه الصوت هذه المرة، صوت المياه المنهمرة بقوة من الدش. هذا هو السبب إذًا؟ لم تر حركة المقبض ولم تسمع صوت ندائه أو طرقاته بسبب مياه الدش؟ لكن طرقاته كانت عالية بما يكفي، وسمعتها هي ليس ضعيفًا. لكن ليكن، سيعاود الطّرق والنداء بقوة أكبر وصوت أعلى، وسينصت مليًا مرة أخرى.

لا شيء، الباب موصد ولا صوت يأتي من خلفه سوى صوت الدش.

زاد القلق في قلبه حتى صار يؤلمه حرفيًا، ويرعبه لأنه يعرف أنه ليس قلقًا بلا سبب، ويدفعه لمحاولة فتح الباب والطرق والصراخ بجنون هذه المرة:

- «ماما! ماما انتي كويسة؟؟ ماما ردي عليا!!»

الزمالك

29 يوليو

2016

- «(عمر).. الحقني يا (عمر) الحقني».

اختلج قلب (عمر) في صدره بعنف مع صوت أمه المولول الباكي في تليفونه المحمول، وإن لم تترك تلك الاختلاجة على وجهه أثرًا كبيرًا، إذ ظل مظهره شبه هادئ، وصوته كذلك وهو يسأل:

- «فيه إيه؟؟؟»

ولو ترك لنفسه العنان، لصرخ بسؤاله، لكنه كان في مكان عام، في الشارع، يجلس خلف مقود سيارته التي كان على وشك إدارة محركها حين أتاه اتصال والدته، وفي المقعد المجاور له، (نرمين)، التي قرأت التغير الطفيف الذي بدا في وجهه وصوته، الدال على القلق والتحفز والتوتر، لتتوتر وتقلق هي الأخرى، راسمة بوجهها وكفها تعبيرًا تساؤل صامت، ليرفع سبابته وكأنه يطلب منها عدم الكلام أو حتى الحركة، وهو ينصت مليًا لأمه التي لا يزال صراخها

الباكي يحطم أعصابه، كما يحطم نصف كلامها، وهي تقول:

- «(فؤاد!) (فؤاد) ما.. الحقام.. اتز..لق.. اتزحلق وقع.. في الحقام..
أبوك يا (عمر).. (فؤاد) ما..ات.. (فؤاد) خلا..ص.. مات خلاص يا
(عمر).. مات...!!»

شبرا

31 يوليو

2016

بدأت أعصاب (عمر) تتحطم وتحترق. لا يمكن أن تفعل به الدنيا
هذا، لا يمكن! أيموت أبوه فجأة في الحقام، فقط لتلحق به أمه
بنفس الطريقة بعدها بيومين؟! أي لعنة هذه؟! أي لعنة؟!!

كان يصرخ وهو يحاول فتح الباب، فيفشل، فيصرخ ثانية وهو
يدقه، لا بقوة من يريد تنبيه من خلفه، بل من يريد تحطيمه أو خلعه
من مكانه، لكن الباب لم يكن يتزحزح حتى، ليعود (عمر) ويصرخ من
جديد و...

- «فيه إيه يا (عمر)؟! إيه اللي بيحصل؟؟!»

أنته العبارة بصوت أمه، لكن ليس من داخل الحقام، بل من
خارجها، من الصالة، من يمين (عمر) الذي التفت نحو مصدر الصوت
ليجدها هناك بالفعل، أمه (نازك)، واقفة في صالة الشقة أمام عينيها،
وباب الحقام لا يزال موصداً، وصوت الدش لا يزال يأتي من خلفه.

سالت دموع (هالة) على وجنتيها وهي تسير وحدها بصمت بين الأطلال، الأطلال، هكذا كانت تشعر نحو شقتها التي لم تعيش فيها يومًا، شقة الزوجية التي لم تكتمل، لأن الزواج نفسه لم يكتمل، أو بالأحرى، لم يبدأ، لأنه انتهى قبل أن يبدأ، لتحمل هي لقب مطلقة قبل أن تصبح زوجة، ولتظل شقتها هكذا، نصف مؤثثة نصف مجهزة، ينقصها الكثير من أعمال السباكة والنجارة والكهرباء والتشطيبات، تتناثر فيها بعض قطع الأثاث، وبضع حقائب وصناديق، وشكائر إسمنت، وتلال من الرمل والبلاط، يغطيها جميعًا الغبار.

مرت أثناء سيرها أمام مرآة طويلة تستند إلى أحد الجدران، مسحت بيدها بعض الغبار عن سطحها، متطلعة إلى انعكاسها فيها. كانت ترتدي فستانًا أبيض طويلاً يضيق قليلاً عند الخصر، بكت أكثر عندما رآته، لأنها تذكرت كم كان (حسام) يحبه، وكيف كانت تحب أن ترتديه حين يأتي لزيارتهم، حين كانت تترك شعرها منسدلاً، وتحدد عينيها بكحل عريض، كما يحب (حسام). لكنها الآن تعقص شعرها فوق رأسها بإهمال، ولا يكحل عينيها إلا الدموع، حتى الفستان الذي كان يلف قوامها لفاً، يبدو عليها الآن كجلباب واسع، من شدة ما نحلت.

كانت في الصالة حين خُيِّلَ إليها أنها سمعت صوتًا أو حركة تأتي من غرفة النوم. لكنها أتت الشقة وحدها، ولا تأتي أصلاً إلا وحدها.

أغلب من في البيت معهم نسخ من مفتاحها لكنهم لا يدخلونها أبدًا خوفًا منها، باعتبارها نحس بشكل ما. هل كانت تتخيل؟ أكان ما سمعته صوت فأر تسلل للشقة مثلًا؟ سارت باتجاه الغرفة لتتأكد بنفسها. وحين صارت على بُعد خطواتٍ منها، أتاها الصوت من جديد، أعلى وأكثر وضوحًا هذه المرة، لتتأكد أنها لم تكن تتخيل، وأن ما سمعته لا يمكن أن يكون صوت فأر.

شبرا

31 يوليو

2016

- «أمال مين اللي جوه؟!»

ألقى (عمر) سؤاله حائرًا مدهوشًا، لترد (نازك) بدهشة وحيرة مماثلتين:

- «جوة فين؟؟»

- «في الحقام!»

- «ما فيش حد في الحقام».

- «الباب متربس والدش شغال!! ما فيش حد إزاي؟!!»

تبادلت أعينهما المضطربة نظرة صامتة حائرة، فيها القليل من عدم التصديق من جانبها، والكثير من التوتر من جانبه، قبل أن تتلاقيا عند الباب الذي تقدمت (نازك) حتى وقفت أمامه، آخذة

موضع (عمر) الذي تراجع للخلف قليلاً، مفسحاً لها المجال. مدت رأسها للأمام بحذر مقرّبة أذنهما من الباب، ثم مدت يدها نحو مقبضه وأدارته لينفتح بسهولة، وبطريقة طبيعية تمامًا، وليظهر الحمام نفسه، أمام عيني (عمر) المتسعتين، طبيعيًا تمامًا هو الآخر. الدش مغلق، والصنابير كلها مغلقة، ولا أحد بالداخل.

شبرا

1999

اتسعت عينا (هالة) وهي تندفع بغير وعي إلى غرفة النوم لتجده هناك، صاحب الصوت الذي سمعته، (حسام)، حبيبها الذي لا تزال تعتبره زوجها، ولم تقوَ يومًا على تلقيبه بطليقها، يقف وسط الغرفة. عرفته رغم الإضاءة الضعيفة، والتي ليست سوى ضوء النهار المتسرب من خاص نافذة وشرفة الغرفة المغلقتين.

بدا لها منظره غريبًا بعض الشيء. لكن الأغرب كان وجوده هنا نفسه. الأغرب من حيث السبب، والكيفية كذلك. المفروض أنه، حين تم الطلاق، رد لهم كل ما يخصهم أو يخصها، بما في ذلك مفاتيح البيت والشقة، فكيف دخل؟! هل صنع نسخًا من المفاتيح وظلّ محتفظًا بها؟ لكن لماذا؟؟ وكيف دخل البيت، ثم سار حتى وصل إلى هنا، دون أن يلاحظه أحد؟! لماذا أتى بهذه الطريقة أصلاً؟؟ ولماذا لم يخبرها أنه آت؟! وما الذي يفعله هنا بالضبط؟؟

شبرا

31 يوليو

2016

- «إزاي؟! يعني إيه طيب؟؟ وإزاي؟!»

تردد هتاف (عمر) من داخل الحمام، وهو يدور حول نفسه متفقداً ومتحسّساً كل جزء فيه، مراّاً وتكراراً، والدش والبانيو بالذات، كأنه يرغب في التأكد مما يراه، أو مما لا يراه، أو للدقة، ما تصور أنه سيراه. الغريب أن الدش لم يكن مغلقاً بإحكام فحسب، بل كان البانيو كذلك جاقاً تماماً، مما يلغي أي احتمالية لأي عطب يمكن أن يجعل الدش يعمل وحده أو يتوقف من تلقاء نفسه، فما الذي حدث إذًا؟!

- «يمكن كان معلق».

قالتها (نازك) الواقفة عند الباب، ليتحسس (عمر) البانيو للمرة العاشرة، قبل أن يقول:

- «البانيو ناشف خالص».

- «أنا بتكلم على الباب».

- «لو كده، كانت خبطة ولأ زقة جامدة شوية المفروض تفتحه، أنا كنت هكسره من كتر الخبط والرزع، وبرضو فضل مقفول».

- «إنت يمكن بس كنت محتاج تتعافى عليه شوية».

- «بقول لك كنت هكسره!»

- «ما أنا فتحتة عادي يا (عمس)».

قالتها بهدوء فيه لمسة إشفاق، في حين بدت عليه هو عصبية مكتومة. فتح فمه ليقول شيئاً لكنه تراجع، أو لم يجد ما يقوله ربما، ثم بدا وكأنه وجد ما يقول، ليهتف:

- «وصوت الدش؟؟»

- «كان بيتهيأ لك أكيد، أنا ماسمعتش حاجة».

قالتها بنفس الهدوء المشفق، المضاف إليه الأسف، ليشيح هو بوجهه، ولتتبدى عصبيته المكتومة في صوته الساخر وهو يقول:

- «أنا الظاهر بقى بيتهيأ لي كتير اليومين دول».

ارتسم الأسف والتعاطف على وجهها وهي تتنهد، ثم تقول:

- «تعالى طيب نخرج من الحقام، مش صح نفضل واقفين نتكلم فيه كتير كده».

أطاعها وخرج بالفعل متجهًا إلى أقرب أريكة في الصالة، حيث جلس متخشبًا صامتًا، في حين أطفأت هي نور الحقام وأغلقت بابه بإحكام، ثم تبعته إلى حيث يجلس وجلست بجواره، واضعة يدها على ركبته لتربت عليها، وهي تقول:

- «ما قالك شيء مثل الوهم».

- «يعني إيه؟»

- «دي جملة قالها (ابن عط...)».

- «أنا عارف (ابن عطاء الله السكندري)، وعارف الحکم العطائية، لكن مش فاهم سبب أو مناسبة الجملة دي دلوقت».

- «سببها إني مش عايزاك توهم نفسك يا (عمر)، مش صح إنك ت...».

- «مش صح إيه وأوهم إيه؟! وأنا هاوهم نفسي ليه؟!»

كانت لا تزال تربت على ركبته، فقال عبارته الأخيرة مقاطعًا إياها للمرة الثانية، وهو يحرك ساقه بشيء من العصبية، مبعّدًا ركبته عن يدها، لتجفل هي قليلًا، قبل أن تقول:

- «أنا عارفة ليه».

شبرا

1999

اختلطت الدهشة بالحيرة باللهفة داخل (هالة) وهي تنظر لـ (حسام) الواقف وسط الغرفة. لم يكن ينظر نحوها، ولا حتى التفت لها وهي تقترب منه ببطء، كأنه يتعمد تجاهلها، أو لا يشعر بوجودها من الأساس. وحين وقفت أمامه تمامًا، بدأت تتبين ما بدا لها في مظهره من غرابة. وجهه كان جامدًا تمامًا، بلا أي تعبيرات. عيناه لم تكونا تنظران لها، بل ولا لأي شيء على الإطلاق، كأنه شارد أو شاخص البصر. أما بشرته، فلم تعرف إن كانت تبدو غريبة هكذا فعلاً، أم أن هذا تأثير الإضاءة الضعيفة الباهتة. بدا شاحبًا باهتًا، في شفثيه زرقه وحول عينيه هالتان داكنتان. كل شيء فيه بدا غريبًا،

كأنه هو، وليس هو في نفس الوقت، وكأنه لا يبدو غريبًا فحسب، بل مخيفًا كذلك.

تضاربت الأسئلة والمشاعر داخل (هالة) حتى قتلت بعضها بعضًا، حتى لم تعد قادرة على قول أي شيء، فيما عدا كلمة واحدة تمكنت من الخروج محشرجة من حلقها المبحوح:

- «(حسام)!!»

هنا فقط، بدا وكأنه انتبه لوجودها، ليدير عينيه نحوها، ولتجد هي نفسها، لا إراديًا، تتراجع خطوة للوراء، وخاطر عجب يخطر لها فجأة، أن هذا ليس (حسام)، يشبهه نعم، إلى حد التطابق كذلك، لكنه ليس هو.

- «ليه؟»

سمعتها تخرج منه بصوت غريب محشرج، لا يشبه صوته الذي تعرفه، ويصدر منه بطريقة ميكانيكية باردة، خالية من المشاعر، كأن الذي يتحدث آلة لا كائن حي، ليقشعر جلدًا وهي تتراجع أكثر للوراء، ولتجده هو يقترب منها، مُعيدًا سؤاله:

- «ليه؟»

لم تفهم ما يريد وعما يسأل، لكنها لم تجرؤ على سؤاله، لم تجرؤ على النطق بحرف. شعرت أنها لا ترغب في الفهم بل في الفرار. وقبل أن تفكر حتى فيما يجب فعله، وجدته يقترب منها أكثر، ليصرخ فجأة بصوت مريع:

- «لييييييييه؟؟!!»

شبرا

31 يوليو

2016

- «ليه بقى؟؟»

ألقى (عمر) سؤاله بعصبية مكتومة، في حين بدت (نازك) هادئة وهي تنظر في عينيّه، وتقول:

- «عشان أبوك».

بدا جوابها مقتضبا لا يكاد يجيب عن شيء، ورغم ذلك، بدا عليه أنه يفهم، وأنه يريد، في نفس الوقت، أن تكمل أو أن توضح، دون أن يطلب منها ذلك، دون أن يعلق حتى على ما قالت. اكتفى بالصمت، وبتعبيت عينيّه في عينيها كما تفعل هي، ليجدها تدمع وهي تقول:

- «لأنك لسه حاسس بالذنب».

شبرا

1999

انتفضت (هالة) بعنف وهي تشهق بقوة معتدلة على.. سريرها؟! في غرفة نومها في شقة أبيها في الطابق الأرضي؟! ما الذي أتى بها إلى هنا؟! ألم تكن حالاً تقف في شقتها هي في الطابق الأول، أمام

(حسام) الذي صرخ في وجهها صرخة لا تزال ترن في أذنيها؟! أكانت تحلم؟؟ ألم يكن كل هذا إلا كابوساً؟؟ ربما كان هذا هو التفسير الأكثر طمأنة ومنطقية، لكنها تشعر أنه ليس الحقيقة. قلبها يشعر بهذا، وجسدها كذلك، قلبها الذي لا زال يدق بعنف، وجسدها الذي لا زال يرتجف، كأن كل الدماء في عروقتها تحولت لأدرينالين. ألا يتعارض هذا مع كونها كانت نائمة؟!

أدارت عينيها في أنحاء الغرفة، متحسنة السرير، والكومود المجاور، وجسدها ووجهها، كأنها ترغب في التأكد من أن كل شيء حقيقي. لكن كل هذا لم يطمئنها كثيرًا، لأن كل شيء في ذلك الكابوس كان يبدو حقيقيًا واقعيًا كما يبدو كل شيء الآن، فما الفارق؟ وما أдраها أنها ليست الآن في كابوس؟

عند هذه النقطة، خفضت (هالة) رأسها وبكت. من قال إنها ليست في كابوس؟ هي في كابوس حي طويل منذ انفصلت عن (حسام). بكت أكثر حين راودها خاطر كئيب، أنها ربما كانت تتمنى أن تكون الآن في كابوس، وأن يكون الكابوس الذي رأت فيه (حسام) في الشقة هو الحقيقة، حتى وإن كانت حقيقة غريبة مفزعة، يكفي أن فيها (حسام).

أثناء نحيبها، ومن بين دموعها، لاحظت شيئًا على ثوبها، بل أشياء، بقعًا داكنة لا تعرف كنهها أو سببها أو مصدرها. أجبرت نفسها على التوقف قليلًا عن البكاء، ماسحة الدموع عن عينيها بظهر يدها لترى بصورة أفضل. هناك بالفعل بضع بقع رمادية على ثوبها الأبيض. قطبت (هالة) حاجبيها وهي تمسك بقماش الثوب متفحصة تلك

البقع، والتي بدت وكأنها أثر غبار أو أتربة، للدقة، أثر أصابع مغبرة أو يد متربة.

انتبهت في تلك اللحظة إلى أن البقع تزداد كلما أمسكت موضعًا من قماش الفستان، لتقلب يدها كي تنظر إلى باطن كفها. وقبل أن تتساءل عن مصدر الغبار على يدها، ربط عقلها عدة أمورٍ مع بعضها البعض فجأة، لتتسع عيناها وهي تقفز من سريرها كي تتفحص الفستان الذي ترتديه، ثم تندفع نحو مرآة الدولاب الطويلة لتنظر لانعكاسها عليها وهي تتفحص فستانها ثانية وكأنما لتتأكد، أنه بالفعل فستان أبيض طويل، يضيق قليلًا عند الخصر.

العباسية

1 أغسطس

2016

لم يعد المجيء إلى هنا سهلاً، لكنه أيضًا لم يعد شيئًا تسهل مقاومته. كذا فكر (عم) وهو يقف على مسافة 3 خطوات من بابي شقة (العباسية). تفحصهما أولاً بعينه، بالذات الشراعتين، فلم تلتقط عينه ما يريب. تقدّم خطوة ووقف ينصت، فلم تلتقط أذنه أيضًا ما يريب. تقدم خطوة ثانية ليقف ساكنًا لا يعرف أي حاسة من حواسه يستخدم الآن، ربما حاسة الشعور بالخطر. في النهاية سحب صدره نفسًا عميقًا، زفره ببطء وهو يتقدم الخطوة الأخيرة، قبل أن يحبس أنفاسه وهو يولج المفتاح في الباب الرئيسي ليفتحه، ثم يدفعه للداخل ببطء وحذر.

بدت الشقة كما كانت، كما تركها، هادئة ساكنة، ومظلمة إلا من ضوء النهار المتسرب بصعوبة من فتحات خصاص النوافذ والشرفات المغلقة، ومصباح الطرقة الذي لا يعرف إن كان تزكه مضاءً قارًا موفقًا أم لا، فقد بدا وكأنه لا يبدد وحشة المكان بل يزيد لها سوءًا، مكونًا ظلالًا مقبضة، ومساحات ظلّ ونور غريبة، وغير مريحة على الإطلاق.

من موقعه حيث وقف عند باب الشقة، وقبل حتى أن يتخطاه، مَدَّ يده إلى مفتاح مصباح الصالة الملاصق له ليضغطه بسرعة كي

يتخلص من تأثير مصباح الطّريقة. وحين توقف ارتعاش إضاءة المصباح الفلورسنت، لتثبت أخيرًا، فتسبح الصالة في الضوء الأبيض المظلمن بعض الشيء، خطأ (عمر) إلى الداخل، مغلقًا الباب خلفه.

لم تكن به رغبة في التجول أو التوغل هذه المرة، أو بمعنى أصح، كان خائفًا، وقد قرّر منذ البداية أنه سيجلس على نفس المقعد الذي جلس عليه أمس، الأقرب لباب الشقة، والذي يتيح له، في نفس الوقت، أوسع زاوية رؤية لمحيطه. لكنه أيضًا لم يرغب في الجلوس في مكان غير مضاء بالكامل، ولو بإضاءة ضعيفة باهتة. لذا، اكتفى بإضاءة مصابيح غرفتي الصالون والسفرة، ليصبح الجزء الخارجي من الشقة، الجزء الذي سيجلس فيه، مضاء كله.

دار بعينه دورة أخيرة قلقة فيما حوله، قبل أن يتخذ مجلسه، ثم يلتقط الأجندة من فوق المنضدة التي تركها عليها بالأمس، فما إن فتحها كي يكمل قراءتها، حتى سقطت من بين صفحاتها ورقة بدت وكأنها انثزعت منها، عليها كلام كُتب بقلم رصاص، بخط غريب تصعب قراءته، حروفه مهزوزة مشوهة تنقصها الهمزات، كأنما كتبتها يد متعجلة أو مرتجفة أو لا تتقن الكتابة.

التقط (عمر) الورقة بيد ترتجف بدورها، وجبين مقطب، وعقل يضج بالأسئلة. ما هذا الخط الغريب؟؟ مَن صاحبه؟؟ والأهم من هذا، من انتزع هذه الورقة من الأجندة أصلًا؟ ومتى؟ وكيف؟! وهو واثق أنها لم تكن موجودة أمس!

أو أنه.. لم يرها أمس؟ أكانت الورقة موجودة ولم يرها حقًا؟! ربما. أو ربما يريد هو إقناع نفسه بذلك فحسب، لأن أي احتمالات أخرى،

إما أن تعني أنه فقد عقله، أو أنه في سبيله إلى فقدّه. ولأنه لا يريد هذا ولا ذاك، حاول (عمر) منع نفسه من الاسترسال في التفكير في أي احتمالات مخيفة، واضعًا الأجندة جانبًا، كي يبدأ، بصعوبة، في قراءة ما كُتب على الورقة الغريبة:

كان ليا صاحب من زمان
ساكن ما بين اربع حيطان
والسقف عالي وله نجف

شبرا

1999

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!»

تمت بها (نازك) متسعة العينين. كانت واقفة عند باب غرفة أختها (هالة)، وكان المشهد داخل الغرفة غريبًا بعض الشيء. (هالة) جالسة أمام لوحة رسم ممتدة على حامل، وفي يدها قلم فحم يتحرك بسرعة غير عادية فوق سطح اللوحة، راسقًا شيئًا مخيفًا يصعب وصفه، أشبه بوجه يصرخ في الظلام. لوحة رائعة، ومريعة في نفس الوقت.

وبجوار (هالة)، كان (عمر) الطفل، ذو السنوات الست، واقفًا يراقب كل هذا باهتمام.

العباسية

1 أغسطس

2016

ولا زال (عمر) يقرأ:

قُلتله حاسب ع المكان

حاسب لا يبلعنا الزمان

حاسب لا سترك ينكشف

شبرا

1999

- «(عمر)!»

نادته (نازك) بحزم هامس، جعل صوتها يبدو كالفحيح، ليلتفت لها
مجفلاً. أما (هالة)، فلم يبذ أنها اهتمت أو انتبهت أو حتى سمعت
النداء، لتستمر في الرسم والتظليل وكأن شيئاً لم يكن. وبنفس
الصوت، بحزم أكبر، عادت (نازك) تقول:

- «تعالى هنا حالاً».

تردّد (عمر) قليلاً قبل أن يستسلم ويطيع، متجهًا نحو أمه،
متسائلاً:

- «ليه؟ فيه إيه؟»

فلا ترد (نازك)، لكنها تُمسك بيده وتبتعد به عن الغرفة بسرعة. كل هذا و(هالة) لا تعلّق ولا تلتفت، كأنها ليست معهما في نفس المكان. أما (عمر)، فقد استسلم ليد أمّه وهي تهزول صامتة ساحبة إياه خلفها حتى خرجا من شقة جده، ثم صعدا إلى شقتهم، وأغلقا بابها خلفهما.

هنا فقط، لانت ملامحها قليلاً، وبدأت وكأنها تتنفس الصعداء، لكنها لم تفلت يد (عمر)، اتجهت معه نحو غرفته فدخلت، مغلقة بابها خلفهما أيضاً، قبل أن تجلس على السرير وتجلسه أمامها، ثم تقول:

- «إنت كنت بتعمل إيه في أوضة خالتك يا (عمر)؟»

العباسية

1 أغسطس

2016

قاتله زنك ع الودان

هيخلي سرك ينعرف

شبرا

1999

- «بتعلم منها».

قالها (عمر) ببساطة ليتصلب وجه (نازك) ويشحب. ثم بدت وكأنها
تجاهد كي تبدو طبيعية، وهي تقول:

- «هي مين؟؟»

- «خالتو (هالة)».

- «بتتعلم إيه؟؟»

- «الرسم».

لم يلن وجه (نازك)، بل بدا وكأنه تجهم وشحب أكثر، لكنها صمتت
قليلاً وكأنها تفكر، أو تستجمع ما تؤدّ قوله. ورغم أنها حاولت بث
أكبر قدر من اللين في كلامها، إلا أن القلق أطل واضحاً من صوتها
وعينيها، وهي تقول:

- «بص يا (عمر)، أنا عايزة أقول لك على حاجة، وعايزاها تفضل
سر بيننا، ماتتكلمش فيها مع حد، بالذات بابا، وأنا عارفة إنك كبير
وعاقل، وهتفهم كلامي كويس، وهتنفذه».

العباسية

1 أغسطس

2016

ماسمغش كلمة من الكلام

ماسمغش مئي وقام ينام

واتغطى وانا قلبي ارتجف

شبرا

1999

- «ماتقعدش مع خالتك (هالة) كتير..».

العباسية

1 أغسطس

2016

والبرد صارخ في السما

والليل ثقيل ثقل العمى

والهم يتعبا ف قفف

شبرا

1999

- «... بالذات لوحدكم».

العباسية

1 أغسطس

2016

والدرب له آخر بعيد

وانا عدت ثاني ومن جديد

بتمنى لو قلبي يقف

أنهى (عمر) القراءة وقشعريرة غريبة تغزو جسده. ما هذا الذي قرأه بالضبط؟ يبدو كقصيدة شعرية، كُتبت بخط أبعد ما يكون عن الشاعرية، بل يكاد يكون مقبضًا مخيفًا. كلماتها تبدو بسيطة، بل جميلة، لكنها غامضة غريبة، ولها وقع ثقيل كئيب.

هل كتبها والده؟ المفترض أنها تخصه بما أنها في أجندته. لكنه لم يعهد فيه أي حب للشعر. لم يره يومًا مهتمًا بقراءته، فضلًا عن تأليفه، فهل نقلها من مكان ما؟ لكن الخط بعيد كل البعد عن خط أبيه المنمق الأنيق، فهل كان هذا خطه مثلًا وهو طفل؟ لكن هذه أجندة عام 1986، وأبوه وُلد عام 1960، بالتالي لم يكن طفلًا بالطبع عام 1986.

مَن إذا؟ جده مثلًا؟ هو لم يره ولا يعرف عنه الكثير. لا يعرف خطه. لكن يعرف أنه توفي تقريبًا في منتصف سبعينيات القرن العشرين، يعني قبل طباعة الأجندة أصلًا بكثير.

المشكلة أن المنطق يؤكد له، بالتدريج، أن هذه القصيدة، إن صحت

تسميتها بقصيدة، لم تكن موجودة منذ البداية، لأنه إن لم يجد لها كاتبًا في الماضي، فهي إذا لم تُكتب في الماضي. يعني.. حسنًا، الورقة انثزعت والقصيدة كُتبت، في الماضي. جميل. مَنْ فعل كل هذا؟ مَنْ تبقى أصلًا؟ جدته؟ هو نفسه؟ الاحتمال الأول بعيدٌ إلى حدٍّ كبير. والعاني يعود به للنقطة التي يهابها ويهرب منها رغم مطاردتها له.

أنه قد جُن، أو للتخفيف من حدة الأمر، يعاني من مشكلة نفسية أو عصبية ما. أمن الأفضل له أن يكف عن محاولة إقناع نفسه أن كل شيء طبيعي ومنطقي؟ عن محاولة البحث عن «فاعل»، لأنه هو نفسه الفاعل الحقيقي لكل شيء؟ هل يُقر بأن عقله ليس على ما يرام؟ وأنه حقًا يفعل أشياء وينسى أنه فعلها؟ سيفسر هذا العديد من الأمور، كالبورتريه الذي استيقظ من نومه ليجده على التابليت و... وماذا أيضًا؟ ما الذي يمكن أن يكون قد فعله ونسي؟ ومنذ متى وهو على تلك الحال؟؟

شبرا

2003

- «(سعيد)، ممكن آخذ قصص من المكتبة؟»

قالها (عمر) مشيرًا إلى رف كتب الجيب في مكتبة غرفة المعيشة في شقة خالته (زينب)، ليردّ (سعيد) على الفور:

- «ممكن طبعا، خُد اللي إنت عاوزه».

- «مش لما يرجع اللي عنده الأول؟»

جاءت العبارة الأخيرة من (شريف) الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة، ليلتفت إليه أخوه، و(عمر) الذي قال:

- «ما أنا رجعتهم».

- «لا مارجعتهمش».

فتجههم وجه (عمر) واحمر قليلاً، وهو يقول:

- «لا رجعتهم، وحطيتهم بنفسى في مكانهم في المكتبة».

تقدم (شريف) نحو الرف، مشيرًا نحو صف الكتب المرتبة حسب الأعداد المكتوبة على كعوبها، ثم قال:

- «أهه، العدد 13 والعدد 21 مش موجودين. مش دول العديدين اللي إنت أخذتهم؟»

- «أيوه هما، بس أنا مت...».

- «خلاص مش مهم. خذ اللي إنت عاوژه دلوقت يا (عمر) وابقى رجّعهم كلهم بعدين».

قالها (سعيد) مقاطعًا، ومحاولًا تهدئة حدة الموقف، ليعود (عمر) رغم ذلك، ويقول بإصرار:

- «بس أنا رجعت اللي أخذته يا (سعيد)».

- «يا سيدي مش مهم، دي كتبي أنا، وأنا بقول لك مش مهم».

- «لا مهم، ودي مش كتبك لوحدك على فكرة».

جاءت العبارة الأخيرة من (شريف) الذي بدأ يفعل، ووجهه يحمر هو الآخر. وقبل أن يتمكن (سعيد) أو (عمر) من الرد أو التعليق عليه، وبصوت يرتجف كأنه سيبكي، انفجر مضيقًا:

- «مش كل حاجة كده بقى، مش كل حاجة ياخذها ويضيعها. بابا بيدلعه، وماما بتدلعه، وجدو كمان بيدلعه، كل الناس بتدلعه. أول ما سمو الأمير يجي، لازم كلنا نقوم من قُدام البلايستيشن، ونُدي له كتبنا ولعبنا، ونعمل له كل اللي هو عاوزه. ولو اعترضت، تشتغل أسطوانة معلى وحرام. أنا زهقت. كفاية بقى، كفاية».

ومع آخر كلماته، بدا وكأن الدم سينفجر من وجهه في أي لحظة، وتجمعت في عينه دمة كبيرة، اندفع خارج الغرفة قبل أن تسيل على خده.

العباسية

1 أغسطس

2016

لكن، هل سيقضي اليوم كله في التفكير في ذلك؟ في اجترار كل الذكريات التي ترجح أن عقله ليس على ما يرام؟ كذا سأل (عمر) نفسه، ليجيبها بأنه حتى لو أراد، فليس هذا وقته، لأن «الشمس بتروح منه»، كما يقول المخرجون، وبقاؤه هنا مرهون ببقائها وسط السماء. لكنه عاد ليجد نفسه يتساءل متعجبًا، أكان يبيت في الماضي هنا حقًا؟ لماذا لم يقتله الخوف وقتها إذًا؟ لأنه لم يكن وحده؟ فهل

هو خائف الآن لأنه وحده؟ أم بسبب ما كتبه والده عما... قد يحدث؟
هنا رفع الورقة، التي كانت لا تزال في يده المرتجفة، أمام عينيه
الحائرتين، متسائلًا، أتكون هذه مما «يحدث»؟ لماذا غفل، أو تغافل،
عن هذا الاحتمال؟ من شدة خوفه؟ لكن ما الذي «حدث» هنا
بالضبط؟؟ أكتب الورقة نفسها؟ أم.. كتبها شيء غير آدمي؟؟ ولو
كان الأمر كذلك، فما هو هذا الشيء؟؟ وأين هو الآن؟؟

وجد عينيه تدوران حوله رغما عنه، تمسحان كل شبر في محيطه،
كما وجد يده تقلب الورقة وتتفحصها من كل اتجاه، فإلام أدى كل
ذلك؟ لا شيء. لا شيء «يحدث» الآن. وهو لا يزال عند نفس نقطة
الحيرة التي بدأ بها، مذبذب بين احتمالين، كليهما مرعب. باختصار
وبلا أي تذويق، إما أنه مجنون، أو محاط بالعفاريات. الأجمل أن
احتمالًا ثالثًا طرأ له فجأة، وهو احتمال أروع بكثير من سابقه.
أنه مجنون.. ومحاط بالعفاريات.

غادر (عمر) العمارة والشمس لم تمل بعد نحو المغيب. كان بإمكانه
البقاء أكثر في الشقة كي يقرأ في الأجندة، لكنه لم يرغب، أو
بمعنى أصح، لم يستطع. تكاثرت عليه مشاعر الكآبة والقلق والتوتر
والخوف، ضغطت على روحه فلم يعد بداخله طاقة تكفي لتحمل
المزيد. شعر بإنهاك من قام بمجهود عنيف، واختناق من يحمل فوق
صدره ثقلًا، رغم أنه لم يفعل شيئًا تقريبًا، لم يتحرك من مكانه، ولم
يقرأ سوى ورقة واحدة.

وحيث سقطت أشعة الشمس على جلده، ولفحه هواء الشارع الساخن، شعر بتحسّن بدا له غريبًا، لأنّه في العادة يكره الحر جدًا، ومع ذلك، يجد نفسه الآن مرحّبًا بالدفع الذي راح يشيع في جسده بالتدريج، منبّهًا له في تلك اللحظة إلى أمر كان غافلاً عنه، وهو أن الشقة أبرد مما ينبغي، أبرد على الأقلّ مما هو متوقّع في شهر أغسطس. لاحظ كذلك أنّه، مع كل خطوة يخطوها مبتعدًا عن العمارة، يشعر بارتياح أكبر، إحساس الإنهاك يخفت، والثقل الجاثم على صدره يخف.

هل كل هذا تأثير نفسي؟ المنطق يقول، نعم، ربما، كما يقول إنّ الشقق المغلقة لمدد طويلة، لا تدخلها الشمس ولا يتجدد فيها الهواء، بالتالي تصبح باردة قليلة الأكسجين. لكن إحساسه يقول كلامًا مختلفًا، كما يقول إنّ التفكير المنطقي في أشياء غير منطقية، هو في حد ذاته، أمر غير منطقي. لكنه يعود فيسأل نفسه، وهل ما مرّ به كان أشياء غير منطقية حقًا، أم تبدو له كذلك فحسب؟

قرّر أن يعود للبيت في تاكسي لأنّه لم يرغب في السير، أو بمعنى أصح، خاف، لكن من نفسه هذه المرة، من احتمالية أن تباغته تلك الحالة، التي لا زال لا يعرف لها اسمًا ولا إن كان مصابًا بها أصلًا أم لا، فيفعل أشياء وينساها، ثم يفاجأ بها فيما بعد. إن كان لا بُدّ من حدوث ذلك، فليحدث وهو في بيته وسط أهله. بدا له ذلك أقلّ خطرًا، فإلله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله وهو في الخارج وحده. كما أنّه، رغم تحسّنه، كان لا يزال يشعر ببعض الضعف، وما يشبه الدوار.

أما سيارته، فرغم أنه ليس في العادة ممن يؤمنون بالتطير، إلا أنه وجد نفسه يتشائم قليلاً منها، أو لا يحبذ قيادتها، منذ تلقى فيها خبر وفاة أبيه. هذا بالإضافة إلى أنه، من باب الاحتياط، كان قد قرّر ألا يستخدمها في رحلاته من وإلى (العباسية) بالذات، لأنه شعر أنها تجعل تتبّعه وتحديد مكانه، أسهل على مَنْ يريد اقتفاء أثره. لكن.. هل هناك من يريد اقتفاء أثره فعلاً، أم أنه سيضيف جنون الارتياب إلى قائمة الأمراض التي يشك أنه مصاب بها؟

شبرا

1 أغسطس

2016

- «العشا جاهز يا (عمر)، مش هتيجي تاكل؟»

كان يجلس على مكتبه أمام اللابتوب الخاص به، وفي أذنه سماعة تليفونه المحمول، حين أتته عبارة (ناذك) الواقفة عند باب غرفته، ليرد بما يشبه الشرود، وعينه على شاشة اللابتوب:

- «شكراً يا ماما، مش جعان دلوقت».

- «مش جعان إزاي؟! ده إنت حتى ما اتغدّتش!»

- «لا كلت برة».

- «كلت إيه؟»

أفاق من شروده قليلاً ليشير إلى السماعة في أذنه، قائلاً:

- «معايا تليفون بعد إذنك معلش».

فتنهدت وهزت رأسها باستسلام، وهي تغادر مغلقة الباب خلفها.

- «إنت اتغديت بجد يا (عمر)؟»

أتاه السؤال هذه المرة عبر سماعة التليفون، ليتسلل القليل من نفاذ الصبر إلى صوته، وهو يرد قائلاً:

- «أيوه يا (نرمين) اتغديت».

- «كلت إيه؟»

- «هو ده سؤال الحلقة النهارده ولأ إيه؟!»

أطلقت (نرمين) ضحكة خافتة إثر عبارته الساخرة، رغم ما فيها من عصبية، ثم قالت:

- «أصلي حاسة إنك ماكلتش فعلاً».

- «فبتحاولي توقعيني في الكلام؟»

لم يكن يمزح أو يسخر هذه المرة، لم يكن في صوته إلا غضباً بارداً وعصبية مكتومة، لترتبك وتتلعثم وهي تقول:

- «لأ أنا.. أنا مش قصدي، أنا بس قلقانة عليك».

- «لا ماتقلقيش».

ألقي رده المقتضب وعاد لشروده، وعينه لا تزال على شاشة اللابتوب، ويده على الفأرة المتصلة به، يمرر الزر في وسطها بإصبعه لأعلى وأسفل، بطريقة تبدو عشوائية شاردة كعينيه. مرت فترة

قصيرة من الصمت وهو على تلك الحال، حتى قالت هي أخيرًا
بخفوت:

- «(عمر) إنت كويس؟»

- «كويس آه. ليه فيه إيه؟»

- «أصلك ساكت خالص بقالك شوية».

فتنهد بعمق وخفض شاشة اللابتوب قليلًا، ثم مسح وجهه المرهق
بكفيه، مدلًا عينيه بأصابعه، وهو يقول:

- «لأ أنا معاكي أهه. كنا بنقول إيه؟»

وقبل أن ترد، طرق باب غرفته وفُتح لتظهر على عتبه (نازك) مرة
أخرى، وهي تقول:

- «أنا هدخل أناام يا (عمر)، مش عايز حاجة؟»

- «لا يا ماما شكرًا».

- «أكلك جنب المايكروويف، ابق سخن وكل».

- «شكرًا».

فهت بالمغادرة دون أن تغلق الباب، ليستوقفها هاتفًا:

- «الباب يا ماما لو سمحتي».

ابتسمت ابتسامة باهتة مشيرة إلى رأسها بما معناه أنها نسيت، ثم
أغلقتة، وما أن فعلت، حتى أطلق (عمر) زفرة حارة تنفث ضيقًا ونفاذ
صبر، قبل أن يعود لمكالمته مع (نرمين)، مكرّرًا:

- «كنا بنقول إيه؟»

- «إنت متأكد إنك كويس؟»

- «تاني؟!»

- «طب مخبي عليا إيه؟»

- «مصرة انتي تقضيها استجواب النهاردة، مش كده؟؟»

- «أنا والله العظيم ما قاصدة أضايقك بجد، بس أنا فعلاً..».

قاطعها:

- «قلقانة عليا. يا ستي شكراً، من فضلك ماتقلقيش، ومن فضلك تقفلي دلوقت عشان ورايا حاجات عايز أعملها».

- «يا (عمر) استنى بس أنا..».

- «اقفلي يا (نرمين) أنا مش قادر أتكلم بجد. سلام».

قالها وأغلق الخط على الفور، ثم أغلق تليفونه كله، دون أن يهتم بسماع ما كانت ستقوله، أو حتى ردها على سلامه.

- «مانمتيش يعني».

كانت (نازك) جالسة في الصالة منشغلة بالتقليب في تليفونها المحمول، حين خرج (عمر) من غرفته ملقياً عبارته عليها، لترفع عينيها إليه لحظة، ثم تعود بهما لشاشة تليفونها، وهي تقول:

- «ماجاليش نوم».

فجلس قبالتها وزفر. كان قد حاول، بعد أن أغلق تليفونه، العودة لما كان يشغله عن التركيز أثناء محادثته مع (نرمين)، والذي ربما كان السبب في إنهاء المحادثة بتلك الطريقة السخيفة التي انتهت بها. كان يحاول الوصول، عبر الكثير من الشرود والتفكير، والقليل من البحث على الإنترنت، إلى ما يمكن أن يكون قد أصابه. فإلام وصل؟ مثلاً، كان يشك في أنه مصاب باضطراب تعدد الشخصيات، فاكشف أن اسمه صار «اضطراب الهوية التفارقي». ولم يشك في ألزهايمر، فاكشف أنه يمكن إضافة كلمة «مبكر» له، لينضم إلى قائمة الشكوك. حتى المس والسحر، رغم نفوره، فكر فيهما، وظهر له في نتائج البحث. فهل أوصله كل هذا إلى شيء؟ بالطبع أوصله، إلى حيرة أكبر وشكوك أكثر، ومسميات جديدة أكثر أناقة لما كان يعرفه مسبقاً، مع الكثير من المعلومات الجميلة التي ليس هذا وقتها بكل تأكيد.

وحين أغلق اللابتوب بعصبية بعد أن أصابه التعب والملل والإحباط، وخرج من غرفته وكأنه لا يعرف أين يذهب أو ماذا يفعل بنفسه، تساءل في سره، ألم يكن يعرف منذ البداية أنه لن يصل إلى شيء؟؟ وأن محاولة البحث عما تعنيه أعراض عشوائية على الإنترنت، هي حماقة لا حد لها؟؟ لماذا إذاً أقبل على الغباء وهو يعرف أنه غباء؟! ولماذا تساخف على المسكينة التي لم تفعل سوى أن اهتمت بأمره وقلقت عليه؟!

- «أجيب لك تاكل؟»

أخرجته (نازك) بسؤالها من خواطره التي حملها معه من غرفته،

ليومئ برأسه قائلاً بخفوت:

- «ماشي».

فذهبت لتحضر له طعامه، وعادت به لتضعه على إحدى مناضد الصالة الصغيرة، مقربة إياها منه لتصبح في متناول يده، قبل أن تعود لجلستها السابقة، ليسألها:

- «وانتي مش هتاكلي؟»

لترد بابتسامة حانية:

- «سبقتك».

هز رأسه وبدأ في تناول طعامه وقد عاد لشروده، وراقبته هي قليلاً بعين مشفقة، قبل أن تقول:

- «مالك يا (عمر)؟»

كاد ينفجر ويصرخ، ويركل المنضدة ليقلبها بما عليها. لقد سمع «مالك؟» هذه في الأيام الأخيرة أكثر مما سمع اسمه. هل صارت محفورة على وجهه؟! منقوشة على أحباله الصوتية؟! تجبر من يراه أو يسمعه على قولها؟! ألا يجيب هذا السؤال الغبي نفسه بنفسه؟! ماله؟؟ أبداً، لا شيء، أبوه فقط مات منذ 3 أيام! أليست هذه إجابة كافية جداً على «مالك؟» التي لا تقْدَم ولا تؤخّر، وتقلّب عليه المواجه فحسب؟!!

ورغم ذلك، حاول السيطرة على أعصابه هذه المرة كي لا يتكرر ما حدث مع (نرمين)، فاحتفظ بهدوء وجهه وصوته رغم اشتعاله من

الداخل، مواصلاً الأكل وهو يقول:

- «ماليش يا ماما، أنا كويس».

- «وشك بيقول غير كده».

- «وبيقول إيه بقى وشي؟»

- «إنك مرهق وتعبان، ولا بتاكل ولا بتنام».

- «أمال أنا باعمل إيه دلوقت؟!»

- «احك لي طيب عن اللي تاعبك، فضفض لي يا ابني، أنا أمك».

- «مافيش حاجة تاعباني غير موت أبويا يا أمي، ومافيش حاجة تتحكي».

قالها وتشاغل بطعامه. وساد الصمت لفترة، نهضت بعدها (نازك) وهي تقول:

- «عايزة أقول لك على حاجة يا (عمر) قبل ما أدخل أنام. مافيش حاجة يابني تستاهل اللي انت بتعمله في نفسك ده».

فتوقف عن المضغ ورفع عينيه إليها، ثم قال:

- «أبويا مايستاهلش إنني أزعل عليه لما يموت؟!»

- «مش ده اللي أقصده».

- «أمال إيه اللي تقصديه؟»

- «نت فاهم وأنا فاهمة».

قالتها واستدارت متجهة نحو غرفة نومها، دون كلمة واحدة زائدة منها، أو منه.

- «(عمر)».

هذه المرة، حين سمع (عمر) صوت أبيه في أذنه، كان الظلام شبه دامس في غرفته، ورغم ذلك، لم يهب معتدلاً على سريره كما في المرة السابقة، ولا أضاء المصباح المجاور له، ليس لأنه لم يكن خائفاً، بل لأنه كان أشد خوفاً من أن يفعل. تسمر في مكانه تماقاً. لم يتحرك فيه سوى عينيه اللتين اتسعتا عن آخرهما. هذه المرة لا تقبل الشك. لا يمكن أن يكون هذا حلماً، لأنه واثق أنه لم يكن نائماً أصلاً، أن عقله كان في أشد حالات صحوه ووعيه، وأن عينيه كانتا مفتوحتين.

شبرا

1999

- «لسة بيقعد معاها برضو؟»

كانت (زينب) و(نازك) تجلسان متقاربتين في شرفة غرفة (عمر)، حين ألقت الأولى ذلك السؤال بصوت خفيض قلق، لترد الثانية بصوت مماثل:

- «مش عارفة أمنعه يا (زينب)».

- «ولا هتعرفي. ولعلمك، كل ما تزيدي في المنع أكثر، هيزيد في

العند أكثر».

- «طب أعمل إيه أنا دلوقت ١٩٩٩»

علا صوتها في جملتها الأخيرة، لترمقها (زينب) بنظرة محذرة وهي تقول:

- «ششش، وطى صوتك لا يسمع».

فأشاحت بيدها قائلة:

- «نايم».

مرت فترة قصيرة من الصمت، ارتسمت فيها الحسرة على وجه (نازك)، والتعاطف على وجه (زينب)، حتى قالت الأخيرة:

- «جربتي تاخديه بالمسايسة؟»

- «مسايسة؟! وده بينفع معاه مسايسة؟! والنبي خليني ساكتة».

ثم نظرت بعيدًا، مضيفة بمرارة، كأنها تكلم نفسها:

- «وارث العند من أبوه. نسخة طبق الأصل منه. أقول له يابني بلاش، يابني يهديك يرضيك، غلط عليك. يقول لي باتعلم الرسم».

لطمت خدها مرتين في الجزء الأخيرة من عبارتها، ليرتسم الجزع على وجه (زينب)، قبل أن تخفض عينيها في أسى، مغممة:

- «طب صلّ على النبي، صلّ على النبي».

- «عليه أفضل الصلاة والسلام».

قالتها بصوت تغشاه بدايات البكاء، ثم احمر وجهها، وتجمعت

الدموع غزيرة في عينيها، وهي تضيف بصوت كسير مثير للشفقة:

- «ألاقيها منين ولأ منين بس يا رب؟! حكمتك يا أرحم الراحمين! الراجل متسلط على ابنه هيجننه من كتر الضرب. والواد متسلط على روحه كأن مش كفاية اللي أبوه بيعمله فيه. ابني هيتجنن ويتلبس يا (زينب)».

شبرا

1 أغسطس

2016

هل كان الصوت أعلى أو أكثر وضوحاً من المرة السابقة؟ أم هكذا بدا له لأنه كان صاحباً هذه المرة؟ لا فارق. المهم أنه كان أعلى وأكثر وضوحاً بالفعل، وبطريقة تدل على أن صاحبه كان قريباً جداً منه، إلى الحد الذي يتوجب معه أن يشعر بأنفاسه على أذنه وجانب وجهه. لكن (عمر) متأكد أنه لم يشعر بأي أنفاس. صاحب الصوت الذي سمعه في أذنه.. لم يكن يتنفس.

ظلّ متسمراً في رقدته على جانبه في الظلام متسع العينين. لا يعرف إن كان لا يريد، أم لا يستطيع، التحرك. في أطرافه برودة وتنميل. قلبه يدق بعنف وأنفاسه ثقيلة. أعصابه متوترة مشدودة. حواسه كلها مرهفة. وجسده متأهب لما يمكن أن يلمسه فجأة.

لا يعرف كم مرّ عليه من الوقت وهو هكذا، لكنه في النهاية تجرأ وتمكن من تحريك يده ببطء وحذر نحو المصباح المجاور ليشعله،

وعينه متحفزة لما يمكن أن تقع عليه.

وأضيئت الغرفة. ولم تقع عينه على ما يريب. كل شيء كان، أو بدا، طبيعيًا تمامًا، في مجال بصره على الأقل. دار بجسده ببطء فوق السرير، وعينه تدوران معه كالرادار في أنحاء المكان. لا شيء. حواسه كالعادة لا تلتقط أشياء غريبة إلا حين ترغب هي في ذلك. وكالعادة أيضًا، إحساسه يؤكد له أن حواسه مخطئة الآن، وبشدة.

شبرا

1999

- «أعوذ بالله من غضب الله. ليه بس كده يا (نازك)؟!»

قالتها (زينب) وهما لا تزالان في شرفة غرفة (عمر)، في حين وضعت (نازك) يدها على عينيها وهي تبكي، قائلة:

- «عشان هو مش هيرتاح إلا لما يتلبس ويتجنن، أنا عارفة».

- «فال الله ولا فالك، ماتقوليش كده. حوطيه انتي بس كويس وسيبها على الله».

- «ونعم بالله».

قالتها وهي ترفع يدها عن عينيها مكفكة دموعها، قبل أن تمر فترة من الصمت، خرقتها (زينب) أخيرًا، لتقول:

- «تعرفي إني شفتها؟»

- «هي مين؟»

- «.. اللي على (هالة)».

فاتسعت عينا (نازك)، واكتسى وجهها بالوجوم، وهي تهمس
بأنفاس مبهورة:

- «شوفتيها فين؟؟ إزاي؟؟»

صمتت (زينب) قليلاً وكأنها تستجمع شجاعته، أو أطراف القصة
في رأسها، قبل أن تبدأ في حكايتها ببطء، قائلة:

- «تحت في شقة بابا، كنت لسه مخلصه شغل في المطبخ، وطالعة
من الطرقة على الصالة، و(هالة) كانت قاعدة على كرسي الأنتريه
اللي في وشك وانت طالعة على طول.».

- «اللي جنب باب الصالون؟»

- «بالظبط كده. كانت وحدها وساكتة خالص كعادتها، حانية
زهرها كده وباصة في الأرض، ماكانتش لسه شافتنى، وفوقها..
أو حواليتها، حاجة كده زي ضل أو دخان رمادي، له نفس هيئتها بس
على أضخم وأطول. وأول ما رفعت عينها ناحيتي وشافتنى.. الضل
ده اختفى!»

خيم صمت واجم على جو الشرفة بعد حكاية (زينب)، مع شعور
ثقيل غير مريح، ككهرباء استاتيكية معلقة في الهواء، حتى قالت
(نازك) أخيرًا، بصوت خفيض بطيء:

- «أنا ما كنتش عايضة أتكلم.. وشكيت أصلاً إنه كان بيتهياً لي.. بس بعد اللي انتي حكيتيه ده..».

كان الدور على (زينب) هذه المرة كي يتصلب وجهها وتتسع عيناها، ثم تميل بجسدها كله لتقترب منها، هامسة بانفعال:
- «شفتيها؟؟»

أومات إيجاباً بعينين زائغتين، وقد بدت أكثر تصلباً ووجوماً من (زينب) التي عادت تسأل:
- «شفتي إيه بالظبط؟؟»

صمتت قليلاً كأن شيئاً يعقد لسانها، ثم قالت:
- «كنت بدور على (عمر)، وبدعي ربنا في سري إنه ما يكونش في أوضة (هالة)..».

- «وكان في أوضتها؟»
- «لا، كانت وحدها، بس أنا أول ما وقفت على باب الأوضة يا (زينب)، اتسقرت، وحمدت ربنا إن الواد ماكانش موجود، وماشافش اللي أنا شفته».

- «إيه اللي شفتيه؟؟؟»
سحبت نفساً عميقاً، زفرته ببطء، ثم قالت:

- «(هالة) كانت قاعدة على سريرها، مدياني جنبها. على حجرها إسكتش بترسم فيه، وجنبها الأماجورة بتاعتها اللي مابتولعش غيرها. الأوضة كانت ضلمة والأماجورة نورها قوي، فضل (هالة) كان

واضح ومحدد جدًا، كأنه مرسوم على الحيطه اللي جنبها.. وأقسم لك بالله يا (زينب).. الضلّ كان بيتحرك حركات مالهاش علاقة بحركات (هالة) نفسها!»

وعلى سريريه، داخل غرفته، التي جلست أمه وخالته تتحدثان في شرفتها، رقد (عمر) مغمض العينين، لكن ليس نائمًا كما كانت أمه تظن، بل صاحبًا وواعيًا تمامًا، وينصت لما تقولان منذ البداية.

شبرا

2 أغسطس

2016

استيقظ (عمر) صباح اليوم التالي من.. من ماذا؟؟ مم استيقظ بالضبط؟؟ من شيء لا يدري كنهه في الواقع، فهو ليس النوم بالتأكيد، ولو كان نومًا فهو لم يتعد الساعتين على الأرجح. ما حدث ليلة أمس لم يكن يسمح له بنوم هادئ ولا حتى غير هادئ. المهم أنه صاح الآن ولا يشعر بالنعاس. صحيح أنه مُنْهَك من قلة النوم، وكثرة ما مرَّ به، ويشعر وكأنه مجوف من الداخل من شدة التعب، إلا أنه لا يستطيع النوم، بل وعاجز تمامًا عن إطباق جفنيه.

حزَّك ساقه لينهض، فشعر بها تصطدم بشيء وتركله من السرير إلى الأرض، ليتجمد في مكانه قليلًا. ما هذا؟ شيء صلب أحدث سقوطه صوت ارتطام، فما هو؟ وهل له علاقة بما حدث أمس؟؟

اعتدل جالسًا ليرى ما هناك، ليتسمر ثانية. كان تابلت الرسم هو ما اصطدم بساقه وسقط على الأرض. لكن، ألا يُفترض أن يجعله هذا يتنهد بارتياح بدلًا من التصلب في مكانه هكذا، بما أن التابلت ليس شيئًا مخيفًا، لا في حد ذاته، ولا في وجوده فوق السرير؟!

لكن (عمر) كان له كل الحق في ذلك التسمر، وفي نظراته المتصلبة نحو التابلت، لأسباب ثلاثة. أولها، أنه لا زال يذكر اللوحة الغامضة التي ظهرت عليه دون أن يعرف من رسمها حتى الآن. وثانيها، أنه

لا يذكر أنه استخدمه أو جلبه معه على السرير ليلة أمس. أما ثالثها، أهمها جميعًا وأكثرها إفزاعًا، هو وجود لوحة جديدة على شاشته، ليس أغرب ما فيها أنه لا يذكر أنه رسمها هذه المرة، بل أنها.. أنها...!

مال بجسده بحذر مقرّبًا عينيه المتسعيتين من شاشة الجهاز الملقى على الأرض، كأنه يتفقد جسمًا غريبًا يخشى أن يقفز في وجهه فجأة، لينعقد حاجباه بشدة، وكل عضلة في وجهه وجسده تتوتر وتنقبض. يا رب العالمين، ما هذا بالضبط؟!

وجد نفسه، لا إراديًا، يبسم ويستعيز بالله، وهو يمد يدًا مترددة مرتجفة نحو التابلت، كأنه يخشى لمسه، فما إن فعل، حتى شعر ببرودة غريبة تسري من أصابعه إلى جسده كله، لا يعرف إن كان مبعثها الخوف، أم برودة حقيقية انتقلت له من الجهاز الذي بدا له أبرد مما ينبغي. وما إن التقطه، مقرّبًا إياه من وجهه، حتى اتسعت عيناه أكثر، وتصلب فكه، واقتشعر كل بدنه، وهو يتأمل اللوحة الغريبة الظاهرة على الشاشة أمامه.

كانت رسمة للنصف الأعلى من مخلوق شبه بشري، لكنه مشوه بشدة، ويغلب عليه طابع حيواني ما. يعلو رأسه قرنان، ويغطي جلده شعر أسود كثيف. له أذنان طويلتان، وفك عريض بارز الأنياب. أما عيناه، فتاقتبان كأعين البوم، مشقوقتان بالطول كأعين القطط، ومخيفتان لحد يصعب معه وصفهما، أو النظر لهما طويلًا.

العباسية

بدأ (عمر) يشعر وكأنه أكثر جرأة أو أقل خوفًا في تعامله مع شقة (العباسية)، ليس لأنها لم تعد تخيفه، بل لأنها لم تعد الشيء الوحيد الذي يخيفه. كذا فُكّر وهو يدير المفتاح في بابها ويدخل. الصوت الذي يسمعه في أذنه ليلاً، واللوحات التي تظهر على التابلت في الصباح، لا تحدث في شقة (العباسية)، بل في (شبرا)، في بيته الذي كان يحسبه آمنًا، حتى بات يشعر وكأنه في كابوس مستمر لا صحو منه، أو فيلم رعب طويل، لا فارق فيه بين مشهد مخيف وآخر.

حين وصل تفكيره إلى تلك النقطة، خُيِّلَ إليه أنه انتبه لشيء ما.. نعم، بالفعل. تكرر الأمر في المرتين بالفعل. يسمع الصوت ليلاً، فتظهر اللوحة في الصباح. ما معنى هذا؟ أهى صدفة؟ إشارة؟ أغلق باب الشقة خلفه بشروود وهو يفكر في الكلمة الأخيرة مشدوهاً. إشارة؟! لماذا اختار هذا اللفظ بالذات؟! هل يعطيه عقله فعلاً نوعاً من الإشارة قبل دخوله في تلك الحالة التي لا يكون خلالها واعياً، فيفعل أشياء وينساها، كالرسم مثلاً؟؟ لكن، لو كان الأمر كذلك حقاً، فلماذا اختار عقله صوت أبيه ليكون هو تلك الإشارة؟! أو بالأحرى، هل ما يسمعه ليلاً.. هو فعلاً صوت أبيه؟؟!

- «آ.. إيه ده انت لحقت وصلت؟!»

- «وصلت فين؟؟»

- «بسم الله الرحمن الرحيم! إنت مش لسه نازل من عندي دلوقت
يا ابني؟!»

- «أنا يا تيتا؟!»

قالها (عمر) والحيرة تمتزج بالدهشة في صوته، ليصله صوت
جدته عبر سماعة التليفون الأرضي التي يمسكها، وهي تضحك قائلة:

- «الله! مين؟! (عمر)! يخرب عقلك! صوتك نسخة من صوت بابا!!
ده أنا افكرتك هو والله!! خير يا حبيبي؟ إنت متصل تسأل عليه؟»

العباسية

2 أغسطس

2016

أضاء (عمر) المصابيح واتخذ مجلسه، وهو لا يزال شاردًا يفكر في
حكاية الصوت هذه. فعلاً، لو كان صوته شبيهًا بصوت أبيه، لدرجة
كانت تجعل أمه نفسها عاجزة عن التمييز بين الصوتين، فلم لا يعجز
هو أيضًا عن التمييز بينهما؟

الصوت الذي يسمعه ليلاً، ربما كان صوته هو نفسه إذًا؟ جميل. هل
يعني هذا أنه يهلوس؟ هل يفسر هذا عدم شعوره بأنفاس صاحب
الصوت، بما أن الهلوسة لا أنفاس لها؟ لكن، هل يشكل صاحب

الصوت في هذه الحالة فارقًا حقًا؟ ألا يمكن أن تأتيه الهلوسة بصوته أو بصوت أبيه؟! ألن تكون بلا أنفاس في الحالتين؟! لكن السؤال الأهم الآن هو: هل أتى هنا كي يتأمل ويشرد ويسأل نفسه هذه الأسئلة العبية حقًا؟! تبًا للعبط!

أجبر عقله على إزاحة كل ما فيه من تساؤلات وأفكار جانبًا، وهو يتناول الأجندة من على المنضدة الصغيرة أمامه، ويفتحها. أخرج ورقة القصيدة المقتطعة التي وجدها في المرة السابقة أولًا، وتأكد من عدم وجود أخرى مثلها، قبل أن يعيد دسها في موضع عشوائي بين الصفحات. انتقل بعدها للصفحة الأولى، وجرى بعينه على السطور، حتى وصل للجزء الذي توقف عنده، ثم بدأ يقرأ:

((ولدي الحبيب، (عمر)..

بعد المقدمة التي كان لا بُدَّ منها، دعني أقص عليك الآن حكايتي، التي لا أعرف حقًا يا بني، من أين حتى أبدأها، فمن أين تبدأ قصة أي إنسان على وجه الأرض؟ من يوم ولادته؟ من أول ذكرى سعيدة؟ أول ذكرى حزينة؟ أنا لا أعرف عن يوم ميلادي سوى تاريخه المقيّد في الأوراق الرسمية، الذي أحسبك تعرفه كذلك، الثلاثون من يونيو عام 1960، والذي قالت لي أمي، جدتك، أنه ليس يوم ميلادي الحقيقي، كما قالت إنها لا تذكر تاريخ اليوم الحقيقي، وأنها متأكدة فقط من الشهر والعام، يونيو 1960.

أما عن أولى ذكرياتي السعيدة، فمنَّ العجب أنها أيضًا، أولى ذكرياتي الحزينة..

كنت وقتها في الرابعة من عمري، أي إننا كنا في عام 1964...

كان لي أخ أصغر يدعى (عباس)، لم أكن أعي عنه شيئًا وقتها، أكثر من كونه «النونو» الذي لم يكن يُسمَح لي بحمله أو لمسه، أو حتى الاقتراب منه كثيرًا. كانوا يسمحون لي فقط بمداعبته من بعيد، دون أن أفهم سرّ كل هذا الحصار، ولا الهالة شبه المقدسة التي يحيطه بها الجميع.

لا أذكر تحديدًا متى وُلِدَ (عباس)، ربما في أواخر عام 1963، لكن وعيي وذاكرتي لا تمتدان حتى ذلك الحين. لم أكن أعي الكثير، أمضي جلّ وقتي في اللعب، غير مطالب إلا بالتزام الأدب، بمفردي أغلب الوقت، وأحيانًا مع مَنْ يقاربونني سنًا من أبناء الجيران، أو من يزوروننا أو نزورهم من الأقارب. لم أعرف من أساسيات الحياة سوى أن أبي يذهب كل صباح لعملٍ يعود منه في المساء، وأن أمي لا تغادر البيت تقريبًا، وأن هناك كائنًا صغيرًا لا ملامح له، ملفوف دومًا بالأغطية، يبكي كثيرًا وينام كثيرًا، لا يسمحون لي بلمسه، ويقولون إنه أخي.

بمرور الأيام، بدأ أخي يكبر، وبدأت ملامحه تتخذ هيئة شبه مفهومة - بل ومحبة - لي. قلّ بكاؤه، وحل محله صيحات مرحة وضحكات. تكوّن له ما يشبه الشخصية، وبدأ يترك انطباعًا عندي، وودًا في قلبي، لا سيما حين خف الحصار المضروب حوله قليلًا، وبدأوا يسمحون لي بالاقتراب منه، واللعب معه، تحت مراقبة صارمة، وبحذر بالغ رغم كل شيء.

تزامن كل هذا مع تغيرات أخرى طفيفة بدأت في الظهور على

سطح الحياة. كلمات تقال هنا وهناك عن «نونو» جديد في الطريق. ابتسامات وإشراقات على وجهي أبي وأمي. تلميحات وعبارات من القريبات والجارات، لم أفهمها وقتها، مع إشارات لبطن أُمي الذي بدأت ألاحظ أنه يكبر كما يكبر (عباس).

مع الوقت، راح بطن أُمي ينتفخ حتى تكور تمامًا، وبدأ الإرهاق يحل محل الإشراق في وجهها، وإن لم تكف عن التبسم هي وأبي. كنت قد فهمت أن النونو الجديد في بطنها، وإن لم أفهم لماذا يجعلها هذا تبدو مريضة متعبة هكذا، أو لماذا صار بيتنا لا يخلو تقريبًا من قريبة ما، تارة عمتي، وتارة أخرى جدتي، أو إحدى خالاتي.

حتى جاء اليوم الذي أطلقت فيه أُمي أولى صرخات المخاض...

العباسية

1964

- «هسقيّه (سعيد)».

كان (علي) وابنه الصغير (فؤاد) يجلسان متجاورين في صالون انتظار بمستشفى (الدمرداش)، حين أطلق الأول عبارته بأسفًا وكأنه يتنهد بارتياح، قبل أن يضيف:

- «لعله يكون له نصيب من اسمه، ويعيش سعيد زي ما خلّانا سعدا».

ثم التفت إلى (فؤاد)، لتتسع ابتسامته وهو يقول:

- «والا إيه رأيك يا أستاذ (فؤاد)؟»

بادلـه الصغـير الـابتسـام وإن بدا وكأنه لا يعرف كيف يرد، ليرتسم ما يشبه الحيرة على تقاطيع وجهه الجميلة وهو يهز رأسه ببراءة جعلت (علي) يطلق ضحكة قصيرة، ثم يقول شارحا:

- «هنسمي أخوك النونو الجديد، (سعيد). إيه رأيك بقى؟ حلو اسم (سعيد)؟»

صمت الصبي قليلاً وكأنه يستوعب الأمر أو يتذوق الاسم، ليومئ بعدها بحماسة وابتسامته تتسع بدوره وهو يجيب:

- «حلو».

فعاد (علي) يسأله بابتسامة هادئة:

- «فاهم معناه؟»

صمت (فؤاد) ثانية متفكراً، وما لبث أن قال:

- «معناه مبسوط.. فرحان».

- «الله ينور عليك».

صمتا لفترة أطول هذه المرة، ثم جاء الدور على الابن كي يسأل أباه:

- «وإيه معنى (فؤاد)؟»

- «الفؤاد هو القلب. تعرف القلب مكانه فين؟»

تردد الصغير لحظة ثم أشار إلى صدره.

- «عال عال، ده انت شاطر خالص أهه. طيب تعرف بقى أنا سميتك (فؤاد) ليه؟»

قالها مبتسمًا وهو يرقب أمارات التفكير على الوجه البريء وهي تنقلب إلى حيرة أسرع ينقذه منها، قائلاً:
- «أنا هقول لك».

ثم اعتدل في مقعده وأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول:

- «كان فيه زمان ملك اسمه (فؤاد). جدك (إبراهيم)، اللي هو أبويا، كان بيشتغل طباخ في القصر بتاعه، وكان بيحبه جدًا. كان يقعد يحكي لي عنه، ويقول لي إنه كان راجل طيب ومحترم، مع إن ناس كتير ماكانوش يحبوه. والملك كمان كان يحب جدك. وعشان كده، جدك كان مقرر إنه لما يخلف، هيسمي أول أولاده، (فؤاد)».

توقف قليلًا ليلتقط أنفاسه، ثم تابع:

- «وكنت أنا أول أولاد جدك. ولكن شاءت الظروف إنني أتسمى على اسم جدي لأمي، (علي). بعدي جات عمته (فوزية). وبعدها جدك ماخلفش تاني. ولما حكى لي حكاية الاسم دي، قررت أنا أحقق أمنيته، وأسمي أول أولادي، (فؤاد)».

أجندة (فؤاد)

((كانت تلك هي أولى ذكرياتي السعيدة، وربما أول ما أذكره بوضوح على الإطلاق. كنت سعيدًا بالقصة التي رواها لي أبي،

فخورًا بأني أحمل اسمَ ملك، وكأنني أنا الملك. وخلال الأسابيع القليلة التي تلت عودة أُمي حاملة (سعيد) من المستشفى، شاع جو عام من البهجة في بيتنا، لم يدم طويلًا للأسف.

مات (عباس)، هكذا فجأة وبلا مقدمات، بالنسبة لي وقتها فحسب، لأنني عرفت وفهمت بعدها بالتدريج، بطرق مباشرة وأخرى غير مباشرة، أشياء كثيرة كانت خافية عني.

أولًا، لم يكن (عباس) ثاني أبناء الأسرة بل ثالثهم، بالتالي لم يكن أول من مات من إخوتي بل ثانيهم، فقد كان لي أخ اسمه (إبراهيم)، وعيي لا يحمل أي ذكرى له لأنه توفي وأنا صغير جدًا، ولم أعلم بأمره إلا من الحديث الكثيب المتناثر همسًا - أو هكذا ظنوا - بين الكبار. كان يصغرنني بعامين، ولم يبلغ من العمر إلا بضعة شهور.

ثانيًا، لم يكن موت (عباس) مفاجئًا إلا لي. كان مُفجعًا لأبي وأُمي بالطبع، لكن ليس مفاجئًا، ذلك لأن (عباس) كان مريضًا، وكان الكل - فيما عداي - يعرفون بالطبع. فهمت أن مرضه كان السبب في الحصار المضروب حوله، لأنهم كانوا يخافون عليه «من الهوا الطاير»، من أي شيء وكل شيء، خشية أن يموت كما مات (إبراهيم)، الذي كان مريضًا هو الآخر.

أما ثالث ما عرفت.. فقد كان الموت نفسه. كان أول لقاء بيننا. والغريب.. أنه لم يبذ حزنًا بقدر ما بدا غريبًا عسير الفهم، يستعصي على عقلي الصغير الإحاطة به. كنت أسأل نفسي كثيرًا، ومن حولي قليلًا، ما هو الموت؟ ما معناه؟ ما شكله؟ لماذا يحدث وكيف نمنعه؟ أهو شخص أم شيء أم مكان؟ هل يأتي إلينا أم نذهب نحن إليه؟

هل هو صراخ أمي المدوي أم دموع أبي الخرساء؟ اكتظاظ بيتنا
بالغرباء أم ملابسهم السوداء؟ أهو العويل والبكاء؟ أم الكآبة المعلقة
في الهواء؟ أم أنه - ببساطة - اختفاء (عباس)؟

وَضُفِّرَتْ، عند تلك النقطة، أول ذكرى حزينة لي، مع أول ذكرى
سعيدة، فصرت لا أذكر فرحة ولادة (سعيد)، إلا وذكرت معها كآبة
موت (عباس).

في تلك الفترة العصبية، بدا بيتنا كثيبًا غريبًا، ينبعث فيه الحزن
من كل مكان، من صمت أبي الطويل، وعيني أمي المتورمتين، بل
وحتى من قطع الأثاث. في تلك الفترة، سمعت ممن حولي أشياء،
جمالًا وعبارات، بعضها حزين وبعضها الآخر غريب، وأكثرها لم
أفهمه.

«أنا السبب، أنا أهملته، اهتممت بأخيه الصغير وأهملته». كانت
هذه إحدى تلك العبارات. أذكرها جيدًا لأن أمي كانت ترددها مرارًا
وتكرارًا وهي تبكي بحسرة، ضاربة بيديها على فخذيها، فإن تصادف
وقالتها على مسمع من جارة أو قريبة، تلتفت على إثرها عبارات من
نوع: وخدي الله، ده أمر ربنا.. إلخ.

«(عباس) فدا أخوه». عبارة أخرى كانت كالطلسم بالنسبة لي،
وكانت لها نسخة أخرى هي: «(إبراهيم) و(عباس) فدوا إخواتهم».
كنت أسأل عن معنى هذا الكلام فلا أجاب، وأفكر فيه فلا أصل إلى
شيء. لكنني - بطريقة ما - فهمت أن المقصود هو نوع من الربط
بين موت (عباس) و(إبراهيم)، وحياتي أنا و(سعيد). كأننا السبب

في موتهما. أو كأن موتهما كان محتقًا كي نعيش. وقد أورثني هذا مرارة غريبة، وإحساسًا بالذنب، واقتناعًا بأن حياة أي طفل، مرهونة بموت أحد إخوته.

لكن ذلك الاقتناع ضُرب في مقتل بعد عدة أشهر... حين مات (سعيد).

وتكرر كل شيء، نفس اللطم والصراخ والبكاء، والملابس السوداء، مع فارق واحد هذه المرة، أو ربما فارقين.

أولًا، تحطمت بالطبع نظريتي الطفولية عن الموت والحياة، والتي جعلتني أعتقد أن (عباس) مات كي يحيا (سعيد)، كما مات (إبراهيم) كي أحيأ أنا، لأنني، حين مات (سعيد)، لم أعد أفهم حقًا.. لماذا؟ لماذا مات إخوتي الثلاث، وظللت أنا حيًا؟! وقد بدا أنني لم أكن الوحيد الذي طرق ذهنه ذلك السؤال. وكان هذا هو الفارق الثاني.

كنت قد بلغت الخامسة من عمري، وقد بدأ وعيي يتطور قليلًا وبالتدريج، ومعه، بدأت ألاحظ النظرات، نظرات اختلفت في حداثتها ومباشرتها، وتباينت ما بين التعجب والتعجب، بل والالتهام. لكنها اتفقت على أمرين. أولهما، ما كانت تتركه في نفسي من حرج وضيق. وثانيهما، مجيئها من أعين الجميع، من كل من حولي، حتى أُمي نفسها. فيما عدا أبي. كان الوحيد الذي لم أتلق منه واحدة من تلك النظرات، وإن ظللت أشك - حتى اليوم - أنه كان يخفيها عني فحسب.

ومرّ عام، بدأت معه أولى سنوات دراستي، وحملت أُمي خلاله بأخي (إسماعيل)، الذي مات بعد شهر واحد من ولادته. في تلك المرة، خفت حدة اللطم والصراخ، ليحل محلها حزن غائر لا أظنه مُحي من وجه أُمي حتى آخر يوم في عمرها، تمامًا كالسواد الذي لم تعد ترتدي سواه. حُفر الأُسى في حياتنا حفزًا، حتى صرنا نعيش في حداد طويل لا نخرج منه. ولم تعد الكآبة معلقة في الهواء، وإنما صارت هي الهواء.

وعلى الجانب الآخر، ازدادت حدة ومباشرة النظرات المصوبة نحوي، ثم تطورت لتصبح مصحوبة بعبارات وكلمات تقال همسًا، كلمات مثل: سحر، عمل، مس.. والتي لم أدرك معانيها وقتها، وإن شعرت - بسبب طريقة إلقائها وما يصاحبها من نظرات - أنها تعني أشياء سيئة جدًّا، وثقال في حقي بغرض اللوم أو الذم، لكنني لم أفهم.. لماذا هم متضايقون مني؟ وما هذه الأشياء التي يقولون إنني فعلتها، وأنا أصلًا لا أفهمها، وأسمعها للمرة الأولى في حياتي؟

ولم يكن ينتشليني من هذا كله، ويخفف عني القليل من وطأته، إلا الدنيا الجديدة التي انفتح عليها وعيي، بدخولي إلى عالم الدراسة والمدرسة.

ثم جاء العام الذي جعل البلد كلها ترتدي السواد، عام هزيمة يونيو 1967. لم نعد البيت الوحيد الحزين. صارت (مصر) كلها حزينة،

وغاضبة وخائفة وجريحة، مثلنا. صار الحداد عامًا وخاصًا، داخل البيت وخارجه، في الشارع وفي المدرسة، وفي كل مكان وزمان.

ورغم كل شيء، ظلت بعض نواحي الحياة على حالها لا تتغير. لم تنقطع النظرات، ولا الغمز والإشارات، والتي كانت كلها بالطبع نحوي أو عني. ولم ينقطع أمل أبوي في الإنجاب، فحملت أمي للمرة السادسة. لم أكن أحصي عدد مرات حملها وقتها بالطبع، وأتمنى الآن لو كان بإمكانني أن أسافر عبر الزمن لأطلب منها الترفق بنفسها وبصحتها قليلًا، وما أظنها كانت لتصغي لي.

أما ما تغير في تلك الفترة، فقد كان الحصار المضروب حول الطفل الجديد، والذي بدأ - هذه المرة - مع بداية حمل أمي، وكأنهم يخشون على أخي مني قبل أن يولد حتى. وارتفعت همسات بعض الجارات والقريبات بعبارات الاتهام لي، وتخويف أمي مثي. لم يتهمن مرض الكلى الوراثي في أسرتنا، ولا قرابة أبي لأمي. لم ينتبهن لهذا كله - أو بالأحرى - اخترن تجاهله. كان الحل الأسهل هو تعليق كل شيء فوق رأسي أنا. أنا نحس وشؤم وممسوس ومسحور. أنا لا أريد شريكًا في محبة أبي وأمي، لهذا أكره إخوتي، ولهذا أقتلهم.

وأمي المسكينة تنصت لهذا كله، يقنعها أحيانًا وترفضه أحيان أخرى، والحياة تضغط عليها دائمًا ومن كل جانب. أذناها طافحتان بما تصبه فيهما أولئك النسوة، قلبها يكاد ينفجر من الهم، عقلها يكاد يطير، ومع موت كل طفل من أطفالها، ينكسر شيء بداخلها.. أما أنا...

أنا لم أكره أمي أبدًا، بل كنت أحبها حبًا جفًا، لكني - والحق

يقال - كثيرًا ما تألمت بسببها، وكثيرًا ما تنازعت بداخلي نحوها عاطفتان، الشفقة عليها، والخوف منها.

كانت نظرة الأسى المتصلبة على وجهها تمزق نياط قلبي، وتجعله - في نفس الوقت - ينتفض بين أضلعي. كانت كثيرة الصمت قليلة التبسم. وكان حزنها عجيبيًا، غامضًا مخيفًا، يجعلك تشعر أنه لم يعد حزنًا خالصًا، كأنه اختلط كيميائيًا بروحها لينتج شيئًا مختلفًا، شيئًا ثقيلاً مرعبًا، تكاد تشعر بحضور مادي له، وكأنه يتلبسها.

كنت أهابها وأشفق عليها. أحبس دموعي أمام نظرات الاتهام الصامت التي تطلقها نحوي - بقصد أو دون قصد - وكأنها تقول لي: لماذا أنت؟؟ لماذا أنت بالذات عشت ومات كل أبنائي؟؟

لكنني - فيما بعد - فهمت أنها لم تكن إلا امرأة مسكينة أطار الحزن صوابها، وجفف الأسى قلبها، حتى صارت تقاطيعها وروحها في صلابة الصخر. لهذا لم أَلُمها، ولهذا تحملتها، وسامحتها على كل شيء..

إلا شيئًا واحدًا فقط...

مصر الجديدة

1968

حين صعد (فؤاد)، ذو الثمانية أعوام، إلى الأوتوبيس في صباح أحد أيام إجازته الصيفية، ممسكًا بيد أمه (فريال)، تسبقهما السيدة (إلهام) جارتهم، لم تكن لديه أي فكرة عن «المشوار» الذي قالت

أمه إنهما ذاهبان إليه. كان والده قد غادر البيت منذ قليل متجهًا إلى عمله في مصلحة المساحة، حين طلبت منه أمه أن يرتدي ثيابه ويستعد للخروج. وحين سألها عن وجهتهما، لم تزد على كلمة «مشوار». لم تخبره حتى أن السيدة (إلهام) سترافقهما، ولا فسرت له سبب هذه المرافقة.

ولما كان هو قليل الأسئلة، ويعلم أن أمه قليلة الإجابات، فقد انصاع لأمرها دونما كلام، ولم تتبادل هي معه ولا حتى كلمة واحدة طوال الطريق، فقط كانت، كل حين وآخر، تتهامس ببضع كلمات مع السيدة (إلهام). ولم يكن هذا يضايق (فؤاد) كثيرًا في الواقع. أولًا، لأنه كان قليل الكلام بدوره. وثانيًا، لأنه صار معتادًا على صمت أمه الطويل، وعلى الهوة التي راحت تتسع فيما بينهما، وتتناسب عكسيًا مع ما يتبادلان من حديث، حتى وصل الأمر لذروته منذ شهرين، حين مات (محمد)، آخر من توفي من إخوته. ولكن، إحقاقًا للحق، فأمه لم تعد تتحدث كثيرًا أصلًا، مع أي إنسان. وقد تمر أيام لا يكاد صوتها يُسمع فيها داخل البيت.

وحين هبط ثلاثتهم، (فريال) و(فؤاد) و(إلهام)، من الأوتوبيس في حي (مصر الجديدة)، دخلوا شارعًا هادئًا ساروا فيه قليلًا حتى توقفوا أمام عمارة أنيقة، دخلوها وصعدوا بالأسانسير إلى شقة في الطابق الثاني، بدت لعين (فؤاد) أقرب لعيادة طبيب شبه خالية، بصالة واسعة فيها مكتب في الصدارة يجلس خلفه رجل، وصالون انتظار لا يجلس فيه أحد.

كل هذا و(فؤاد) لا يسأل عن شيء، ولا أمه تفسر له أي شيء،

فقط راح كلاهما يدور بعينيه في أرجاء المكان، هو بهدوء مترقب، وهي بحذر متوتر. أما (إلهام)، فقد بدت أكثرهم جرأة وثقة، وكان المكان والموقف كله ليسا بجديدين عليها، وهي تتبادل بضع كلمات مع الرجل الجالس خلف المكتب، الذي بدا أنه يعرفها بالفعل، والذي سرعان ما نهض واختفى في غرفة داخلية، سرعان أيضًا ما عاد منها، مشيرًا لهم بالدخول.

دخلوا إلى ما يشبه غرفة مكتب شديدة الأناقة، أثاثها يبدو باهظ الثمن. على يمين الداخل إليها بابان مغلقان. وعلى يساره مكتبة كبيرة مكتظة بالكتب والمجلدات. وفي المواجهة، نافذة كبيرة مسدلة الستائر، أمامها مكتب خشبي ضخم رائع الزخارف، فوقه مصحف كبير جميل، وخلفه يجلس رجل مبتسم يرتدي نظارة طبية، وبدلة بدا أنه خلع الجاكت الخاص بها، وأرخى كرافتها قليلًا.

ببساطة وتهذيب، حيّاهم الرجل ودعاهم للجلوس، واتسعت ابتسامته وهو يداعب (فؤاد) الذي لم يتجاوب معه، ولا حتى بادلته الابتسام، وإنما ظلّ جامدًا يحدق في عينيه بصمت، لا يتغير فيه سوى وجنتيه اللتين راحتا تحمران بشكل ملحوظ، كأنه خجل، أو يكتنم بداخله انفعالًا عاتيًا ما، لتتكلم أمه نيابةً عنه، معذرة للرجل، ومتحججة بالسبب الأول:

- «معلش أصله بيتكسف».

قالتها (فريال) بلسانها، لكنّ عينيها قالتا شيئًا آخر، نظرة تبادلتها مع (إلهام)، ثم مع الرجل، ثم بدت تلك النظرة وكأنها كرة تلقفها الثلاثة من بعضهم البعض، ففهموا معناها دون كلام. وكأنما كانت

تلك هي إشارة البدء كي يبدأ الجد. نهض الرجل من خلف مكتبه واتجه نحو أحد البابين المغلقين ففتحه، قائلاً:

- «اتفضلوا».

لكنه ابتسم بلباقة وهو يستوقف (إلهام) التي همت بمرافقتهم، مضيّفاً:

- «حضرتك خليكى مستريحة هنا».

هنا توترت (فريال) قليلاً، وتكلمت عيناها ثانية، تناشدان (إلهام) في صمت ألا تتركهما، لكن الأخيرة ردت عليها بنظرة مشجعة وإيماءة مطمئنة بما معناه أن «لا بأس»، فهدأت الأولى قليلاً، أو استسلمت، ودخلت الغرفة مع (فؤاد)، ودخل الرجل خلفهما، ثم أغلق الباب.

لسنوات عديدة، وربما لآخر يوم في حياته، ظلت تلك الغرفة وما حدث بداخلها، مخزن في ركن مظلم من عقل (فؤاد)، يتضرب أحياناً ويتشوه أحياناً أخرى، لكنه، دائماً أبداً، موجود هناك، كنقش موشوم على الجلد، في مكان مخفي من الجسد.

كانت غرفة صغيرة بلا نوافذ، تشيع فيها رائحة غريبة، عطرية وعضوية في نفس الوقت، كأنها مزيج من بخور وتوابل وكبريت مشتعل ولحم محترق. لا يبدد ظلمتها إلا ضوء أحمر باهت، ضعيف كضوء الشمعة أو اللبنة السهاري، ينبعث من مصباح صغير متدلّ من السقف، فوق منضدة دائرية تتوسط المكان، عليها مبخرة نحاسية

وبضعة أشياء أخرى، وتحيطها 4 كراسٍ خشبية، جلس الرجل على أحدها، وأشار لـ (فريال) و(فؤاد) أن يحذوا حذوه، بحيث تكون الأولى على يساره، والأخير على يمينه.

ولولا ضعف الإضاءة، لظهر الشحوب الذي كسا وجه (فريال) التي شعرت أنها تكاد تفقد الوعي، وأن أمعاءها انعقدت حول بعضها البعض في أنشودة كبيرة. بل إنها كادت تقفز نحو باب الغرفة لتفتحه ثم تقبض على ذراع ابنها لتفر به من هذا المكان. لكنها تماسكت، متممة بأية الكرسي وهي تتخذ مجلسها، وتطمئن نفسها بـ (إلهام) التي لا يفصلها عنها إلا الباب الذي ظلت، كل بضع ثوانٍ، تسترق النظر إليه، كأنه طوق نجاة تتأكد من وجوده في موضعه.

أما (فؤاد)، فقد ظل جامدًا متصلبًا كما هو، لا يكاد يتحرك فيه سوى عينيه اللتين راحتا تجوبان المكان، بالذات عند الأركان، والتي كان ضوء مصباح الغرفة الخافت لا يكاد يصل إليها، ليتركها نصف مظلمة، مبهمة مموهة. تنظر لركن فلا تعرف إن كان ما تراه هذا ظلًا أم قطعة أثاث، أم شيئًا يقف منتصبًا هناك.

وحين اقترب (فؤاد) ليتخذ مجلسه بدوره، بدأ يتبين الأشياء التي كانت على المنضدة. بجوار المبخرة كان هناك وعاءان، أحدهما متوسط كصحون الطعام، يحوي ما يشبه مزيجًا من التوابل والبخور، والآخر صغير كفنجان القهوة، ويحوي مادة سائلة داكنة. وأمام الرجل، كانت هناك أوراق بيضاء، فوقها شيء بدا لـ (فؤاد) كناية صغير بلا ثقوب، له طرف مدبب كالقلم الرصاص.

ثم بدأ الرجل يتكلم.

- «بسم الله المتعالي في دنؤه، المتداني في علؤه، المتجبر بجبروته، المنفرد بالعزة والكبرياء».

قالها الرجل وهو يشعل البخور، وعينا (فؤاد) المتصلبتان معلقتان به، تتابعانه وهو يتناول الشيء الشبيه بالناي ليغمس طرفه المدبب في وعاء المادة الداكنة كما يُغمس القلم في المحبرة، ثم يكتب به، أيضًا كما يُكتب بالقلم، على إحدى الأوراق أمامه، أشياء تبدو وكأنها بلا معنى، أرقام كثيرة، حروف متناثرة، رموز غريبة، ومقاطع تبدو ككلمات تمت تجزئتها وكتابتها متفرقة. وبعد أن انتهى من هذا كله، مزق الورقة وألقاها فوق المبخرة لتحترق مع البخور، ودون سابق إنذار، وضع يده اليمنى فجأة فوق رأس (فؤاد) وهو يقول:

- «أقسمت عليكم أيتها الأرواح الروحانية الملكوتية، والأشخاص ذات الأنوار الساطعة البهية، أقسمت عليكم بالاسم الرفيع، المحجوب المنيع، أو من كان ميثًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس كمن معله في الظلمات ليس بخارج منها، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز، ايخ ايخ، ختخ ختخ، خنوخ خنوخ، أجب يا أبا ديناج أنت وأعوانك وخدامك وأهل قبيلتك وافعل ما تؤمر به، أينما تكونوا يأت الله بكم جميعًا إن الله على كل شيء قدير».

ودون أن يرفع يميناه عن رأس (فؤاد)، مَدَّ الرجل يسراه نحو وعاء المادة الداكنة وغمس سبابته فيها وهو يحرك شفتيه كأنه يتكلم بلا صوت، أو هذا ما رأيته (فريال) فحسب، لأن (فؤاد) في تلك اللحظة،

وبالتزامن مع حركة شفتي الرجل، كان يسمع وسوسة خافتة في أذنه اليسرى.

لم يستغرق الأمر إلا ثواني معدودة، حتى إن (فؤاد) لم يجد الوقت الكافي للتساؤل أو الالتفات، بل إنه شكّ أصلًا أنه سمع شيئًا، أو أن ما سمعه كان صوت حشرة طائرة مرت بجانب أذنه. لكن هذا لم يمنعه من التحديق بتمثّن في وجه الرجل، كأنه يبحث فيه عن إجابة ما. أما الرجل نفسه، فقد نقل إصبعه الملوّث بالمادة الداكنة من الوعاء إلى جبهة (فؤاد) التي حرك إصبعه عليها برفق كأنه يدلّكها، أو يرسم فوقها شيئًا، وهو يقول:

- «البسوا الكف وفرقوا الأصابع وغيبوا الحس، واتوا بالعارض وأنطقوه بحق هذه الأسماء، اقلّقيم اقلّقيم، عليم عليم، منتهوت منتهوت، انزل يا أبا جناح وأنطق العارض بحق جبريل وميكائيل وعزرائيل».

هنا انتفض جسد (فؤاد) وتشنجت أطرافه كأن شحنة كهربائية سرت فيه فجأة، ثم تصلّب تماقًا، شعر أنه لا يستطيع التحرك، وأن رأسه يشتعل بآلم حاد غريب. تباعدت أصابع يديه بقوة وانفتح فمه على آخره رغما عنه، ورغم ذلك لم يتمكن من الصراخ أو الكلام، لم يعرف كيف يستغيث، أو ينبه أمه لما يحدث له. لكن فمه سرعان ما انغلق ثانية، وإن ظل جسده متحجّرًا جامدًا، وأصابعه متباعدة متشنجة.

- « انطق بمن أنطق (عيسى) في المهد صبيًا».

قالها الرجل وهو يمسك بكفي (فؤاد) المتشنجتين ويضعهما على المنضدة أمامه، والأخير يحاول المقاومة أو الاعتراض، أو تحريك أي جزء من جسده، فلا يستطيع، ولا يتمكن إلا من تحريك عينيه اللتين تحجرت فوقهما غلالة من دموع، لا تجف ولا تنسكب، وتشوه الموجودات من حوله بطريقة غريبة جدًا.

عاد الرجل فغمس إصبعه في المادة الداكنة ثم كتب بها حروفًا على ظهر كف (فؤاد) اليمنى، والأخير يرمش بعينه محاولًا تصفيتهما، محاولًا التأكد من هذا الذي لا يصدق أنه يراه. هل هذا تأثير الدموع، أم أن عيني الرجل تحوّلنا لفجوتين سوداوين؟؟

غمس الرجل إصبعه في المادة مرة أخرى وكرر ما فعله على كف (فؤاد) اليسرى، وعينا الأخير تتسعان. هل هذا تأثير الدموع، أم أن وجه أمه يذوب؟؟؟

وحين انتهى الرجل من الكتابة على كلا كفيه، أعاد وضع يده فوق رأسه، وهو يقول:

- «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد».

هل هذا تأثير الدموع، أم أن الكرسي الرابع، الكرسي الخالي على يمين (فؤاد)، لم يعد خاليًا؟؟؟؟

أما كل ما تلا تلك اللحظة، فقد كان كالحلم بالنسبة لـ (فؤاد).

كتب الرجل وبخّر، أعطى أمه أشياء وتبادل معها كلامًا، وهو ذاهل

عنهما تمامًا. الأصوات من حوله تأتيه خافتة مُضغمة، كمحطة إذاعية مشوشة على راديو في غرفة مجاورة. تصلب جسده بدأ يخفت بالتدريج، كقالب ثلج يذوب ببطء شديد، لكنه لا يزال عاجزًا عن الكلام والحركة، أو لا يقوى عليهما، وربما غير راغب فيهما. وحين تمكن أخيرًا، بصعوبة، من رفع يده، فرك بها عينيه، ثم أدارهما حوله بخوف وحذر شديدين.

هذا قليلًا حين وجد بصره وقد عاد لطبيعته نوعًا، أو ربما الموجودات من حوله هي التي عادت لطبيعتها، لكنه شعر كذلك وكأن غلالة الدموع لا تزال تغلف عينيه، كأنها التصقت بهما، كأنها ليست دموعًا وإنما سائل أثقل وأكثر لزوجة كالجلسرين، بطيء التبخر صعب الإزالة، ولأ فلماذا لا تزال رؤيته مزدوجة وكأنه يرى من كل شيء اثنين؟ ولماذا يشعر وكأنه يرى شيئًا بجانب عينه، إن التفت ناحيته لا يجده؟

ثقل الحركة وتشوش الأصوات وتضبيب الرؤية، كلها جعلت (فؤاد) يشعر وكأنه في حلم، وكلها لازمته وأمه تمسك بيده وتخرج به من الغرفة، ليخرجا مع (إلهام) من الشقة، ثم من العمارة كلها. ظل على ذهوله طوال طريق العودة للبيت، لا يتكلم، لا يكاد يعي مما حوله شيئًا، وأمه تسحبه من يده كالضربير. الدنيا كلها بالنسبة له أصوات متداخلة وأشكال مبهمة، لا شيء يهمه، لا شيء يلفت نظره، إلا شيئًا واحدًا يجعله يلتفت جانبًا فجأة كل بضعة دقائق، الشيء الذي يشعر بوجوده ويراه بجانب عينه منذ كان في الغرفة، الشيء الذي يشعر به يسير بجواره الآن، ويختفي كلما أدار رأسه إليه.

العباسية

2 أغسطس

2016

مهلاً ما هذا الصوت؟

توقف (عمر) عن القراءة رافعاً رأسه عن الأجندة فجأة، قبل أن يثبت في مكانه تمامًا لينصت جيدًا. هل سمع صوتًا فعليًا أم أن هذا تأثير ما يقرؤه؟ لم يكن صوت لعب أطفال الجيران على السلم فقد اعتاده، ثم إنه يختلف عما سمع للتو. حرك عينيه في كل صوب أولًا، بحذر وتوتر، ثم بدأ يحرك رأسه كله متلفئًا حوله بعصبية. تبًا. سيفقد أعصابه ويفزع نفسه بلا طائل هكذا. يجب أن يتخذ قرارًا الآن، إما أن يهدأ ويكمل القراءة، أو أن يغادر الشقة فورًا إن كانت أعصابه لا تتحمل المزيد. أما الدخول في نوبة هلع وإصابة نفسه بصدمة عصبية، فهو غباء ليس هذا وقته أبدًا، ولا مكانه بكل تأكيد.

لذا، مسح (عمر) المكان بعينه وأذنه مرة أخيرة، ثم سحب نفسًا عميقًا وخفض عينيه مجددًا نحو الأجندة، وعاد يقرأ...

العباسية

1968

حين عاد (فؤاد) مع أمه للبيت بعد ذلك «المشوار»، لم يكن والده

قد عاد من عمله بعد، وكان الأول لا يزال في حالة الصدمة الذاهلة التي بدا عاجزًا عن الخروج منها، أو حتى الكلام عنها. أمه كذلك لم تتحدث معه عما حدث، لم تمنحه تفسيرًا أو تبريرًا أو اعتذارًا، لم تسأله حتى عن حاله، بل تصرفت بطريقة بدت طبيعية تمامًا، وهي تطلب منه تبديل ملابسه والاعتسال استعدادًا للغداء، الأمر الذي ساهم في إطباق شفتي (فؤاد) أكثر، بل وجعله يسأل نفسه.. ألا يمكن أن يكون كل هذا طبيعي فعلًا؟ لا شك أنه غريب مرعب، لكن.. ما أدراه أنه ليس شيئًا يمر به كل الأولاد في سنّه؟

لكن الأمور ازدادت سوءًا، ذلك لأنهم حين كانوا في الخارج، كان من الممكن أن يوجد (فؤاد) لنفسه تبريرات لما يراه بزاوية عينه، ولشعور أن هناك من يتبعه أو يسير بجواره، لأنهم كانوا في الشارع، حيث البشر والطيور والحشرات، والبنائات والأعمدة والعربات، وشتى ما يمكن أن يلقي الظلال. لكن في البيت، في غرفته وهو متأكد أنه وحده تمامًا، لماذا يشعر أنه ليس وحده على الإطلاق؟!

ولماذا لا يزال يرى من كل شيء اثنين؟! لا يمكن تفسير الأمر على أنه زغلة في العين لأنه لا يرى الجمادات مزدوجة، فقط البشر. وحين عاد والده من عمله، وجلس ثلاثتهم لتناول الغداء في صمت كعادتهم، شعر (فؤاد) أنه يجلس على السفرة مع أربعة أشخاص لا اثنين. وبدأ، مفزوعًا، يتبين تفاصيل ما يراه. هناك شيء بجوار أمه، وآخر بجوار أبيه، شيثان باهتان نصف شفافان، ملتصقان بهما، يقلدانهما في كل حركة، يشبهانهما بالضبط كأنهما نسختين منهما، مع فارق واحد فقط، أن النسخة لا عين لها ولا أنف.

استمر الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام كاملة، و(فؤاد) يكاد يجن رعبًا، بالكاد يأكل وتقريبًا لا ينام، بل وأحيانًا يبلى ملابسه قليلًا. يخشى البقاء وحده ويفزعه مجرد النظر لأي إنسان. لا يعرف ماذا يفعل ولا أين يذهب، ولا حتى لمن يشكو أو يحكي كل هذا، وهو يرى كل من يمر أمام عينه من البشر هكذا، مزدوجين كوالديه اللذين صار يغض بصره عنهما، ناظرًا للأرض كأنما على سبيل التأدب، حين يضطر للتعامل معهما، أو حتى المرور بجوارهما. حتى النظر للأرض لم يكن يخفف من وطأة خوفه كثيرًا، لأن الأقدام تظل في مجال إبصاره، وقد كان يرى أربع أقدام لكل شخص يكلمه.

الغريب أن كل شيء، فيما عدا ذلك، بدا لـ (فؤاد) طبيعي تمامًا. الجميع مزدوجون لكنهم يتصرفون وكأنهم ليسوا كذلك، أو لا يعرفون أنهم كذلك. يتعايشون ويتعاملون مع بعضهم البعض بطريقة عادية جدًا، كأنهم لا يرون نسخهم المرعبة الملتصقة بهم، أو لا يعبؤون بها. لاحظ أن الحال هكذا داخل البيت، حين كان يراقب والديه بتوجس من طرف خفي، وخارجه، حين كان ينظر بحذر من خلف خصاص شرفة أو نافذة.

سريان الحياة بشكل عادي هكذا، جعل (فؤاد) يطبق شفتيه أكثر وأكثر، وعقله يكاد ينفجر من الأسئلة التي لا ييوح بها لأحد، فلمن سيتحدث وماذا سيقول؟ ما خطبه أصلاً بالضبط؟؟ هل هو مجنون يرى أشياء لا وجود لها؟ أم الوحيد القادر على رؤية الحقيقة؟ أم أن الجميع يعرفون بأمر هذه النسخ ويرونها مثله، ولا أحد يخاف أو

يندهش أو يتحدث عن الأمر لأنه مألوف ومعروف؟؟

لكن، ماذا عنه هو؟ أمزدوج هو الآخر؟ أهكذا يراه الآخرون؟ لماذا إذاً، حين ينظر في مرآة أو يمر أمام أي سطح عاكس، لا يرى نفسه مزدوجاً؟ أهو الوحيد الذي لا يملك تلك النسخة المربعة من نفسه؟ أم يملكها لكنه فقط لا يراها؟ ولماذا هو بالذات؟! لماذا؟؟! لم يكن مرتاحاً لذلك الرجل البغيض منذ البداية. ما الذي فعله به هذا الوجد؟؟ ومتى ينتهي كل هذا وكيف؟؟؟

ولأن (فؤاد) لم يشكو ولم يتكلم، ولأنه كان طفلاً هادئاً خجولاً قليل الكلام بطبعه، لا أحد يولي اهتماماً كبيراً لصمته أو انغلاقه على نفسه لأنه، أصلاً، صامت ساكن أغلب الوقت، لم يكن غريباً ألا ينتبه أحد لكل ما كان يمر به طوال تلك الأيام العالقة، حتى والداه. أما ملابسه التي كان يبللها، فقد كان، لخجله، يغسلها بنفسه نصف غسلة، يفركها بقليل من الماء والصابون حتى يختفي أثر البول، قبل أن يعلقها، خفية، في شرفة غرفته حتى تجف، من ثم يدسها في سبت الملابس المتسخة، لثغسل معها بشكل عادي.

حتى جاء اليوم الرابع.

حين صبحا (فؤاد) من غفوة متقطعة قصيرة، لم يعد يحصل إلا عليها مؤخرًا، وخرج من غرفته مازًا بالمطبخ في طريقه إلى الحمام، فوجئ بأمه واقفة في المطبخ مولية ظهرها له، أمه فقط، وليس تلك النسخة المربعة الكريهة منها، التي لم يحسب أنها ستختفي أبدًا.

ولم يصدق (فؤاد) عينيه. تسقّر في مكانه قليلاً يراقب أمه بحذر، ظاناً أن في الأمر خدعةً ما، أو أنه يحلم. فرك عينيه وقرص خده ليتأكد. لا، هو صاح تماقاً، وأمّه لا تزال طبيعية كما هي. كاد يقفز في مكانه فرحاً، وكاد يندفع نحو أمه ليحتضنها، لكنه اكتفى بابتسامة صامتة صغيرة وأكمل طريقه إلى الحمام، وإن ظل في قلبه القليل من الشك.

حين خرج من الحمام، عاد يختلس النظر لأمه، ثم أسرع نحو شرفة غرفة السفارة المطلّة على الشارع. لا نسخ، الجميع طبيعيون. قضى أغلب نهاره يتنقل بين شرفات المنزل ونوافذه، مستمتعاً بتأمل العالم الخارجي والبشر العاديون. وحين عاد والده من عمله، بلا نسخة ملتصقة به هو الآخر، كانت البقية الباقية من الشك في نفس (فؤاد) قد تلاشت تقريباً. لقد عادت الدنيا لطبيعتها أخيراً.

لكن (فؤاد)، في خضم فرحته، نسي أمراً آخرًا بالغ الأهمية. نسي أن المشكلة لم تكن تكمن فقط في الآخرين، بل فيه هو كذلك. وقد أفصحت تلك المشكلة عن نفسها في نفس اليوم الذي ظن فيه أن كل مشاكله قد انتهت. لا، لم تفصح عن نفسها فحسب، بل حدث لها تطور رهيب.

كانت الأسرة معتادة على أخذ قيلولة قصيرة بعد الغداء. وكان (فؤاد)، الذي لم يذق طعم النوم الهادئ المتصل منذ ثلاثة أيام، متلهفًا على تلك القيلولة عصر ذلك اليوم. لذا، اندس في سريره الكبير بين الملاءة والكوفرتة، مستمتعًا ببرودتهما، ورائحتهما الزكية الهادئة، شاعرًا بالخدر اللذيذ يسري في رأسه وأوصاله، وممسكًا

بمجلة (ميكي) لم يجد الوقت الكافي حتى لفتحها، لأنه نام قبل أن يفعل. وبعد دقيقة، أو ما بدا له كدقيقة، صحا فجأة وكأن شيئاً أيقظه.

صحا منتفضاً كمن يفيق من كابوس، ليكتشف أن الدقيقة لم تكن دقيقة فعلاً، فالظلام كان مخيفاً على الكون، ولم يعد يضيء الغرفة إلا نور مصباح الطرقة الباهت، المتسرب عبر زجاج نظارة الباب المغلق. آه، لقد نسي ترك نور الغرفة مضاءً قبل أن ينام، رغم أنه، خلال الأيام الثلاثة السابقة، لم يكن يسمح لغرفته، ولا لأي غرفة يدخلها، أن تظل مظلمة أو حتى خافتة الإضاءة، أكثر من ثلاثة ثوانٍ على الأكثر. لا بُدَّ أن فرحته بعودة الأمور لطبيعتها، هي التي جعلته يتخلى عن حذره اليوم.

لكن، هل عادت الأمور لطبيعتها حقاً؟ فجأة شعر (فؤاد) أن الإجابة على هذا السؤال هي: لا، لا قاطعة تصرخ بداخله. وفجأة، عاد له ذلك الشعور الثقيل الذي نسي، أو تناسى، كل شيء عنه نهائياً كاملاً.. أنه ليس وحده. وعاد الصوت بداخله يصرخ أن: انهض الآن. غادر الفراش واشعل ضوء الغرفة الآن.

وهمّ (فؤاد) بمغادرة فراشه فعلاً، لكن شيئاً دفعه لإدارة رأسه نحو اليمين، نحو الجزء الخالي من فراشه.. والذي لم يكن خالياً، لأن الكوفرتة التي يتغطى بها كانت مرتفعة كأنها تغطي شيئاً آخر، جسداً آخر يرقد بجواره، متدثراً كله حتى الرأس، وحدوده واضحة لا شك فيها. هناك شيء.. شـ.. شخص... شيء نائم بجواره على السرير، ونفس الكوفرتة تغطيها معاً.

لم يعد هناك مجال للشك لأن الصوت كان واضحًا هذه المرة، ولدرجة جعلت (عمر) ينتفض في مكانه، ثم يتجمد تمامًا. وقبل أن يتمكن حتى من التفكير فيما ينبغي فعله، عاجله الصوت وتكرر ثانية. اتسعت عيناه واقشعر جلده، لكنه تمكن من تحديد نوع الصوت ومكانه بالتقريب. صوت كالخشخشة أو الخربشة، يصدر من الطرقة المؤدية للجزء الداخلي من الشقة، ومن موضع قريب نسبيًا من الصالة، حيث يجلس.

لماذا ظن أن الشقة لم تعد تخيفه كثيرًا؟ وأين الجراءة التي تصور أنها لديه؟ وهل هذا وقت هذه الأسئلة الوجودية أصلًا؟! هذا وقت الفرار، لكنه يشعر أنه مشلول، الخوف يشل جسده ويجعل عقله يفكر ببطء وغباء، والصوت يتكرر للمرة الثالثة، ويبدو وكأنه يزداد وضوحًا أو ارتفاعًا أو.. أو قُربًا. هناك شيء.. شيء في الطرقة يتجه إليه.. يقترب منه.

المشكلة أنه، حيث يجلس، لا يستطيع رؤية عمق الطرقة الطويلة، بل الجزء الخارجي منها فحسب، الجزء الذي سيظهر فيه الشيء في أي لحظة الآن. لكنه لن ينتظر حتى يظهر طبقًا. سيفر من هنا حالًا. باب الشقة على بُعد ثلاث خطوات منه. هل يتحرك بسرعة؟

يرمي الأجندة ويقفز من مكانه؟ أم يتحرك ببطء ليضعها على المنضدة أمامه ويتسحب بهدوء؟

الاختيار الثاني أبطأ من اللازم، وقد لا يمنحه الوقت الكافي للفرار. والأول قد يفقده تماسكه وحسن تصرفه فيسقط أو يتعثر، وقد يجعل الشيء يعرف أنه انتبه لوجوده فيسرع بالخروج إليه. سيمزج الاختيارين معًا إذا، سيضع الأجندة ببطء، كي لا تحدث صوتًا، على المنضدة، ثم يندفع كالطلقة نحو باب الشقة.

كل هذا دار في رأسه بسرعة البرق. حبس أنفاسه وهو يضع الأجندة بهدوء بالغ، وعيناه معلقتان بمدخل الطرقة. وما إن استقرت الأجندة، وقبل أن يعطي عقله أمر التحرك لجسده، خرج الشيء من الطرقة.

شبرا

2006

ارتفع الصراخ مدويًا من الطابق الأرضي، لدرجة أنه وصل إلى الطابق الثاني، إلى أذن (نازك) التي كانت تشاهد التلفزيون مع (عمر)، قبل أن تتوتر ملامحها فجأة، لتعتدل في جلستها قائلة:

- «إيه الصريخ ده؟! وطي يا (عمر) صوت التلفزيون شوية».

لم يبذ عليه هو أنه قد سمع شيئًا، لكنه أطاعها ولم يكتف بخفض الصوت بل كتّمه تمامًا. وما إن فعل، حتى وصل الصراخ جليًا لهما معًا، صراخ مربع مختلط يصعب تمييز أصحابه، مصحوب بأصوات

أبواب تُصَفَّق بعنف، وأشياء ثقيلة تسقط، وأخرى تتحطم.

كان ذلك كافيًا كي يهبا واقفين دونما كلام أو اتفاق، ليندفعا سويًا نحو باب الشقة، فتلتقط هي في طريقها خمارًا منزليًا ترتديه على عجل ريثما يفتح هو الباب، ثم يهرولا معًا على درجات السلم هابطين إلى الطابق الأرضي. وحين صار في مرمى بصريهما، وقبل حتى أن تطأ أقدامهما أرضه، فوجئا بـ (زينب) تندفع خارجة من شقة (صابر) صافقة بابها خلفها، وهي تتمتم بكلمات مختلطة غير مفهومة، وتنطلق كالسهم نحو شقتها، لتستوقفها (نازك) هاتفة، وهي تهرول نحوها:

- «فيه إيه يا (زينب)؟؟ إيه اللي حصل؟؟»

بدا على الأخيرة أنها انتبهت لوجودهما فجأة، لتتوقف قبل أن تصل لباب شقتها، وليتبينا وجهها المحمر وشفتيها المبيضتين، وينتبهها كذلك إلى الصراخ الذي لم ينقطع، الآتي من خلف باب شقة (صابر)، والذي بات واضحًا أنه صادر من (هالة)، الأمر الذي جعل (نازك) و(عمر) يرجحان أن (صابر) نفسه ليس في الشقة، ولا في البيت كله، لأنه لم يكن يسمح لكل هذا أن يستمر دون تدخل.

أما (زينب)، فلم ترد على تساؤل (نازك) الملتاع على الفور، بل بدت وكأنها تقاوم دموعها، ونوبة دوار داهمتها وجعلتها تستند إلى أقرب جدار لها وهي تلهث، و(نازك) تربت عليها، وتنقل بصرها بينها وبين الباب المغلق الذي استمر صراخ (هالة) المتقطع، الذي بدأ يخفت بالتدريج، يصلهم من خلفه.

أخيرًا بدا أن (زينب) تحاول التماسك، وإن خرج صوتها مبحوحًا

محشرجًا وهي تقول:

- «(هالة) بقت صعبة أوي يا (نازك)».

- «ليه؟؟ عملت إيه؟؟؟»

صمتت (زينب) ثانية لتلتقط أنفاسها، قبل أن تقول:

- «مسكت في خناق (فيفي) وبهدلتها. أنا كنت قاعدة لا بيا ولا عليا، سمعت صريخ جاي من شقة بابا، طلعت أجري أشوف فيه إيه، لقيت (هالة) بتصرخ بعلو صوتها زي مانتى سامعة، و(فيفي) وشها أحمر ومفطورة من العياط».

- «ليه طيب؟! عشان إيه كل ده؟!»

بدت وكأن الدوار قد غلبها ثانية، ليتبدى الإرهاق على وجهها، وفي صوتها وهي تقول:

- «مش قادرة أقف على رجلي. تعالي نكمل كلامنا جوه. (فؤاد) فوق؟»

- «لا. (يوسف) جوه؟»

- «مافيش حد جوه غير (فيفي)، حابسة روحها في أوضتها وبتعيط من ساعتها».

وسرعان ما غابتا داخل شقة (زينب)، تاركتين (عمر) الذي ظل صامئًا طوال هذا الوقت، يراقب الموقف كله في سكون من موضعه حيث وقف على آخر درجة سلم، وحيث ظل واقفًا هنيهة أخرى. دار برأسه يمينًا نحو شقة (زينب)، حيث (زينب) نفسها، و(نازك)

و(فيفي) الباكية، ثم يسارًا نحو شقة جده (صابر)، حيث (هالة) وحدها. بدا على وجهه تعبير تفكير لم يطل كثيرًا، إذ سرعان ما حسم أمره، واتجه إلى شقة جده.

- «بتقول عملت لها كده».

قالتها (زينب)، محرّكة يدها قُربَ رأسها علامة الجنون.

- «وهي (فيفي) عملت كده بجد؟»

- «لأطبّعًا يا (نازك)! البت منهارة من العياط وبتحلف إنها ماعملت لهاش حاجة، وأنا مصدقاها».

ثم أشاحت بيدها مضيئة:

- «ما انتي عارفة أختك».

بدت (نازك) وكأنها ستقول شيئًا، لتعاجلها (زينب) وتعود لتقول:

- «وحتى لو كانت (فيفي) عملت كده فعلاً يا (نازك)، عيّلة عندها 14 سنة، نعمل عقلنا بعقلها برضو؟!»

بدا الغم على وجهيهما معًا، ثم احمر وجه (زينب)، ودمعت عيناها، وعادت تقول:

- «انتني فاكرة إني زعلانة من (هالة)؟! أنا زعلانة عليها، دي كانت أحلى وأشطّر واحدة فينا، وشوفي بقت عاملة إزاي دلوقت، مش مهتمة بنفسها ولا بدراستها، وعلى طول وحدها، واللي يقرب منها تبخ فيه زي ما انتني شايفة، حتى العيال الصغيرة».

- «مش كانت اتحسنت؟ مش الدكتور بتاعتها قال...؟»

- «وانتي صدقتي إن حال أختك ده سببه مرض نفسي بجد؟!»

- «سلام قولاً من رب رحيم. افتكري لنا النبي».

- «عليه الصلاة والسلام. واحدة بقالها 6 سنين بتتعالج، لو مريضة

فعلاً، مابتخفش ليه لغاية دلوقت؟!»

العباسية

2 أغسطس

2016

انطلقت شهقة عالية من حلق (عمر) وظهره يلتصق بالمقعد الذي يجلس عليه، وهو يرى ذلك الشيء يخرج بسرعة غير عادية من الطرقة، شيء أسود صغير انطلق نحو الصالون كالسهم و...

فأر؟؟!!!

نعم، لم يكن الشيء سوى فأر أسود دخل غرفة الصالون واختبأ أسفل أحد المقاعد. وارتجفت زاوية فم (عمر) فيما يشبه ابتسامة ساخرة انقلبت ضحكة عصبية عالية. في ظروف أخرى، أي ظروف أخرى، لم يكن مرأى فأر ليضحكه على الإطلاق، لكنه بالطبع يسعده كثيرًا الآن. كتلة الفراء اللعين هذا هو ما رآه وجفد الدم في عروقه وهو يعبث في الطرقة مستمتعًا بقرض شيء ما.

في الواقع كان من الممكن، ومن المنطقي كذلك، أن تطرق رأسه
احتمالية أن يكون المتسبب في تلك الأصوات فأر بالفعل. كذا فكر
(عمر). لكن يبدو أن أعصابه توترت أكثر مما ينبغي بسبب أجندة
أبيه، والتي لم يحن بعد وقت التفكير والخوف مما قرأه فيها. ما
حان الآن هو وقت الرحيل، بسبب أعصابه التي تلفت تمامًا، أولاً،
ولأن الشمس قاربت على المغيب، ثانيًا.

مدينة نصر

2001

لم تكن (هبة) قد رأت أو سمعت حتى صوت صديقتها وزميلتها،
(هالة)، منذ مدة طويلة جدًا، لدرجة أنها حين تلقت منها اتصالًا على
تليفونها المحمول، تخبرها فيه أنها ترغب في رؤيتها، وتتفق معها
على موعد لقاء في ذلك المطعم الصغير في حي (مدينة نصر)، لم
تصدق (هبة) أذنّها، وظلت تتوقع أن تلغي (هالة) الموعد باتصال
آخر، أو حتى رسالة نصية قصيرة. حتى حين وصلت للمطعم
وجلست تنتظرها، راحت تنقل بصرها بين مدخله وساعة يدها بتوتر،
وهي تشك أنها ستأتي.

لم تتوقف عن الشك إلا حين ظهرت (هالة) فعلاً عند المدخل.
الغريب أن (هبة) كادت لا تعرفها، بل لم تتأكد أنها هي فعلاً، إلا حين
اتجهت للمنضدة التي تجلس إليها. كانت ملابسها أنيقة مهندمة،
لكنها تبدو واسعة مهلهلة على جسدها الذابل النحيل. وكان شعرها
معقوضًا بإحكام، لكن وجهها كان شديد الشحوب. مظهرها العام

كان خاليًا تمامًا من أي لمسات زينة أو تجميل، ورغم ذلك، تشع منها جاذبية ما. باختصار، بدت كشابة في الثلاثين، لها روح عجوز في الثمانين.

أما (هالة) التي تعرفها (هبة)، فقد كانت فتاة بشوشة مفعمة بالأنوثة، شديدة الجاذبية والجمال، تهتم بأدق تفاصيل هيئتها كنجمات السينما أو موديلات الإعلانات. والذي لم تكن (هبة) تعرفه، أن هيئة (هالة) التي تستنكرها هذه، أفضل بكثير من هيئتها منذ عام مضى، وأفضل ما تستطيعه (هالة) الآن.

حين تعانقتا، شعرت (هبة) أن جسد صديقتها متصلب قليلًا، كأنها تعانق شخصًا غريبًا لم تعتد عليه. وحين تباعدتا وجلستا إلى المنضدة، بدا لها وجهها جامدًا متصلبًا هو الآخر، بلا انفعالات أو تعبيرات، لتتذكر، في تلك اللحظة، أن صوتها في التليفون كان أيضًا أليًا باردًا، يكاد يخلو من المشاعر، ويشبه جسدها ووجهها الآن.

كانت تعرف بأمر انفصالها عن (حسام)، والصدمة النفسية العميقة التي تركها بداخلها، والتي كانت السبب في انعزالها وانقطاعها عن العالم بأسره قرابة عامين، والتي هي أيضًا، على الأرجح، السبب في تخشيبها الغريب الذي لم يتغير أو ينكسر حتى حين بدأت في السلام والكلام، وطلب ما ستتناولان.

لكن كل شيء تغير حين صمتت (هالة) فجأة، وارتجفت شفاتها، وبدأت الدموع تتجمع ببطء في عينيها لتسيل على وجهها، أمام عيني (هبة) التي ملأ الإشفاق صوتها، وهي تقول:

- «مالك يا (هالة)؟ فيكي إيه؟»

- «.. (هبة) أنا مش عارفة أعمل إيه».

- «تعملي إيه في إيه؟؟»

لم تجبها، بل تقلص وجهها وانفجرت باكية فجأة بلا صوت، لتنتقل (هبة) على الفور من المقعد المواجه لها لذلك الذي يجاورها، فتربت عليها، ثم تخرج من حقيبتها منديلًا، تناوله لها وهي تقول:

- «اهدي يا (هالة)، اهدي وفهميني فيه إيه».

أخذت الأخيرة المنديل ومسحت وجهها، قبل أن تهمس من بين دموعها، قائلة:

- «(حسام)».

- «ماله؟ كل شيء قسمة ونصيب..».

- «لأ انتي مش فاهمة، (حسام) ماسابنيش».

لم تعلق (هبة)، ولم يبد عليها أنها فهمت أصلًا، لتعود (هالة) وتهمس بصوت كالفحيح:

- «(حسام) اختفى».

شبرا

3 أغسطس

2016

في صباح اليوم التالي، كان (عمر) قد استعد لرحلته اليومية إلى (العباسية). وفي طريقه لباب الشقة، سمع صوت بكاء خفيض يصدر من غرفة نوم والديه، فتوقف أمامها. ومن فرجة بابها الموارب، رأى أمه تقف أمام دولاب ملابس والده المفتوح، تملّس بيديها على قطع الثياب، تحتضن بعضها وهي تبكي بحرقة، وتتمتم هامسة بكلمات لم يميز أكرها، وإن ميز من بينها:

- «ليه بس؟ ليه كده؟ ليه عملت كده؟»

شعر بوخز في قلبه من شدة التأثر، فطرق الباب ودفعه وهو يغالب دموعه بدوره، لتلتفت له مجفلة وهي تمسح وجهها بكفها. خطا داخل الغرفة وسحب منديلين ورقيين من علبة مناديل على طاولة الزينة، ناولهما لها، فأخذتهما شاكرة وأكملت تجفيف وجهها بهما، في حين قال هو بخفوت:

- «العياط مش هيرجعه يا أمي».

بصوت مشروخ مبحوح، لازالت آثار البكاء عالقة به، قالت:

- «الله يرحمه مات وارتاح، الدور والباقي عليا أنا، على عمري اللي راح، اللي لا شوفت فيه راحة ولا هاشوف. لا حصلت زوجة متهنية،

ولا ست ناجحة في شغلها. عشت النص الأول من حياتي متبهدة،
والنص الثاني هاعيشه مترملة».

- «حرام برضو تعترضي على قضاء الله».

- «أنا اعترضت على قضاء الله؟!»

- «مش كنتي عمالة تقولي: ليه كده؟ ليه عملت كده؟!»

- «أنا ما قصدش ربنا طبعًا! سبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم
يُسألون».

- «أمال تقصدي مين؟»

- «أقصد جدك، أبويا أنا، هو السبب في كل ده، هو اللي خلاني
أتجوز أبوك».

- «وما رفضتيش ليه؟»

- «أرفض؟! كنت رفضت انت الصيدلة اللي أبوك فرضها عليك.
ولعلمك، لو فضل عايش كانت حياتك هتخرب أكثر، ولا عمرك كنت
هتعرف تتجوز أصلًا».

لم يعلق ولم يرتسم على وجهه أي تعبير، فقط توترت عضلة فكه
قليلاً وهو يهز رأسه بلا معنى ويستدير ليغادر، لتستوقفه قائلة:

- «خارج؟»

أجاب باقتضاب وظهره لها:

- «آه».

- «رايح فين؟»

- «هاقابل صحابي».

وهم بالمغادرة ثانية، لتستوقفه ثانية، وهي تقول:

- «ماتخيش خيبة أمك يا (عمر)».

عاد يستدير ليواجهها مقطبًا متسائلًا:

- «نعم؟»

- «باقول لك ماتخيش خيبتني».

- «أنا سمعت لكن مافهمتش، يعني إيه الكلام ده؟»

- «يعني اهتم بدراستك ومستقبلك، ماتخليش حاجة تشغلك عنهم،

دراستك ومستقبلك هما اللي هيقعدوا لك وينفعوك، مش أي حاجة ثانية، لا صحاب بقي ولا غيره».

- «دراسة إيه؟! إحنا في إجازة الصيف!»

أكملت وكأنها لم تسمع ما قال:

- «أنا أبوك خيب أملي، وعدني إنه هيجليني أكمل دراستي وخلف

وعده، ماتخليش حاجة تخيب أمك بقي انت كمان، فاهمني يا (عمر)؟»

لم يجيبها، فقط ثبت عينه في عينها ووجهه جامد تمامًا، وفعلت

هي المثل، وما لبث أن استدار وغادر دون كلام أو سلام.

- «(ميكي)، انت لسه هنا؟»

قالها (عمر) وهو يفتح باب شقة (العباسية) ببطء مجيلاً بصره داخلها، قبل أن يدخل مغلقاً إياه وراءه، مضيئاً:

- «ممكن ماتخضنيش طيب؟»

كان قد قرر ترك (ميكي) يعيش، و(ميكي) هو الاسم الذي أطلقه على فأر الأمس. فأر أسود صغير، إذن هو (ميكي) بلا شك. صحيح أنه اسم كليشيه جداً لفأر، وصحيح أنه كان يرغب في خنقه بيديه أو سحقه بحذائه بعد الفرع الذي سببه له أمس، إلا أنه صحا اليوم شاعراً نحوه بتسامح وألفة غريبين، كأنهما مزا مفا بتجارب وخبرات، قوية وإن كانت قصيرة، فلا ريب أنه أخافه كما خاف منه. صار بينه وبين ذلك الوغد ما يشبه العشرة، وعلى الأرجح سيؤمن له وجوده نوعاً من الوئس، ومصدراً لدعابات قد تخفف من وطأة خوفه، كما فعل منذ لحظات وهو يفتح الباب ويدخل، وربما شماعة يُطمئن نفسه بها كذلك، ويعلق عليها أي صوت غريب قد يسمعه.

لكنه لا يزال خائفاً بالطبع. صارت الشقة تخيفه أكثر من ذي قبل بكثير. ما قرأه في أجندة أبيه يجمد الدم في العروق، خاصة وقد توقف عند نقطة مفصلية مفزعة يجب أن يعرف كيف ستنتهي وعلام. يجب أن يفهم لماذا يقص أبوه عليه كل هذا، وما الذي يريد

أن يخبره به.

لم يكن الفأر في مكان ظاهر، ولم يكن على استعداد طبقاً للبحث عنه، فلازال يخشى الجزء الداخلي من الشقة، بل صار يخشاه الآن كالجحيم، لذا لم يجرؤ على الاقتراب منه. أما الجزء الخارجي، فقد ترك مصابيحه كلها مضاءة منذ البارحة. لذا، اتجه مباشرة لمقعده المعتاد القريب جدًا من باب الشقة، متممًا بأية الكرسي، قبل أن يلتقط الأجندة ويفتحها، ليفر صفحاتها حتى يصل للجزء الذي توقف عنده، ثم يبدأ في القراءة...

العباسية

1968

شيء نائم بجواره على السرير، ونفس الكوفرتة تغطيهما معًا.

لم ينهض (فؤاد)، لم يصرخ، لم يفكر حتى، منعتة شدة الخوف من كل ذلك، ليتصرف جسده وكأن له إرادة خاصة به، وبرد فعل ميكانيكي، انزلق من السرير متكومًا على الأرض، ومع حركته تلك، تحركت الكوفرتة منزلقة بدورها من فوق الشيء أمام عينيه المتسعيتين، لا لتكشفه كما توقع، بل لتهبط على السرير كأنما لم يكن تحتها أي شيء.

ومع تلك الصدمة الجديدة، تجمد (فؤاد) في مكانه فاغر الفم لثانيتين فحسب، قفز بعدهما كالمسوع نحو مفتاح الإضاءة وضغطه لينتشر الضوء في الغرفة، والتي بدت طبيعية تمامًا. دار بعينه

متفحصًا كل جزء فيها. لا شيء مريب. ما معنى هذا؟! أكان يحلم؟ أم أن ما حدث كان شيئًا ظهر واختفى فجأة، كما ظهرت نسخ الآخرين المخيفة واختفت فجأة؟

لوهلة ظل ثابتًا في مكانه لا يجرؤ على الحركة، شاعرًا أن في الأمر خدعة ما، ومتوقعًا أن يقفز شيء في وجهه بغتة. دار بعينه في أرجاء الغرفة ثانية، بل إنه، رغم تردده وخوفه، فتش كل جزء فيها. فتح الشرفة، وكل درف دولاب الملابس، نظر أسفله وأسفل المكتب والسرير، صعد حتى فوق المكتب وشب على أطراف أصابعه محاولًا كشف ما فوق الدولاب. لا شيء. الغرفة عادية تمامًا. أكان يحلم حقًا؟ أمن الممكن أن تكون الأيام الثلاثة السابقة كلها حلًا هي الأخرى؟ متى استيقظ إذن؟ حين سقط على الأرض؟

كذا فكر وهو يتراجع بظهره ليجلس على طرف السرير، لكن تفكيره لم يطل كثيرًا، لأن الإجابة على تساؤلاته جاءت أسرع مما توقع، على هيئة ذلك الذي جلس بجواره.

أول ما لاحظته (فؤاد) كان الساقين، ساقين تشبهان ساقيه هو نفسه جدًا، بل هما نسخة منهما، وترتديان نفس بنطلون البيجامة الذي يرتديه، وكلما انزلت عينه المتسعة لأعلى، ارتطمت بنسخة منه في كل شيء، كأنه ينظر في مرآة، وفي نفس الوقت، راح الصراخ يحتشد بداخله دون أن يخرج، كطاقة وضع كامنة مستعدة في أي لحظة للانطلاق، فما إن وصلت عينه لوجه ذلك الجالس بجواره، لتجده بلا أنف ولا عيين، حتى ارتفعت طاقة الصراخ من أحشائه

فجأة لتضغط على حلقه كالقيء، ثم تندفع عبر فمه مدوية تصم الأذان.

لم تكن صرخة بل انفجارًا، كل الفرع المتراكم داخله انفجر فجأة. أما كل ما تلا ذلك الانفجار مباشرة، فمشوش في ذهن (فؤاد)، ولا يذكره جيدًا. هل ركض هو متخبطًا متعثراً إلى والديه؟ أم سمعا هما صرخته فأتيا إليه؟ أم أنه ركض إليهما في نفس الوقت الذي ركضا فيه إليه ليتقابلوا جميعًا في الظرقة حيث ظل يصرخ ويبكي حتى فقد الوعي؟ نعم، لا بُدَّ أنه فقد، عدة مرات في الواقع، لأن الدنيا كانت تظلم وتضيء، ثم تتضرب فتظلم فتضيء، وفي كل مرة كانت الأصوات والرؤى تأتيه مختلطة مشوشة، فلا يعرف أين هو، ولا ماذا يحدث بالضبط.

وحين هدا أخيرًا، نسيًا، وجد نفسه في غرفة نوم والديه، على سريرهما، جالسًا بينهما، أمه تحتضنه وتبكي، وأبوه يضع يده على رأسه ويتلو آيات من القرآن الكريم، كما وجد في نفسه القدرة على إخبارهما بكل ما مر به، منذ ذهابه هو وأمّه في ذلك المشوار إلى ذلك الرجل البغيض، وحتى جلس الشيء الذي يشبهه بجواره على السرير.

وما إن بدأت القصة الكاملة تخرج من فمه متتالية، حتى تمكن عقله من ربط بعض الأمور ببعض، لينتبه إلى التشابه بين الشيء الذي جلس بجواره، والأشياء التي كان يراها ملتصقة بكل من حوله. كانوا جميعًا نسخًا مرعبة من أصحابها، بلا عيون ولا أنوف. الفارق

الوحيد أن نسخته هو كانت أقلهم شفافية، بل لم تكن شفافة على الإطلاق.

أما والداه، فمع كل كلمة يسمعانها، كانت تعبيرات وجهيهما تتغير بالتدريج، لتتحول في النهاية إلى هلع كامل، لاحظ (فؤاد) أنه يختلف في وجه أمه عن وجه أبيه، فالأخير بدا كمن اكتشف مصيبة، أما الأولى فبدت كمن اكتشفت مصيبتها، لينشب إثر ذلك شجار مروع بينهما، فهم منه (فؤاد) ليلتها أشياء كثيرة.

فهم أن أباه لم يكن يعلم بأمر ذلك المشوار، وأن أمه تعمدت القيام به في الفترة التي يغيب فيها في عمله. وحين قالت، محاولة الدفاع عن نفسها وتخفيف حدة الموقف، أن من ذهبوا إليه ليس إلا شيخًا جليلاً معروفاً، رأى أباه وهو ينفجر صارخاً فيها، واصفاً مَن ذهبوا إليه بـ «الساحر» تارة وبـ «المشعوذ» تارة أخرى، قائلاً إن كل ما يفعله هو وأعماله كارثي وحرام، وأن كل من يذهب لهؤلاء الناس يقترف إثماً لا يُغتفر، وأنها طالق منه إن تكرر هذا الأمر مرة أخرى.

أما لم يفهمه (فؤاد) ليلتها، فهو أن ما حدث في غرفته منذ قليل، كان أول لقاء بينه وبين قرينه.

منذ تلك الليلة، وبسبب كل ما حدث، طرأت عدة تغيرات في حياة الأسرة، من بينها ثلاثة أساسية. أولاً، تغيرت خريطة النوم في البيت. أصبح (فؤاد) ينام مع أمه في غرفة والديه التي يصر على أن تظل مضاءة حتى الصباح. أما الأب، فينام وحده في غرفة (فؤاد)، بعد أن يقرأ بداخلها ما يتيسر من القرآن. ثانيًا، تغيرت النفوس. توترت

العلاقة طبعًا، وهذا مفهوم، بين الأب والأم. لكن ما لم يفهمه (فؤاد)، هو أن تتوتر العلاقة بينه هو وبين أمه، كأنها، بطريقة غير مباشرة، تؤنبه على إفشائه للسر الذي لم تخبره أصلًا أنه سر، وتلومه على كل ما حدث وكأن الذنب ذنبه.

ثالثًا، حاول الأب إصلاح ما أفسدته الأم، بكل ما يعرفه ويستطيعه من طرق. ففي اليوم التالي لما حدث، أتى بشيخ، حقيقي وليس من عينة الرجل البغيض إياه، ليقرأ القرآن على (فؤاد)، وفي كل غرف البيت، الأمر الذي ما لبث أن أصبح عادة أسبوعية. ثم صار القرآن لا ينقطع تقريبًا من البيت، فبالإضافة لتلاوة الشيخ الأسبوعية، بدأ الأب يقرؤه بنفسه يوميًا، ويجعل (فؤاد) يقرؤه معه. صار كذلك يكثر من زيارته لمقامات آل البيت وأولياء الله الصالحين، مصطحبًا (فؤاد) معه في كل مرة. وقد جعل كل هذا حالة الأخير تتحسن فعلاً بالتدريج، ليصبح أهدأ نفسًا وأقل فزعًا، ولا يبلى ملابسه تقريبًا.

أما ما لم يتغير على الإطلاق فهو...

أجندة (فؤاد)

((... أنني لم أتوقف قط عن رؤية قريني، الذي لم أكن أفهم وقتها ما هو بالضبط ولا ماذا يُسمى، لكنني - بشكل ما - بدأت أعتاد على وجوده بالتدريج. لم يكن الأمر سهلاً بالطبع، بل مخيفًا وغريبًا جدًا، لا سيما في بدايته. أنا نفسي الآن متعجب من قدرتي وأنا طفل على تحمله، بل والاحتفاظ به سرًا، حتى إنني لا زلت غير متأكد تمامًا - إلى اليوم - من السبب الحقيقي الذي جعلني أقنع كل من حولي أنني

لم أعد أرى أي شيء غريب.

هل كنت أخشى التسبب في اضطرابات أكبر بيني وبين أمي، أو بين أمي وأبي؟ أم أخاف الوصم بالمش مع احتمالية العودة لذلك الساحر؟ أو الجنون والإيداع في مستشفى الأمراض العقلية؟ أم كان الأمر قد بدأ يكتسب هالة ما، غامضة وبزاقة في نفس الوقت؟ كسر عظيم، أو قدرة فائقة تميزني؟ أم كل هذه الأسباب مجتمعة؟ لا أذكر، بل إنني حتى لا أدري. كنت طفلًا اتخذ قرارًا مصيريًا، قبل أن يدرك حتى معنى كلمة «مصري».

لم يكن لدي إلا أقل القليل من المعلومات في هذا الصدد، أعني القرناء والجن وما شابه، والذي جعل الأمر كله أصعب بكثير، فحتى تلك المعلومات القليلة، كان أكثرها ناقصًا أو مغلوطنًا أو مشوهًا. مثلاً: كنت أعرف كلمات مثل: جن، عفريت، شبح، لكن لا أملك تعريفات واضحة لها، لا أفهم بالضبط ما تعنيه، أو أفهمه بشكل مجرد، أو خاطئ. مثال آخر: كانت عندي معلومة تقول إن لكل شخص أخًا أو أختًا يعيشون تحت الأرض، بحيث يكون للذكر أخت وللأنثى أخ.

بالنسبة لقريني، ففي البدء، ولمدة طويلة جدًا، اكتفيت بمراقبته وتأمله في صمت، مقارنًا ما أراه بما أملكه من معلومات، محاولًا فهم طبيعته وسبب وجوده شبه الدائم معي. وأثناء ذلك، بدأت أكتشف عنه عدة أشياء، منها: أنه مسالم وغير مؤذ البتة، بل أقرب للبلادة واللامبالاة، أشبه ما يكون بظل المرء أو صورته في المرآة، فقط هي صورة لا أنف لها ولا عينان. وأنه لا يشترط أن أكون وحدي كي أراه، يكفي أن أفكر فيه - في أي وقت وأي مكان - كي يظهر لي، لي

وحدى فحسب، فلا يراه سوى.

حتى كان اليوم الذي انكسر فيه ذلك الصمت...

العباسية

1969

مساء ذلك اليوم، كان (فؤاد) في غرفته التي لم يعد ينام فيها، وإن ظلّ يقضي بداخلها أكثر يومه. أبوه كان في القهوة مع أصدقائه، وأمه كانت في الصالة تشاهد التلفزيون، وهو كان على مكتبه يحلّ واجباته المدرسية ويستذكر دروسه، وقد أغلق الباب على نفسه كي لا يزعجه صوت التلفزيون.

بعد قرابة ساعتين، بدأ يشعر بالملل والتعب، وبأن ظهره ومؤخرته تصلبًا من طول الجلوس على كرسي المكتب، فقرر إعطاء نفسه راحة قصيرة. انتقل إلى سريره واضطجع عليه، وامتدت يده لدرج الكومود المجاور له كي تسحب منه قصة أو مجلة يقرأ فيها، لكن يده توقفت فجأة وتراجعت، واعتدل هو جالسًا على سريره وقد بدا أنه غير رآيه، وقرر تمضية فترة راحته بطريقة أخرى.

فكّر في قرينه الذي ظهر على الفور بجواره كالعادة. وحين التفت متطلعًا له، وجدّه، كالعادة أيضًا، يجلس ساكنًا متصلبًا كالتمثال، ورأسه موجه للأمام، كأنه لا يراه أو لا يعبأ به. الغريب أن الخوف، ومنذ مدة ليست بالقصيرة، لم يعد هو أقوى شعور لدى (فؤاد) تجاهه، بل الفضول. وربما لأجل ذلك، لأجل تراجع الخوف على

حساب الفضول داخل (فؤاد)، وجد في نفسه من الجرأة، أخيرًا، ما يكفي كي يفتح فمه ويقول:

- «.. هو انت عفريت؟»

حبس (فؤاد) أنفاسه في انتظار الإجابة التي لم تأت أبدًا. لم يحصل على أي ردة فعل. لم يدر القرين حتى رأسه تجاهه، ليكرر سؤاله بحذر، وصيغة مختلفة:

- «إنت جن؟»

لا شيء، نفس اللا شيء الذي جعله يظن أنه لا يسمعه، ليغير سؤاله تمامًا هذه المرة، قائلاً:

- «إنت سامعني؟؟»

هنا فقط، أدار القرين رأسه نحوه.

كيف ينظر من ليس له عينان؟؟!!

كذا فكر (فؤاد) مرتجفًا وهو يحدق في موضع العينين الخالي في وجه القرين القريب جدًا منه. ورغم أنه كان قد توقف عن ذلك منذ مدة طويلة، إلا أنه شعر بتراخٍ وتنميل في نصفه السفلي، كاد يبلل معه ملابسه، لولا أن تماسك في اللحظة الأخيرة. صحيح أنه تعود على هيئة قريبه كما تعود على شكل راحة يده، إلا أنها المرة الأولى التي يبدي فيها القرين استجابة ما، المرة الأولى التي لا يتصرف فيها

كظل أو انعكاس في مرآة، بل ككائن له ردود أفعال.

هو يسمع إذًا ويستجيب، وبالتالي، كان سؤال (فؤاد) التالي هو:

- «بتعرف تتكلم؟»

عاد اللاشيء من جديد. لا صوت ولا حركة. غريب هذا، ينظر وليس له عينان، وله فم ولا يستطيع الكلام؟! أم تراه لا يفهم السؤال؟؟ تردّد (فؤاد) قليلاً قبل أن يكرر بصيغة مختلفة:

- «إنت بتتكلم؟؟»

- «بتكلم».

كانت كلمة واحدة، كلمة واحدة نطق بها القرين، جعلت (فؤاد) ينتفض في مكانه بعنف. لكن الكلمة نفسها لم تكن هي بالضبط ما أفزعه، بل الصوت الذي خرجت به، صوت غليظ محشرج، يشبه ما يصدره جهاز «بيك اب» فيه أسطوانة بها عطب يجعل الأصوات متضخمة مخشخشة.

كان الصوت مربعًا لدرجة لا تُصدّق، أكثر حتى من الوجه، التركيبة كلها كانت مفزعة، لكن (فؤاد) بدا في حال غريب جدًّا، كأنه حين تعدّى الحد الأقصى من الخوف، دون أن يفقد وعيه أو رباطة جأشه، لم يعد خائفًا تمامًا، متوتر نعم، متحفز كالزنبرك، لكن ليس خائفًا، ولا يرغب في الصراخ أو الفرار، تمامًا كما يحدث أحيانًا مع شدة الإرهاق، حين تتخطى ذروة النعاس دون أن تنام، فتفقد الرغبة في النوم، وتدخل في حالة صحو عصبي مبّنج، كأنك تناولت قدحًا كبيرًا

مركزًا من القهوة. ثم إن القرين، رغم كونه مرعبًا للغاية، لم يؤذه حتى هذه اللحظة على الإطلاق.

لذا، ألقى (فؤاد) سؤاله التالي:

- «إنت إيه بالضبط؟؟»

صفت.

- «إنت مين؟؟»

القليل من الصمت، ثم:

- «قرين».

أجندة (فؤاد)

((... كان ذلك المساء، بداية فصل جديد في علاقتي بالقرين. وإن جاز لنا أن نسمي الفصل السابق: فصل التأمل، فأظنه من الجائز أن نسمي هذا الفصل: فصل الحديث. أجل، لم يكن حوار ذلك المساء، بيني وبين قريني، هو الأخير بل الأول، إذ تبعته أحاديث أخرى كثيرة، يصعب ويطول سرد تفاصيلها كاملة، لكن يكفي أن أقول إنها تدرجت تصاعديًا - في الطول والعمق وسهولة التواصل - حتى بلغت حدًا لا بأس به. وفيما بعد، علمت أنني وصلت وأنا طفل، لمستوى تواصل مع قريني، لم يصله رجال كبار لهم باع طويل في عالم السحر والجان.

في تلك الفترة، اكتشفت عن قريني أشياء أخرى جديدة، مثلًا:

أنني حين أمره يَأتمر. بدأت بالطبع بأشياء بسيطة للغاية، كأن أطلب منه النهوض من جانبي والجلوس في مكان آخر، بشرط أن تكون صيغة كلامي بسيطة محددة، الأمر الذي يكاد يكون قاعدة عامة يلزم تطبيقها في أي حوار بيني وبينه. لا يفهمني ولا يجيب أسئلتني ولا يطيع أوامري، إلا حين تكون كلماتي دقيقة جلية. وفي المقابل، كان كلامه هو غريبًا مقتضبًا، يصعب فهمه أحيانًا.

بالنسبة لحياتنا الأسرية في تلك الآونة، فبحلول عام 1970، أي بعد مرور عامين على تلك الليلة المشؤومة، بدأت الأمور تعود لمجاريها في البيت. تحسنت العلاقات، وعاد أبي لغرفته وأمي، بينما عدت أنا لغرفتي. وبعد عدة أشهر، حملت أمي من جديد. وسارت الحياة على نمط هادئ عادي على الصعيد الأسري، بينما راحت حياتي السرية العجيبة مع قريني، تتطور باطراد.

تطوّر أسلوب حوارنا وتعاملنا مع بعضنا البعض. صار أكثر فهمًا لكلامي، بالتالي أكثر قدرة على تنفيذ أوامري، والتي كنت أزيدها صعوبة وتعقيدًا بالتدريج، حتى صار بإمكانه - مثلًا - أن ينقل لي وأنا في غرفتي، تفاصيل حوار هامس في إحدى شقق الجيران. لست فخورًا الآن بالطبع بمثل هذه الأفعال الصبيانية، لكنها الحقيقة مع الأسف، والحقيقة كذلك أنني توقفت عن كل هذا العبث فيما بعد، حين كبرت ونضجت.

أما كلامه هو، فقد صار أقل اقتضابًا وغرابة من ذي قبل. تكوّن له ما يشبه الشخصية، ولم تعد تصرفاته محض ردود أفعال. لم يُصر بشريًا خالصًا بالطبع، بل ظلّ محتفظًا بالكثير من صمته وتصلبه،

ومحدوديته في التفكير، وآليته في الحركة والحديث. كان أقرب لمزيج من صديق صموت وخادم أمين. وربما لأنني كنت طفلاً وحيداً، اعتبرته أخي، توأمي الذي وُلد بلا أنف ولا عيينين، وبتأخر عقلي بسيط.

في العام التالي، عام 1971، وُلد أخي (حلمي)، الذي شعرت أن والديّ يخشيان التعلق به، وكأنهما متيقنان من فقدته. لكن عامًا كاملاً مرّ، حملت أمي خلاله مجدداً، و(حلمي) لا يزال بخير، لم تظهر عليه حتى أعراض مرض الكلى اللعين المتوارث في عائلتنا. أما أنا، فقد كان عام 1972 بالنسبة لي، هو بداية فصل جديد في علاقتي بالقرين، فصل البحث، أو فصل الكتب.

في تلك الفترة، ابتعت واقتضت واستعرت كميات هائلة من الكتب. لم تكن القراءة نفسها بالأمر الجديد عليّ، بل كنت أهواها منذ الصغر، لكنني جنحت وقتها نحو أنواع معينة من الكتب، كل ما يمكن أن يزيدني علماً عن القرين، كل ما له علاقة بالسحر والجان وما شابه. ولم أكن أكتفي بالمصادر السهلة كالمكتبات القريبة من البيت، بل كنت أرتحل إلى ما هو أبعد، وأقصد ما هو أصعب. مررت بعشرات الأكشاك والفُرَش وبائعِي الكتب القديمة، أما سور الأذربكية، فكانت لي فيه صولات وجولات.

كانت لدي رغبة محمومة في قراءة كل ما كُتِبَ في ذلك المجال، وشغف يجعلني أتصور أنني أستطيع، وهيئة تجعلني أبدو أكبر بكثير من سني، بالتالي تسهّل عليّ الأمر كله، وتجنبني كل الشك والارتياب،

وربما رفض البيع أصلاً، الذي كان سيقابلني في كل مكان. تخيل
معي غلام في الثانية عشرة يريد ابتياع كتب عن السحر، من كان
ليبيعهها له؟!

كل هذا بالطبع - من أوله لآخره - دون علم والدي، ابتداء من رحلة
البحث عن الكتب، وانتهاءً بقراءتها. كنت أقول لهما - مثلاً - إنني
ذاهب لمجموعة تقوية مدرسية، أذهب لها بالفعل كي أحبك الكذبة،
لكني أغير طريقي قليلاً في رحلة الذهاب أو الإياب، وأشتري كتابين
أو ثلاثة أخبئها في ثيابي، وحين أعود إلى البيت، أخفيها في مكان
سري في غرفتي، لم أكن أقرب حتى منه، كي أخرج كتاباً وأبدأ في
قراءته، إلا حين أتأكد أن كل من في البيت راح في سبات عميق.

أظنك يا (عمر) كنت تفعل شيئاً مماثلاً. واضح أنك ورثت الأمر
عني دون أن تدري. وأظنني قديماً لك باعتراف واعتذار. لقد كنت
أعرف موضع مخبأ صندوقك الأثير أسفل مرتبة سريرك، في
التجويف المخفي بين ألواح الفلّة وأرض الغرفة، ولم أكن أبداً
لأحرمك منه كما كنت تتصور، لكنني أرجو أن تسامحني وتعذرني
على نظري بداخله، فها أنت ذا تقرأ بنفسك ما كنت أخفيه أنا عن
والدي، ولك أن تتصور مدى القلق الذي اعتراني حين وجدتك تخفي
أشياء عني، ولك كذلك أن تتصور مدى فخري وسعادتي بك، حين لم
أجد في صندوقك إلا ما ينبئ عن كل خير)).

العباسية

3 أغسطس

2016

وجد (عمر) نفسه يتوقف عن القراءة عند ذلك الجزء رغماً عنه، وقد امتلأت عيناه بالدموع حتى لم يعد يرى تقريبًا. ما سيعجل اليوم برحيله هو التأثير لا الخوف، وإن شعر لهما بنفس الوطأة تقريبًا.

شبرا

3 أغسطس

2016

حين عاد (عمر) إلى البيت، فتح بوابته بهدوء، داعيًا الله ألا يقابل أحدًا في طريقه إلى شقتهم وهو على تلك الحال. كانت عيناه لا تزالان محمرتان من أثر الدموع، والتأثر باد على وجهه بشكل عام. لذا، أوصد البوابة خلفه بسرعة وانطلق كالسهم نحو السلم خافضًا رأسه. وقبل أن تطأ قدمه أولى الدرجات، توقف ثم تراجع حتى وقف أمام شقة جده (صابر). لم يكن قد رأى حالته (هالة) منذ عزاء والده تقريبًا، وقد شعر باشتياق لها جعله يقرر المرور عليها أولًا، قبل الصعود لشقتهم.

مدّ يده نحو مقبض الباب وأداره، داعيًا الله في سره ثانية ألا يكون موصدًا، لأن طريقه أو دق الجرس قد ينبه من في الشقة المقابلة، شقة خالته (زينب)، وهو ليس في حال تسمح بتحمل أي دراما الآن، وسيلكم أول من يقول له «مالك؟». تنفس الصعداء حين وجد الباب مفتوحًا، ليدخل بخفة مغلقًا إياه خلفه بلا صوت. لكم يحب هذه

الشقة التي طالما فتحت له ذراعيها لتتلقفه وهو في أمس الاحتياج لها، منذ كان طفلاً وحتى الآن.

بحث عن جده أولاً بعينه، وقبل أن يفتح فمه ليناديه...
- «نايم يا (عمر)».

أجفل ملتفتاً لمصدر العبارة، قبل أن ترسم على شفثيه ابتسامة صغيرة متوترة، وهو يقول:

- «طنط (هالة).. آآ ازيك، انتي.. انتي عرفتني إزاي؟!»
- «عرفت إيه؟»

- «إني كنت بدور على جدو».
- «استنتجت عادي، مالك مخضوض كده ليه؟»
سحب نفساً عميقاً لصدره، زفره ببطء قبل أن يقول:
- «أبدًا، بقيت باتخض كثير شوية اليومين دول».
نظرت في عينيه وصمتت قليلاً، قبل أن تقول:

- «ليه؟ إيه اللي بيخضك؟»

نظر في عينيها بدوره، قبل أن يبعدهما وهو يهز رأسه بلا معنى،
فعدت تقول:

- «تشرب نسكافيه؟»

- «أشرب».



سارت للمطبخ وتبعها، وحضرا معاً قدحين من النسكافيه حملاهما إلى غرفتها، حيث جلس هو على أحد السريرين فيها وهو يرتشف من قدحه ببطء، في حين أغلقت هي الباب وجلست في مواجهته على السرير الآخر، واضعة قدحها على الكومود المجاور لها.

- «إيه اللي بيخضك بقى؟»

قالتها معبته عينيها عليه، ليبادلها النظر هنيهة، ثم يخفض عينيه قائلاً:

- «مش عارف، أي حاجة وكل حاجة، أعصابي بقت متوترة أوي من...».



بتر عبارته فأكملتها هي:
- «من ساعة ما باباك مات؟»

لم يجب، لكنه رفع عينيه إليها وثبتها هو تلك المرة عليها في صمت طال قليلاً، قبل أن تقطعه هي، قائلة:

- «و(نازك) عاملة إيه؟»

ارتشف قليلاً من النسكافيه، والتوى فمه فيما يشبه ابتسامة مريرة وهو يقول:

- «سايبها الصبح بتعيط».

ارتسم الحزن على وجهها، وشردت ببصرها وهي تقول:

- «أكيد طبعا، الله يكون في عونها، أصعب حاجة على الست إنها تفقد الراجل الـ...».

تحولت ابتسامته لضحكة ساخرة قصيرة، وهو يقاطعها قائلاً:

- «لا ما هي مش بتعيط على بابا، بتعيط على نفسها».

بدا على وجهها تساؤل صامت حائر، ليقول موضحاً:

- «مش زعلانة عشان مات، زعلانة عشان اتجوزته، وزعلانة من

جدو عشان هو اللي خلأها تتجوزه، وهي أصلاً كانت...».

قاطعته هي تلك المرة، مستنكرة:

- «هو مين ده اللي خلأها تتجوزه؟!»

- «جدو».

- «جدو مين؟! جدك ما أجبرش حد على حاجة. أبوك وأمك

اتجوزوا عن حب».

صمت قليلاً وكأنما ألجمته الصدمة، ليضع قدحه على الكومود

المجاور له، وهو يقول مبهوئاً:

- «حب؟! بابا وماما كانوا بيحبوا بعض؟!»

- «كانوا بيموتوا في بعض».

- «أبويا وأمي أنا؟! اللي كانوا بيتخانقوا أكثر ما بيتنفسوا؟!»

- «اللي بيحبوا بعض بيتخانقوا عادي. إنت و(نرمين)

ما بتخانقوش؟!»

- «بتخانق طبعا، لكن..».

صمت ثانية لفترة أطول هذه المرة، وبدأت الحيرة على وجهه وهو يقول:

- «طب هي ليه قالت كده؟؟!»

صمتت بدورها قليلاً قبل أن تقول:

- «بتحاول تقنع نفسها إنها ماكانتش بتحبه عشان ماتتجننش».

انتبه في تلك اللحظة، مع الرجفة التي بدت في صوتها، إلى الدموع التي ملأت عينيها، وسالت على وجهها في صمت.

مدينة نصر

2001

- «اختفى إزاي يعني يا (هالة)؟!»

أقلت (هبة) سؤالها وهما تجلسان في ذلك المطعم في (مدينة نصر)، فمسحت (هالة) وجهها بالمنديل محاولةً إزالة آثار البكاء عنه، وسحبت نفساً متهدجاً قصيراً إلى صدرها، ثم تلفتت حولها قليلاً، خافضة صوتها وهي تقول:

- «(هبة)، اللي هحكيه لك ده، ماحكيتهوش لمخلوق قبل كده، ولا تصورت أبداً إني ممكن أحكيه، بس أنا حاسة إني مخنوقة، هتجنن، هنفجر ومش عارفة أعمل إيه.. فأرجوكي توعديني، وتحلفي لي بأغلى ما عندك، إنك عمرك ما هتقوليه لحد».

- «أكيد يا (هالة)».

- «أحلفي».

- «ورحمة بابا ما هقول لحد».

جاء الجرسون في تلك اللحظة بطلبتهما، فصمتت (هالة) ريثما ينتهي من رصها على المنضدة، وما إن ابتعد، حتى بدأت تحكي.

- «لما انفصلنا أنا و(حسام)، بعد المشاكل اللي حصلت بينه وبين بابا، انفصلنا رسمي بس، يعني قُدام العيلة والناس، لكن ماسيبناش بعض بجد، وفضلنا على اتصال».

صمتت (هالة) قليلاً متأملة صديقتها، وكأنها تراقب تأثير الكلام عليها، فلم تجد على وجهها إلا مزيجا من التعاطف والاهتمام، لتكمل قائلة:

- «كنا بنتكلم في الموبايل وأحياناً بنتقابل، من ورا أهلي طبقاً. اشتري خط جديد مخصوص عشان نمرته القديمة المتسجلة في موبايلي أهلي عارفينها. كنت بطلع شقتنا اللي في الدور الأول، بحجة إني باسترجع ذكرياتنا فيها، عشان أكلمه من غير ما حد يسمعني، وساعات كنت بطلع السطح، بحجة إني عايزة أشم هوا، عشان الشبكة بتبقى أقوى. ولما كان يعوز هو يتصل، كان بيرن لي الأول، ويستناني أرن له عشان يتأكد إني أقدر أتكلم، بعديها بنص ساعة يتصل، عشان يديني فرصة أطلع الشقة أو السطح. ماكناش بنطوّل في المكالمة عشان ماحدث يشك في حاجة، ولا كنا بنتكلم كثير أصلاً، كان ممكن تعدي أيام من غير ما نتكلم، وساعات أسبوع

بحاله. وماتقابلناش إلا مرات قليلة جدًا، وفي أماكن بعيدة طبقًا عن بيتنا وبيته والمحل بتاعه، وبرضو ماكانش بنطوّل، وكانت عينينا بتبقى في وسط راسنا».

ظلت (هبة) تنصت في صمت تام، دون مقاطعة أو تعليق، تهز رأسها قليلًا كل آن وآخر فحسب، و(هالة) تكمل:

- «فضلنا على الحال ده ست شهور تقريبا. حاولت كثير أقنعه إنه يصلح الأمور مع بابا عشان الدنيا تمشي ونرجع تاني، لكن هو كان رافض تمامًا، وكان دايماً يقول لي: أنا عايز أتجوزك انتي بس مش انتي وأهلك، ولو رجعنا هارجع بشروطي أنا مش بشروطهم هم، ولا يمكن أبدًا، بعد اللي حصل، هاوافق أعيش معاهم في نفس البيت».

توقفت قليلًا لتأخذ رشفة من مشروبها، وتسحب نفسًا عميقًا لصدرها، ثم تابعت:

- «وبعد شد وجذب كثير، اتفقنا نتجوز تاني، ونحطهم قدام الأمر الواقع، وياخدني عشان نعيش في شقة هو اللي يجيبها، بعيد عنهم. وفعلاً بدأ في الإجراءات، وجاب شقة جديدة وبدأ يجهزها».

ثم صمتت قليلًا، وبدأت الدموع تظهر في عينيها وهي تقول:

- «أنا كنت خايفة جدًا بس مبسوفة أوي، ماكانش فارق معايا إلا إني أكون معاه. هو كمان كان باين عليه إنه مبسوط، وكان كل ما يجيب حاجة أو يوضب حاجة في الشقة، يحكي لي عليها، ويقول لي إنه بيعملها على ذوقي وبالألوان اللي بحبها.. وفجأة...».

بدأت الدموع تخنق صوتها وتسيل على وجهها، وهي تكمل:

- «.. فجأة مالقيتوش! اختفى! أكلمه، جرس وماحدث بيرد. أستناه هو يتصل، مايتصلش. فات يوم واتنين وتلاتة. حاولت أقنع نفسي إنه عادي، وإنه ساعات بيبقى مشغول، وإن إحنا ساعات بنقعد أكثر من كده ماينتكلمش. استنيت تاني، وحاولت أكلمه تاني. جربت رقم موبايله القديم وتليفون البيت، جرس وماحدث بيرد برضو. جربت حتى أكلمه من كابينة (ميناتل) عشان رقمي مايظهرش عنده، لأنني شكيت إنه ممكن يكون مش عايز يرد عليا، نفس النتيجة. وبعدين بقيت أتصل بموبايلاته تديني مغلق. بقيت هتجنن، بألف حوالين نفسي، مش عارفة أعمل إيه ولا أشتكي لمين ولا أطلب مساعدة مين».

توقفت قليلاً لتمسح عينيها وأنفها بالمنديل الذي اهترأ من ككرة الدموع. أخرجت (هبة) كيس المناديل من حقيبتها ووضعتة أمامها، وقربت كوب الماء الموضوع على المنضدة منها وهي تومئ لها أن تشرب، لكنها هزت رأسها وتابعت:

- «لما يئست خالص، قررت أروح له البيت واللي يحصل يحصل. زحت ورنيت الجرس كتير وخبطت جامد، مافيش ردا سألت البواب عليه، قال لي إنه بقاله مدة مايجيش. هو كان قايل لي إنه بينقل حاجته للشقة الجديدة بالتدريج، قلت يمكن نقل وقعد فيها خلاص، بس أنا ماعرفش عنوانها ولا تليفونها، أعرف بس إنها في (المعادي)، ماعرفش حتى اسم الشارع».

توقفت ثانية لتسحب منديلاً مسحت به وجهها، ثم عادت تقول:

- «آخر أمل عندي كان المحل بتاعه هنا في (مدينة نصر). زحت

لاقيته مقفول هو كمان. قعدت على الحال ده شهرين تقريبًا، بذور في دوامة، كل يوم أحاول مع تليفوناته، وكل أسبوع أروح أخبط على الشقة وأبص على المحل، سألت عنه حتى في المحلات اللي جنبه، ما حدش يعرف حاجة، مش لاقية له أي أثر..».

ثم ابتلعت ريقها ونظرت في عين (هبة)، مكملة:

- «وبعدين بدأت حاجات غريبة تحصل..».

شبرا

3 أغسطس

2016

جلس (عمر) على مقعد في شرفة غرفته مسندًا ذقنه على ذراعيه المعقودين فوق السور. يبدو لمن يراه هادئًا شاردًا، لكنه في الحقيقة يفكر، في كل ما يحدث، وفي الأجندة التي ظن أنها ستفسره له، وإذ بها تزيده حيرة وتخبّطًا، وتضيف لما بداخله من علامات استفهام، علامات أخرى جديدة، بل وتنتثر على سطحها بضع علامات تعجب كذلك.

الصوت الذي يهمس في أذنه في الظلام، التابلت الذي تظهر عليه لوحات غريبة من تلقاء نفسها، والده الميت الذي رآه فوق السطح، صوت الدش من خلف باب الحمام الموصد على لا أحد. كل ما سبق كوم، وما يحدث في شقة (العباسية) كوم آخر، الخيال الذي رآه خلف شُراعة الباب، والأجندة التي ظهرت فجأة. الأجندة وما أدراك

ما الأجندة، بالقصيدة التي قُطعت ورقتها وكتبت نفسها بنفسها بداخلها، بكل ما كتبه والده فيها عن قرينه الذي يستطيع رؤيته والتحدث معه .. و... كيف يمكن ترتيب أو تنسيق كل هذا بحيث يبدو منطقيًا مترابطًا؟ كيف؟!!

المشكلة أنه، كلما حاول ربط كل هذا ببعضه البعض، وجد عقله يعود لنفس الاحتمالين المخيفين، أن كل هذا سببه الجنون أو العفاريت. ليكن إذن، سيحاول ترتيب عقله والتفكير في كل احتمال منهما على حدة، وليرى إلام يوصله ذلك.

الاحتمال الأول أنه مجنون؟ حسنا، كل شيء بدأ بعد وفاة أبيه، فلو كان مجنونًا حقًا، لماذا لم يظهر جنونه هذا من قبل؟ لماذا انتظرت أعراض الجنون حتى يموت أبوه كي تعلن عن نفسها؟ أهى الصدمة؟ هل وضعه موت أبيه، دون أن يدري، تحت ضغط نفسي شديد تسبب في إصابته بمرض عقلي ما؟ ربما. وربما كان مريضًا منذ البداية، وصدمة الموت كانت فقط العامل المحفز الذي استثار المرض الكامن في عقله وجعله يعلن عن نفسه. لقد قرأ عن أمر كهذا من قبل، وهو تقريبًا نفس ما حدث مع خالته (هالة)، التي كانت الصدمة المحفزة في حالتها هي انفصالها عن زوجها الذي أحبته بجنون.

أما الاحتمال الثاني، فبناءً على نفس النقطة أيضًا، أن كل شيء بدأ بعد وفاة أبيه، فالعفاريت، على الأرجح، ليست إلا عفريثًا واحدًا هو عفريته، أو روحه أو شبحه، أو أيًا ما كان اسمه، فهو لا يعرف حقًا التعبير الدقيق أو الصحيح. لكن هذا الاحتمال مشاكلة كثيرة. أولًا،

هو أصعب في التصديق لأنه ما من دليل واضح أو ملموس عليه، ولا حتى شهود. كل شيء تقريبًا حدث وهو وحده. حتى الشاهدان الوحيدان كانا أقرب لشاهدي نفي لا إثبات. أمه قالت إنها لم تَرَ أو تسمع ما يريب في واقعة الحمام، وزوج خالته قال إنهما كانا يتخيلان واقعة السطح.

ثانيًا، هو أصعب في الحل لأنه، إن كان هذ شبح أبيه حقًا، فهو لا يفهم ما يريده ولا يعرف كيف يتصرف معه. فكرة المرض، رغم مرارتها، لها حل واضح هو العلاج، واضح رغم أنه متعب وربما يطول كما حدث مع خالته (هالة) التي ما تزال تـ... آه، نعم، خالته، يبدو أن الاضطرابات النفسية والعقلية وراثية في العائلة، هذا يرجح الاحتمال الأول و...

هنا اعتدل (عمر) فجأة على مقعده متسع العينين.

مدينة نصر

2001

- «حاجات إيه؟»

ألقت (هبة) السؤال باهتمام على (هالة) التي ارتشفت القليل من الماء، وارتجفت قليلًا وهي تقول بخفوت:

- «بقيت بشوفه».

- «مين؟ (حسام)؟؟»

أومات (هالة) برأسها إيجابًا، فعادت تسألها بانفعال:

- «فين؟؟ لقيتيه يعني؟؟»

- «لأ. كان بيظهر في أماكن غريبة، بطريقة غريبة وفي ظروف غريبة، حتى شكله وهيئته وصوته، بتبقى فيهم حاجة غلط، حاجة مخيفة أو مش راكبة صح، كأن واحد منتحل شخصيته. أول مرة كانت في شقتنا في الدور الأول، طلعت لقيته هناك، واقف جوة في أوضة النوم! مابقيتش فاهمة دخل امتى وليه وإزاي، ولما قربت منه خفت أوي، حسيت إني عايضة أطلع أجري، وفجأة قال لي: ليه؟»

- «ليه؟؟!»

- «آه».

- «يعني إيه؟!!»

- «ما أعرفش، ما أنا مافهمتش، وبعدين فجأة صرخ فيا بصوت مخيف جدًا وهو بيقول (ليه) برضو، حسيت إن الدنيا بتضلم وإنه بيغمى عليا لمدة.. 3 ثواني تقريبًا، فتحت عيني بعدها لقيت نفسي على سريرى، في أوضتي في الدور الأرضي».

بدت (هبة) وكأنها ستهم بقول شيء ما، لكن (هالة) أسرعَت تقول بانفعال:

- «بس أنا ماكنتش باحلم، أنا متأكدة، وعندي دليل على كده كمان».

هزت (هبة) رأسها في تساؤل صامت، فقالت (هالة):

- «لاقيت نفسي لابسة نفس الفستان اللي كنت لابساه وأنا فوق، وإيدي سودا مكان ما لمست الحاجات المتربة اللي في الشقة».

لم تعلق (هبة)، ولم يبذ على وجهها تعبير محدد، و(هالة) تكمل:

- «وبعدين الموضوع بقى بيتكرر أكثر من مرة، وبأكثر من طريقة، يعني.. ساعات كنت أبص مثلًا من شباك أوضتي، ألاقيه واقف في الشارع وباصص لي وساكت، ولما أنه له أو أشاور له، مايديش أي رد فعل، أو يبزق بعينه بس، وبعدين يتدور ويمشي، ويبعد لغاية ما يختفي، أو يختفي فجأة فُدام عيني! والله العظيم يا (هبة)، والله العظيم».

شبرا

3 أغسطس

2016

اعتدل (عمر) على مقعده في شرفة غرفته متسع العينين. لقد فهم أخيرًا. المرض العقلي وراثي في العائلة فعلاً.. عائلة أبيه لا أمه. ربما الاثنتين، لكن الاحتمال الأقوى والأقرب، أنه ورث جل صفات أبيه الجينية، وليس أن جدًا بعيدًا مجهولًا في عائلة أمه، أورثه هو وخالته بعض جيناته. وما كتبه والده عن رؤيته لقريته وحديثه معه، يشير على الأرجح، بل بشدة، إلى احتمالية مرض نفسي أو عقلي. والده، باختصار، كان يرى أشياء غير حقيقية، ويكلم شخصًا لا وجود له.

وإن كان ضعف الأدلة على كل ما يقابله هو نفسه من أشياء غريبة، يجعله يشك في قواه العقلية، رغم أنه رأى تلك الأشياء بعينه وسمعها بأذنه، فالأدلة على ما كتبه والده في الأجندة، تكاد تكون معدومة، بالتالي تكون نسبة الشك هنا أعلى بكثير، خاصة وأن والده قد تعرض، وهو لا يزال طفلاً صغيراً، لصدمات عدة لا صدمة واحدة، ولضغط نفسي رهيب، قادرة على هز عقول أقوى الرجال.

مدينة نصر

2001

- «مش مصدقاني، مش كده؟»

قالتها (هالة) بيأس حزين، فأسرعت (هبة) تقول:

- «لا يا (هالة) والله العظيم مصدقاكي، بس..».

صمتت وكأنها تبحث عن تكملة لجملتها، فهزت (هالة) رأسها بإحباط، لكن (هبة) عادت تقول بحنان:

- «ممكن طيب تسمعي وجهة نظري؟ مش باقول لك إن اللي هاقوله لازم يكون صح، بس.. جربي كده تشوفي الأمور من منظور ثاني، مش هتخسري حاجة».

لم تعلق (هالة) ولم تعترض، نظرت لها في صمت اعتبرته موافقة على الاستماع، لتقول ببطء وحذر:

- «بالنسبة للـ.. مرة اللي شفتيه فيها في الشقة، مش يمكن.. نمتي

وانتي لابسة الفستان، فعقلك دخله في الحلم؟ والأسود اللي على إيدك يمكن ماكانش تراب، كان أثر قلم فحم كنتي بترسمي بيه قبل ما تنام..»

- «ماكنتش نايمة، وماكنتش بارسم، وأنا في الشقة لمست مراية متربة فعلاً بإيدي في الصالة، قبل ما أدخل وأشوفه في الأوضة أصلاً، أنا فاكرة كويس».

- «فاكرة طيب كنتي بتعملي إيه قبل ما تطلعي الشقة؟»

فتحت فمها لتجيب لكنها لم تقل شيئاً، فشردت وكأنها تحاول التذكر، وزاغ بصرها قليلاً، فعادت (هبة) تقول:

- «سيبك من الجزء ده. هو فين أهله؟ قرابيه؟ صحابه؟ أنا عارفة إنه كان عايش لوحده وإن باباه ومامته متوفيين، وتقريباً مالوش أخوات حسب مانا فاكرة، لكن، مافيش حد من عيلته أو معارفه كنتي تقدري تتواصلي معاه وتسأليه عليه؟»

- «مالوش حد في (مصر) خالص، في (القاهرة) يعني. له قراب من بعيد في (المنيا)، صلته بيهم مقطوعة تقريباً، وعم مهاجر (أستراليا) مايعرفش عنه حاجة. وأنا طبقاً ماعيش نمر صحابه، ولا أعرف حتى إزاي أوصل لحد فيهم».

- «طب لما اتفقتم على الجواز، ليه استنيتم لحد ما يجيب شقة جديدة ويفرشها ويوضبها؟ ليه ماخذكيش تعيشي معاه في الشقة اللي كان قاعد فيها، اللي كنتي بتروحي تخطي عليها وماتلاقيش حد؟»

- «أنا نفسي اقترحت عليه كده، مارضيش عشان شقته كانت قديمة وصغيرة جدًا ومحتاجة توضيب وتصليحات كتير، هو نفسه ماكانش مستحمل يقعد فيها، وكان ناوي يسيبها كده كده».

قالت (هالة) عبارتها وصمتت قليلاً، مثبتة عينيها عليها، قبل أن تضيف بجمود:

- «عايزة تقولي إيه يا (هبة)؟»

- «مش عايزة أقول حاجة والله يا (هالة)، أنا بفكر معاكي بصوت عالي، أصل الحكاية كلها غريبة أوي».

- «عايزة تقولي إيه؟»

برفق وحذر أجابت:

- «عايزة أسألك.. انتي ماشكيتيش إنه اختفى كده بالقصد؟ إنه كان قاصد يعني يخرج من حياتك ويخليكي ماتعرفيش توصلي له؟»
صمتت قليلاً، ثم عادت الدموع تتجمع في عينيها وهي تقول:
- «شكيت».

لكنها عادت تضيف:

- «بس تقدر تقولي لي إيه تفسيرك لكل الحاجات الغريبة اللي حصلت؟ إزاي كان بيظهر فجأة ويختفي فجأة قصاد عيني؟!»

- «إيه تفسيرك انتي؟»

قالتها (هبة)، ثم بدأت تربت على ذراعها حين رأتها تختنق بالبكاء

ولا تتمكن من الرد في البداية، ثم تقول أخيرًا من بين دموعها:

- «أنا حاسة إنه... إن جرى له حاجة، وإن اللي كان.. بيظهر لي ده.. كانت روحه».

نظرت لها (هبة) بحسرة وإشفاق بالغ وهي تقول:

- «مش ممكن يا (هالة)، لو جرى له حاجة فعلاً كان زمانك عرف...».

- «هعرف إزاي؟؟ هو مش شخصية عامة أو مشهورة عشان موته يعمل ضجة، ومقطوع من شجرة، وحتى اللي يعرفوه أنا ماعرفش أوصل لهم».

قالتها بانفعال، ثم خفضت صوتها وأضافت:

- «ثم إني حاسة إن الموضوع ماكانش عادي، حاسة إنه بفعل فاعل، فيه حد آذاه وقصد إن الموضوع يبقى مخفي ومتداري».

- «حد زي مين؟؟ ومنين جالك الإحساس ده أصلاً؟!»

- «شكله يا (هبة)، شكله كان غريب أوي، كان غضبان، وغضبه كان مخيف.. تبريقة عينيه، وصريخه وهو بيقول (ليه)، كل ده بياكد إن...».

- «ده عقلك الباطن يا (هالة)».

قالتها مقاطعة، فنظرت لها (هالة) بوجوم جعلها تتردد قليلاً، ثم تقول بحذر:

- «ممكن أقول حاجة بس أرجو كي ماتتضايقيش؟»

- ظلت (هالة) تنظر لها بعثات، فقالت بلهجة لينة مترفقة:
- «إيه رأيك تروحي لدكتور نفسي، أو دكتورة عشان تكوني مرتاحة أكثر في الك...؟»
- «بروح لدكتورة بقالي سنة».
- «طب كويس. وحكيتي لها اللي حكيتيه لي؟»
- «لأ طبعا. أنا قلت لك إني ماقلتش لحد غيرك، والدكتورة دي بالذات لا يمكن أقول لها».
- «ليه؟ دي أكثر واحدة ممكن ت...».
- «لأنها هتحكي لهم كل حاجة».
- «هقا مين؟؟»
- «أهلي».
- «لا طبعا مش ممكن، الدكاترة ماينفعش يفشوا أسرار مرض...».
- «بتحكي لهم يا (هبة)، أنا متأكدة».
- «منين بس جالك التأكيد ده؟!»
- أجابت بشرود:
- «لأنها من طرفهم، من طرف (زينب) بالتحديد، وأنا لا يمكن أثق في أي حاجة تيجي من ناحية (زينب)».
- «ليه يا (هالة) كده؟! دي أختك».

قالتها (هبة) بأسى وهي تكاد تبكي، فتلفتت (هالة) حولها، ثم خفضت صوتها الذي اضطرب وهي تقول:

- «يا (هبة) انتي مش فاهمة، أنا أصلاً.. شاكة إن (زينب) لها يد في اختفاء (حسام)، حاسة إنهم آذوه».

دمعت عين (هبة) بالفعل وكادت تجهش بالبكاء، لكنها تماكنت نفسها وقالت:

- «هما مين؟»

- «(زينب) و(يوسف) جوزها، هو يعرف ناس يقدرُوا ي...».

- «يا حبيبتي وهما هيعملوا كده ليه طيب؟!»

صمتت قليلاً كأنها تفكر، أو تبحث عن إجابة، ثم امتزجت الحيرة بالألم على وجهها وهي تقول:

- «ما أعرفش».

ثم عادت لشرودها، وعادت الدموع تطفر من عينيها، وهي تقول:

- «عمرها ما حبطني يا (هبة)، طول عمرها بتمثل إنها بتحبني وخايفة على مصلحتي، بس أنا عارفة ومتأكدة إنها من جواها بتكرهني وبتكره تشوفني مبسوفة، مع إني عمري ما كرهتها، عمري ما أذيتها، لكن دلوقت».

ثم انفعلت وكزت على أسنانها بعصبية وهي تكمل:

- «.. دلوقت أنا باكرهها ونفسي تموت، نفسي تدوق من نفس الكاس اللي سقتني منه، وتشوف جوزها وعيالها بيموتوا قدامها

موتة وسـ».

- «كفاية يا (هالة)، أختك مالهاش ذنب».

قالتها (هبة) مقاطعة كلامها فجأة وهي تضغط على يدها بحزم،
وسالت دمعة على خدها وهي تضيف:

- «أنا ماكنتش عايضة أقول لك في الأول عشان كنت عايذاكي
تتكلمي وتففضضي، بس انتي لازم تعرفي الحقيقة. أرجوكي
ماتكرهيش أهلك عشان ماحدث هيجبك قدهم، وأرجوكي
ماتضيعيش حياتك وشبابك هدر.. (حسام) عايش ماماتش يا
(هالة).. (حسام) اتجوز وسافر (السعودية) من سنة».

شبرا

4 أغسطس

2016

هل يستمر في رحلاته لشقة (العباسية) إذا؟ أم يبدأ رحلة جديدة في طريق العلاج النفسي؟ كانت تلك أول فكرة تطرق ذهن (عمر) وهو مستلق على فراشه فور استيقاظه من النوم.

- «كل الطرق تؤدي إلى (العباسية)».

قالها محدثًا نفسه ومبتسمًا بجانب فمه بسخرية، وهو ينهض من فراشه وقد حسم أمره، وقرّر القيام بالأمرين معًا.

العباسية

4 أغسطس

2016

لماذا إذا لا يزال يشعر بالخوف من هذه الشقة؟ كذا فكر (عمر) وهو يجلس في مقعده المعتاد ويتناول الأجندة، وعيناه تدوران حوله في كل مكان. ألم يوصله تفكيره ليلة أمس إلى أن كل ما حدث ويحدث، ويمكن أن يحدث، سببه مرض عقلي وراثي، وليس أشباحا أو أرواحا أو أيًا ما كان اسمها؟! لماذا هو متوتر إذن، ولديه ذلك الشعور البغيض

الذي صار يداهم كثيرًا مؤخرًا، والذي تحدث عنه والده في الأجندة
مرازا، أنه ليس وحده؟؟! يبدو أن المرض العقلي مفزع كالعفاريت،
وربما أشد إفزاعًا.

زفر ونظر حوله مرة أخيرة، ثم فتح الأجندة وبدأ يفرّ في أوراقها
حتى وصل إلى... إلى... ورقة منتزعة منها، عليها كلام كُتب بقلم
رصاص، بخط غريب تصعب قراءته، حروفه مهزوزة مشوهة، كأنما
كتبها يد متعجلة أو مرتجفة أو لا تتقن الكتابة.

امتعق وجه (عمر) وثقلت أنفاسه وهو ينظر للورقة. لم تكن ورقة
القصيدة العامية التي يعرف بوجودها، بل أخرى جديدة. لقد تكرر
الأمر ثانية. رفع عينيه سريعًا ودار بهما حوله، ثم عاد يخفضهما
للورقة. علام يبحث بالضبط؟ ألا يقول استنتاجه بالأمس أنه من
كتب هذا الكلام؟ ليكن، ليقرؤه إذا. ابتلع ريقه، وبدأ يجري بعينه
على السطور:

خبروني يا رفاقي أين أنتم ذاهبين
خبروني مالكم متخشبين وصامتين
أصممت عن أصواتكم
أم هل صمتنا أجمعين
ما بالي لا أقوى على
ولو قليل من أنين

فهل تساقط الصدى
أم هل تأكل الرنين
خبريني يا سنيي كيف دارت السنين
هل أراك تذرينني أم تراك تهجعين
وقولي لي من تخدعين
خبروني يا رفاتي أين قلبي اللعين
أين عظم ذكرياتي بين أكفان وطين
بل أين صوتي الحزين
أخبروني يا عظامي أنكم لي عائدين
واحلفوا بالله حتى لو حلفتكم كاذبين
أخبروني أنكم في عودة لو بعد حين

أول ما لاحظته (عمر)، هو أن الهمزات موجودة هذه المرة. أما أول ما شعر به، فهو أن هذه القصيدة.. كتبها شخص ميت... ميت؟! ما معنى هذا؟! بل ما معنى هذا وذاك؟! كاد يسترسل في التفكير محاولاً الإجابة عن الأسئلة التي كادت تتكاثر في عقله، لولا أن أجبر نفسه على التوقف، فالتفكير يحتاج لأمرين لا يناسبان شقة (العباسية) أبداً، أولهما الوقت، وهو ما لا يتوفر هنا، وثانيهما الخيال، وهو ما لا يحبذ أن يتوفر هنا.

ما لم يستطع إجباره على التوقف، هو القشعريرة التي سرت في جسده، والتي لم يعرف إن كانت بسبب الخوف، أم برودة الشقة التي شعر أنها زادت فجأة في تلك اللحظة، ليَجبر نفسه على تجاهلها فحسب، وهو يدس ورقة القصيدة الجديدة بآلية بجوار أختها القديمة بين صفحات الأجندة، ثم يقلب في الأوراق عائدًا للموضع الذي توقف عنده في المرة السابقة...

أجندة (فؤاد)

((ثم جاء عام كان من أفضل أعوام حياتي، عام النصر المبارك، 1973. لا زلت أذكر أن يوم السادس من أكتوبر، يوم انتصرنا على (إسرائيل)، كان واحدًا من أيام قلائل رأيت فيها أبي يبكي فرحًا، ورأيت أمي تبتسم بسعادة حقة، من قلبها وليس مجاملة لأحد، كما رأيت (مصر) كلها ترقص طربًا، وقد أشرق وجهها الجميل بالبشر.

في ذلك العام أيضًا، ولد أصغر إخوتي، (حسين)، في حين بلغ (حلمي) الثانية، وبلغت أنا الثالثة عشرة. كنت أرى أمي وهي تتفانى في رعاية أخوي والعناية بهما، وتطوقهما بنظرة لا تكاد تتغير، هي مزيج من حب جارف وقلق موجه وابتهاال صامت. لم أحسد أخوي بالطبع، وكنت أفهم جيدًا سبب شدة خوف أمي عليهما، كما أفهم أنهما صغيران جدًّا، وفي حاجة لكل وقتها ومجهودها، لكنني - رغما عني - كنت أتوق أحيانًا لقليل من الاهتمام من جانبها، أو حتى نظرة عطف أو محبة خاطفة، فلا أكاد أجد.

ومرّ بعد ولادة (حسين) شهر واثنان وثلاثة، وأمّي تضع يدها

على قلبها من شدة الخوف والقلق. كانت تلك - وقتها - أطول مدة تقضيها وهي أم لثلاثة أبناء أحياء، وكانت تشعر طوال الوقت أنها مهددة بفقد أحدهم فجأة. لكن الشهور كانت تمضي، وكل شيء لم يزل على ما يرام، حتى بدأ من كانوا يعرفون بموضوع الساحر، يحسبون أن للأمر علاقة به، ظنًا منهم أن ما فعله قد أتى أكله أخيرًا. لم يقلها أحد علانية، لكنني شعرت بما تضرره النفوس، كما كنت أملك - للأسف - وسيلة تجسس على الأحاديث الهامسة، والتي وصلني من أحدها، بين أمي والسيدة (إلهام) جارتنا، كلامًا قالت له الأخيرة للأولى، من نوعية: «ألم أقل لك؟؟»

أما أنا، فكنت قد عرفت - من قراءاتي وبحثي - حقيقة ما فعله الساحر، ليس بصورة كاملة أو تامة الوضوح - وقتها - لكن بما يكفي كي أفهم أن لا علاقة له بأخوي من قريب أو بعيد. ما حدث حقًا، تم تزييفه كي يبدو ظاهريًا كاستجواب لقريني، لاكتشاف الصلة بيني وبين موت إخوتي، في حين أنه لم يكن في الواقع إلا جلسة فتح مندل لإيجاد دفيئة مرصودة.

أعلم أنك لا تفهم ما يعنيه هذا الكلام يا بني، ويعلم الله أنني لم أكن أريدك أن تفعل، على الأقل عن طريقي أنا؛ لذا سأكتفي بقول إنه يعني أن الرجل كان يبحث عن كنز مدفون باستخدام نوع من السحر يحتاج إلى طفل كي يتم، ولن أزيدك علمًا عن أمور أنا نفسي أتمنى لو لم أكن أعرف عنها أي شيء، خشية عليك من مغبة ذلك العلم.

باختصار، كان ذلك الخسيس يريد طفلًا من أجل غاية قدرة ومطمع شخصي، وأمي - بغفلة منها - قدمتنى له على طبق من

فضة للأسف. صحيح أنه أعطاها تعليمات وأحجبة يفترض أنها كانت لحل عقدة موت أطفالها المتكرر، لكنها كانت بلا قيمة ولا تأثير تقريبًا. أما تأثير جلسة فتح المنديل عليّ أنا، فكان ما رويته لك آنفًا، من قدرتي على رؤية قرناء كل من حولي لمدة ثلاثة أيام، ورؤية قريني أنا مدى الحياة.

لكنني طبقًا - وكالعادة - احتفظت بكل ذلك لنفسي.

أما فرحتنا بكوننا - وكما كانت جدتي تقول - خمسة في عين العدو، فلم تدم - كغيرها من أفراحنا - طويلًا.. ذلك أننا عدنا ننقص من جديد، ليس من جهة أخوي هذه المرة، فلم يكن الميت أحدهما... كان أبي.

كان عام 1974 هو العام الذي انقصمت فيه ظهورنا بموت أبي الذي نزل علينا كالصاعقة، والتي كان النصيب الأكبر منها لأمي التي ظلت شاخصة البصر معقودة اللسان يومين كاملين. كانت عقدة لسانها لا تنحل إلا حين تكون وحدها، وكنت أنا أضطرب أيما اضطراب، حين أسمعها من خلف باب غرفتها المغلق وهي تبكي وتلطم، وتحدث نفسها وتلومها، ظنًا منها - كما ظن من ظن - أن لهذا الأمر أيضًا علاقة بالساحر، وأن موت أبي كان عقابًا من الله على ذهابها له، لا سيما وأنه جاء فجأة بلا أسباب ولا مقدمات، ظاهرة على الأقل.

وددت لو أخبرها أن ظننا لم يكن في محله، لكنني لم أفعل، لم أستطع لأنني أنا نفسي شككت في الأمر، ولأنه، إن كان الله لم يغفر

لأمي ذنبها، فأنا أيضًا لم أغفره، وإن كان عذاب ضميرها هو عقابها، فقد شعرت - للأسف - أنها تستحقه.

لكن نصيب أُمي من الفجيعة لم يكن الأكبر للسبب الذي ذكرته آنفًا فحسب، بل لأنه جعلها كذلك أكبر من في الأسرة بعد رحيل عائلها الوحيد. وبرحيل ذلك العائل، نلت أنا نصيبي الذي لم يكن هيئًا هو الآخر، باعتباري أكبر من في الأسرة من الذكور، ومن وقعت على كاهله - بالتالي - مسؤوليتها ولو جزئيًا. وإن كانت صاعقة الموت جعلت أُمي تعض أصابع الندم على ما فعلته في الماضي، فقد ضربتني أنا تلك الصاعقة في مستقبلي.

كنت طوال حياتي طالبة متفوقًا، لم أكن من الأوائل لكنني لم أكن بليدًا بأي حال، وكنت أحصل دومًا على درجات جيدة جدًا. لكن الله شاء أن يوافق عام وفاة والدي عام شهادتي الإعدادية، لأحصل فيها على مجموع لم يؤهلني للنظام الثانوي العام، واضطرتني للثانوي التجاري. ولم يكن ذلك هو الأمر الوحيد الذي أكرهته عليه، فقد اضطررت كذلك للعمل في أجزاخانة بوسط البلد، لأن معاش والدي لم يكن يكفيني.

وأجدني هنا يا بني، مدينًا لك بتفسير واعتذار ثانيين، يخصان قسوتي عليك طوال حياتك، لا سيما في طفولتك، والتي أعترف الآن أنها كانت أشد وطأة من تحمل أي إنسان، ولم يكن ثمة ما يبررها، وإن كان هناك ما يفسرها، وهو ما قرأته لتوك. غايتي كانت أن تحصل على تعليم أعلى مما حصلت أنا عليه، وحياة أفضل من تلك التي عشتها، لكن وسيلتي لتحقيق ذلك كانت خاطئة، والغاية

لا تبرر الوسيلة للأسف. كنت أريد أن أجنبك ما ذقت أنا في الدنيا
من مرارة، فإذا بي - دون قصد والله - أذيقك نوعًا مختلفًا منها
فحسب)).

العباسية

4 أغسطس

2016

توقف (عمر) عن القراءة ليريح أعصابه وعينييه قليلًا. أسبل جفنيه
وعاد برأسه للوراء ليسنده على ظهر مقعده، تاركًا الأجندة مفتوحة
على ساقيه. لم يتصور طفولة والده ومراهقته على هذا النحو أبدًا.
في الحقيقة هو لم يتصورها على الإطلاق. لم يشغل نفسه بها أو به.
لم يكن يعرف حتى إنه لا يعرف كل هذا عنه. لم يره في حياته كبشر
أصلًا، كي يرسم له أي طفولة من أي نوع. حتى صورته الفوتوغرافية
وهو طفل، لم تكن تثير لديه أي مشاعر. كان بالنسبة له كيانًا غامضًا
قاسيًا، لا يحبه ولا يحب الكلام معه أو عليه. أما الآن، وهو يقرأ هذا
كله، تكوّن لديه شعور يشبه عاطفة الأب نحو ابنه، لا العكس، وتمنى
لو كان بإمكانه أن يعود في الزمن إلى ذلك الطفل الجميل في الصور،
ليحتضنه و.. ومد يده ليمسح دمعة غافلته وسالت على خده.

أفاق من تأملاته على صخب الأطفال المعتاد على السلم ففتح
عينييه، ثم اعتدل وابتسم قليلًا متذكرًا (ميكى).

- «(ميكى)، إنت فين يلا؟»

قالها مطلقًا ضحكة قصيرة، محاولًا تهدئة فورة الشجن التي فاضت على روحه، ومتخيلاً ما يمكن أن يحدث لو أن الفأر ردّ عليه بالفعل.

- «المصيبة إنها ما يقتش حاجة مستبعدة أوي كده».

قالها محدّثًا نفسه وهو يضحك ثانية، شاعرًا أن روحه قد تخففت من أثقالها قليلًا، وصار بإمكانه معاودة القراءة...

أجندة (فؤاد)

((لم تكن دراستي تروقني كثيرًا، وكان الجمع بينها وبين العمل صعبًا للغاية. كانت حياتنا في المجل شاقة كثيبة، وكانت تمر علي ليالٍ أبكي فيها وحدي في غرفتي من شدة التعب، وليالٍ أخرى أسمع فيها صوت بكاء أُمي من خلف باب غرفتها المغلق. لكن الحياة مرت واستمرت، ويمكن أن نقول استقرت، واستقر بنا الحال أنا وأُمي وأخوي الصغيرين، حتى...))

العباسية

1976

- «ماما ممكن أنزل ألعب شوية مع (ميناء) و(صلاح)؟»

كانت (فريال) واقفة تعد طعام الغداء في المطبخ حين دخل عليها (حلمي) الصغير، ذو السنوات الخمس، قائلًا عبارته، لترد مستنكرة:

- «تنزل فين دلوقت؟! الغدا فاضل عليه ربع ساعة».

- «طب أنزل الربع ساعة دي».

- «لأ، يا دوب تروح تغسل إيديك وتصحي (فؤاد) عشان تقعدوا تاكلوا».

- «يا ماما بقى مـ».

قالها متذمرًا لتقاطعه بحزم:

- «هي كلمة واحدة ومش هاتنيها يا (حلمي)، مافيش نزول دلوقت يعني مافيش نزول دلوقت، واخرج من هنا بقى ماتلخمينيش».

عبس وضرب الأرض بقدمه من خلف ظهرها ثم استدار خارجًا. سار نحو شرفة غرفة السفارة المطلة على الشارع الذي يلعب فيه (مينا) و(صلاح)، صديقيه من أبناء الجيران، عازمًا على الاكتفاء بمراقبتهم، متحسرًا، من هناك. لكنه توقف وعاد أدراجه إلى الصالة، وقد واثته فكرة أفضل.

التقط أولًا، بخفة وهو يتلفت حوله، حذاءه من الجزمة، ثم اتجه إلى غرفة الصالون. كان بابها مواربًا فمر من فتحته دون أن يغير زاويتها، وكانت أنوارها مطفأة فتركها كما هي. خلع شبشبته وارتدى حذاءه، ثم اتجه لباب الضيوف وفتحه ببطء بما يكفي كي يعبر جسده الصغير للخارج فحسب. ولأن بابي الشقة كانا من النوع الذي لا يُفتح من الخارج إلا بمفتاح، فبدلًا من إغلاق الباب خلفه، واربته حتى يبدو مردودًا فحسب، وحشره بشبشبته ليمنعه من الانغلاق.

كان قد قرر أن ينزل ليلعب مع صديقيه قليلًا، مؤمنًا لنفسه طريقًا

للعودة، دون علم أمه، فخرج بتلك الطريقة الملتوية المخفية، وقدر أنه لو عاد سريعًا، بعد عشر دقائق مغلًا، فلن ينكشف أمره. شيء واحد فقط لم يحسب حسابه، ولم يفطن إليه إلا وهو على أولى درجات السلم الهابط لأسفل، وبعد فوات الأوان.

حين رأى (حسين)، ذو السنوات الثلاث، (حلمي) وهو ينسل خارجًا من الشقة، ظن أن الأخير يداعبه أو أن في الأمر لعبة ما، فقلده وتسلسل خلفه وانتظر قليلًا، قبل أن يفتح الباب ويخرج ضاحكًا راکضًا نحوه ليفاجئه. كان أقصى ما خشيه (حلمي) لحظتها، هو أن تنبه هذه الأصوات والحركات أمه لما يفعله. لكن (حسين) لم يكتفِ بالعدو نحوه، بل تابع عدوه حتى تعداه، هابطًا درجات السلم أمام عينيه المشدوهتين.

وللمرة الثانية، ينتبه (حلمي) بعد فوات الأوان، ليركض ملاحقًا أخاه الذي كان، مع الأسف، أسرع منه بكثير.

أفاق (فؤاد) على صوت جلبة لم يعرف مصدرها في البداية، ليفتح عينيه وهو لا يزال راقدًا على فراشه مبطل الفكر، يتأرجح ما بين اليقظة والنوم. لكن كل أثر للخدر تبخر فجأة من رأسه وعينيه اللتين اتسعتا وهو ينتفض معتدلًا، حين صك أذنيه الصراخ، صراخ أنعوي مفرع مئز فيه صوت أمه، كما ميز أنه يأتي هو والجلبة من الخارج، من الشارع تحديدًا.

نهض بسرعة جعلته يتعثر وهو يرتدي شبشبته ويندفع نحو باب الشقة الذي دق قلبه بعنف حين وجده مفتوحاً. ركض هابطاً السلم مذعوراً متلاحق الأنفاس، لتصطدم عيناه المتسعتان بجمهرة من البشر تسد باب العمارة، وتكاد تسد الشارع كله، وصراخ أمه لا ينقطع، ويقترب كلما تقدم للأمام. حاول اختراق الزحام بعينييه باحثاً عنها، متتبّعاً صوتها، ثم اندفع يخترقه بجسده حتى وصل في النهاية إلى المشهد المشؤوم.

سيارة متوقفة في وسط الطريق، عند مقدمتها جثت أمه منهارة على الأرض بملابس البيت، بجوارها (حلمي) الذي يعتصر نصف وجهه السفلي وينتحب بانهياء، وبين ذراعيها (حسين) الغارق في دمه.

أجندة (فؤاد)

((... واندفعنا نركض بملابس البيت حتى مستشفى (الدمرداش) القريبة جدًا منّا. (حلمي) متشبث بمحوب أمي التي تعلقت بذراعي، وذراعي الأخرى تحمل (حسين). لكننا لم نصل في الوقت المناسب مع الأسف، ولم ننقذ (حسين). كان موته هو الأعنف بين جميع إخوتي، كما كان أكبرهم سنًا عند وفاته، والذي جعل فراقه أصعب بكثير، فكلما كبر الطفل، كبرت لوعة فقدانه.

هزتنا الصدمة جميعًا، لكن أكثر من هزته كانت أمي بالطبع، والتي رفضت غسل ثيابي وثياب (حسين) الملوثة بدمائه، كما حولت باب الضيوف وما حوله، آخر جزء من البيت مشه (حسين)، لمنطقة

محزّمة مَنَعَتْ ملامستها أو حتى الاقتراب منها. لكن أُمي لم تكن
السبب الوحيد الذي حَزَمْتُ لأجله تلك المنطقة علينا...))

العباسية

1976

في صباح اليوم التالي لوفاة (حسين)، خرج (فؤاد) إلى صالة
البيت ليجد أمه، التي بدت وكأنها لم تنم على الإطلاق، جالسة على
أريكة الأنتريه تقرأ القرآن من مصحف كبير في حجرها وهي تنتحب
بصوت خفيض، وليجد قرينه واقفاً بعبات غريب أمام باب غرفة
الصالون المغلق. كانت العلاقة بينه وبين الأخير قد تطورت حتى
صار يمكن لتحاورهما، حين لا يكونان وحدهما، أن يتم دون كلام،
وبالتخاطر الفكري فقط، بحدود رغم كل شيء. لذا، حين اقترب منه
متسائلاً بصمت عما هناك، رفع القرين يده مشيراً إلى مقبض الباب.

أراد (فؤاد) أن يستفهم أو يستفسر أكثر، لكن انفعاله غلب تفكيره،
ليجد نفسه يمسك بالمقبض ويديره ويدفع الباب بلا وعي تقريباً،
غير منتبه لأمه التي توقفت عن القراءة وارتفعت عيناها عن
المصحف باحتجاج. وقبل أن يتحول ذلك الاحتجاج إلى كلمات،
هبت دفقة هواء بارد فجأة من داخل الغرفة التي كان كل باب
ومصراع فيها مقفل بإحكام.

وأمام عين (فؤاد)، وعلى الضوء الخافت المتسرب من خصاص
نافذتي الغرفة المغلقتين، وبابها الذي يقف على عتبته، ظهر

(حسين)، ظهر في الغرفة فجأة من العدم وركض ضاحكًا بصوت مسموع حتى اختفى بداخل باب الضيوف المغلق، اختفى بداخله حرفيًا كأنه اخترق خشبه أو تبخر عند ملامسته، وصدى ضحكاته وخطواته يتردد خارج الشقة كأنه يهبط السلم.

تصلب (فؤاد) في مكانه مشدوھا. لم يكن هذا أول قرين يراه، بل إنه يرى قرينه هو نفسه كل يوم، لكنه لم يكن قد رأى قرين ميت من قبل.. وأي ميت! أخاه الطفل الميت! كان المشهد حزينًا أكثر منه مرعبًا، يثير قشعريرة فيها من الشجن أكثر مما فيها من الخوف.

أخيرًا حاول (فؤاد) إخراج نفسه من تصلبه، ليتمتم بالفاتحة على روح أخيه وهو يهم بغلق الباب و...

- «لأ سيبه، ماتقفلوش».

توقفت يده الممسكة بمقبض الباب في منتصف طريقها مع هتاف أمه الذي جعله يدير رأسه نحوها. وحين وقعت عيناه على عينيها المتسعيتين ووجهها المبهوت، بُهت هو الآخر متسائلًا في سره، أمن الممكن أن...؟!!!

- «يمكن أشوفه ثاني».

أضافتها بلهجة رجاء كسيرة ليتأكد مما كان يتساءل عنه. أمه رأت قرين (حسين) كما رآه هو بالضبط.

أجندة (فؤاد)

((كان ذلك هو الظهور الأول لقرين (حسين)، والذي كاد يذهب بعقل أمي التي تحولت حياتها إلى ترقب للظهور التالي، وقبوع شبه دائم على أريكة الصالة المواجهة لغرفة الصالون، حتى إنها أمضت بعض لياليها متيقظة، جالسة محنية الظهر تنتظر، وليال أخرى نامتها في مكانها، على الأريكة التي بدت وكأنها ستقضي بقية حياتها عليها.

ظهرَ قرين (حسين) بعد ذلك مرات أخرى قليلة متفرقة، كلها في نفس المكان. كان ظهوره لا يستغرق أكثر من ثواني معدودة في المرة الواحدة، تسبقه دائماً هبة الهواء البارد التي لا يلاحظها إلا من يعرف ما يأتي بعدها، ويسهل اعتبارها «سرسوب هوا» عارض. أما صوت ضحكه وركضه على السلم، فمن اليسير الخلط بينه وبين صوت أي طفل عادي يلعب على السلم فعلاً؛ لذا كان من الصعب على أي شخص أن يلاحظه أو أن يعرف بوجوده. وكانت رؤيته تكاد تقتصر على من رآه من قبل، لأنه يتوقعه ويترقبه.

وقد تصادف وجودي في بعض تلك المرات، والبعض الآخر كانت أمي تخبرني عنه، حين أمر في الصالة أمامها لأي سبب. كانت عيناها تزيغان، وترتجف على شفتيها الشاحبتين ابتسامة ذاهلة وهي تقول عبارات مثل: «شفته. وشه كان منور أوي»، أو «ماكانش بيضحك ولا بيجري المرة دي. فضل واقف وباصص لي». وكنت أنا أهز رأسي وأربت عليها برفق، ثم أتركها لأقوم بما علي من واجبات تجاه عملي أو دراستي، أو ما صار يقع على عاتقي من مسؤوليات

تجاه (حلمي)، أو البيت الذي أهملته كما أهملتنا وأهملت نفسها.

استمر الحال هكذا فترة شعرت خلالها أن ترفقي بأعصابها سيحطم أعصابي أنا. كنت في السادسة عشرة، أقوم بدوري الأب والأم معًا لأخي الأصغر، وعلى عاتقي أثقال ينوء بحملها أعتى الرجال.

ولما كانت أمورنا المادية لا تسمح باستجلاب خادمة لتقوم بشؤون البيت، فرغم كرهى لطلب العون من أي شخص على وجه الأرض، اضطررت لطلب معاونة بعض القريبات والجارات في بعض المهام المنزلية، وفي محاولة إخراج أمي من حالتها التي لم يعرفن سببها الحقيقي، وظنن أنها من أثر صدمة موت (حسين) فحسب، فلم يتصادف - لحسن الحظ - أن ظهر قرينه في وجود إحداهن، ولأ ما كانت وضعت قدمًا في شقتنا بعدها. أما كلام أمي عنه، فلم يصدقنه البتة، وظنننه هذيان حزن لا أكثر، لحسن الحظ أيضًا.

لكن حتى مع المساعدات الخارجية، لم يتحسن وضعنا كثيرًا. كنا بحاجة لسيدة تتفرغ لنا وتقيم معنا كي تستقيم أمور (حلمي) والبيت، وهو ما لم يكن متاحًا بالطبع. أما أمي، فلم تتحسن حالتها قَطّ، رغم كل محاولاتٍ معها. تارة أحاول إقناعها أن من تراه هذا ليس (حسين) أصلًا، وأن (حسين) الحقيقي - رحمه الله - لا بُدّ حزين على حالها تلك، ولا يحتاج منها لما تفعله بنفسها وبناء، وتارة أخرى أذكرها بـ (حلمي) الذي يحتاجها فعلاً. لكن كلامي كله كان يذهب أدراج الرياح، وظلت الحال على ذاك المنوال، حتى حدث ما لم أتوقعه ولا حسبت له حسابًا.

كانت غلطة، سهواً، مصادفة، لا أعرف كيف أصف ما حدث بالضبط. ربما كانت غلطتي بالفعل، لكن لي في ارتكابها عذرين. أولهما، أنني كنت مضغوطة ومشغولة جدًا في تلك الفترة، وأغيب عن البيت معظم اليوم تقريبًا، بالتالي لم أكن لأتمكن من متابعة (حلمي) ومراقبة ما يفعل طوال الوقت. وثانيهما، أنني اعتمدت على أن أمي لم تكن تسمح لأحد أصلًا بالاقتراب حتى من غرفة الصالون.

لكن ساعة القدر يعنى البصر، فحدث أن كانا - أمي و(حلمي) - وحدهما في البيت، حين وقع ما روته لي الأولى لدى عودتي من الخارج. وهو أنها صحت منتفضة - من غفوة قصيرة على أريكتها المعتادة - على صوت نحيب وصراخ يخلع القلب، وإذ بـ (حلمي) المسكين واقفًا في وسط الصالة مرتجفًا منكمشًا على نفسه، مغطيًا وجهه بكفتي يديه، وهو يبكي بطريقة ثبكي من يراه.

هرعت إليه لتهدئ من روعه وتسأله عما به، وحين تمكنت - بعد جهد ووقت - من فهم ما يقول من بين نشيجه وكلماته المبعثرة المتكسرة، أدركت أخيرًا ما حدث.

لقد رأى قرين (حسين).

كان ما حدث هو الصفعة التي جعلت أمي تثوب إلى رشدها فجأة، كي تنتبه أخيرًا إلى (حلمي)، خشية فقدانه هو الآخر، خشية أن يخطفه منها الجنون - أو ما هو أسوأ - كما خطف الموت (حسين).

وشاءت رحمة الله أن تترك تلك الحادثة أثرها في نفسها هي فقط،
إذ سرعان ما أنقذ عقل (حلمي) الصغير نفسه بأن حذف الأمر برمته
من ذاكرته، أو سجله ككابوس لا كحقيقة.

من يومها، قررت أمي سد باب الضيوف بأحد مقاعد الصالون،
وهي حركة قد لا تعنى - واقعياً - أي شيء، لكنها بدت لي كمحاولة
نفسية منها لسد باب التفكير في الأمر، فلم أناقشها، وتركناها تفعل
ما يريحها وما تشاء. قررت كذلك غلق باب غرفة الصالون بالمفتاح،
لتظل مقفلة محرمة، حتى فتحتها هي بنفسها بعد مدة طويلة جدًا،
وإن ظلّ مقعد الصالون في مكانه يسد باب الضيوف.

من يومها كذلك، كفّ قرين (حسين) عن الظهور، أو كففنا نحن
رؤيته، فيما عدا مرة واحدة فقط، ظهرَ فيها كطيف باهت في طريقة
الشقة لثانيتين فحسب، لم يره خلالهما - على حد علمي - سواي.
كففنا عن رؤيته لكننا - لسبب ما - لم نكف عن سماعه. وظلّ صوت
ضحكاته وخطواته على السلم يأتينا كل حين وحين).

العباسية

4 أغسطس

2016

يعني.. يعني صوت لعب أطفال الجيران على السلم هذا ليس
إلا...؟؟؟!! كذا فكر (عمر) وهو يغلق الأجندة ويضعها على المنضدة
أمامه ببطء، ورأسه يتحرك يمنة ويسرة بترقب وخوف. تارة يعلّق

بصره بمدخل الطرقة التي سمع فيها صوت الخربشة أول أمس،
وتارة بغرفة الصالون المفتوحة التي لا تفصله عنها إلا بضع خطوات،
وتارة ثالثة يرهف سمعه باتجاه باب الشقة و... ما هذا؟! ماذا دهاه؟!
هل سيصدق هذا التخريف الذي ما من دليل واحد عليه؟!!

آلمه قليلاً وصفه لكلام أبيه، ولو بينه وبين نفسه، بالتخريف، لكن..
ماذا عساه يفعل؟؟ لا دليل على كلامه فعلاً حتى الآن، ولو صدّقه
سيجن فزعاً. لا، مقعد الصالون الذي يسد باب الضيوف ليس دليلاً
على أي شيء، ولا حتى توبيخ جدته له حين حاول تحريكه. ربما
وضعت المقعد أمام الباب ومنعت الاقتراب منه حفظاً لذكرى وفاة
ابنها، أو لأنها صارت تتشائم منه بعد موته، أو لأي سبب آخر أكثر
منطقية، ولا علاقة له بأي شبح أو قرين.

ماذا أيضاً؟ صوت ضحك الأطفال الذي سمعه عدة مرات؟ ليس
دليلاً هو الآخر. والده نفسه قال إنه من اليسير الخلط بين صوت
القرين وصوت أي طفل عادي يلعب على السلم. يعني من الممكن
جداً، بل هو الأرجح أصلاً، أن يكون ما يسمعه هو، وما كان والده
يسمعه، لعب أطفال عاديين فعلاً، كأي أطفال في أي عمارة في
(مصر). وربما لم تؤثر صدمة موت (حسين) العنيف على جدته فقط،
بل على أبيه كذلك، لتجعله يتصور أن ما يسمعه هو صوت أخيه
الميت.

صوت الخربشة في الطرقة التي قال والده إن قرين (حسين) ظهر
فيها مرة؟ تباً، لماذا يحاول إرعاب نفسه؟! ألم يرَ الفأر بعينه يخرج
منها؟! الفأر.. صحيح، أين هو الآن؟ لماذا لم يره ثانية؟ أكان فأراً

حقًا؟ كيف يمكنه التأكد؟ هل يبحث عنه مغلًا، أم يضع له مصيدة، أم...؟ لحظة، هناك ما يمكن التأكد منه فعلًا لكنه لا يخص الفأر. ما دام يجلس دائمًا بجوار باب الشقة، لم لا ينهض بسرعة ليفتحه فور سماعه لصوت الضحك على السلم، كي يتأكد ممن هناك؟ نعم، سيفعل هذا، لكن في المرة القادمة، لأن الوقت تأخر، وهو منك ومتوتر، ويرغب حقًا في الرحيل.

لم يعد يطفئ الأنوار لدى مغادرته، لذا نهض متجهًا لباب الشقة مباشرة ليفتحه ويخرج. وما إن أغلقه خلفه، حتى زفر قليلًا بارتياح، والدفء يزحف على أطرافه و... تسمر في مكانه فجأة وهو يربط في رأسه بين أمرين، كؤنا معًا فكرة مخيفة. الأول هو الدفء الذي يغزو جسده حين يغادر الشقة، التي هي دائمًا أبرد مما ينبغي. والثاني هو... هبة الهواء البارد التي ذكرها والده في الأجندة، التي تخرج فجأة من غرفة الصالون، ولا يلاحظها إلا من يعرف ما يأتي بعدها.

شبرا

4 أغسطس

2016

- «وحشتني، مابقيناش نتقابل غير على الأكل، ده إذا اتقابلنا أصلًا».

قالتها (نازك) بابتسامة صغيرة، وهي تتناول طعام العشاء مع

(عمر) الذي غمغم شاردًا:

- «معلش يا ماما، هابقي أقعد معاكي حاضر».

صمتا قليلًا، ثم عادت هي تقول:

- «أنا عدت النهارده على الصيدلية وراجعت الحسابات مع (راضي)، وخذت منه إيراد الشهر اللي فات».

- «كويس».

قالها باقتضاب، فأضافت:

- «ابن حلال أوي (راضي) ده، ربنا يبارك له في عمره، واد طيب كده وخلق وخدوم».

تسلل شيء من الاستنكار الساخر إلى صوته، وهو يقول:

- «خدوم! خدمنا في إيه بقى؟! هو مش موظف باين مابيعملش أكثر من شغله اللي بياخد عليه مرتبه؟!»

- «بس بيتفانى في شغله ده، ومهتم بالصيدلية بتاعتنا أكثر ما إحنا نفسنا مهتمين بيها».

ثبت عينيه عليها قليلًا بلا أي تعبير على وجهه، قبل أن يبعدهما ثانية ليركز في الطعام وهو يقول:

- «مين قال؟! ما انتي مهتمة وبتروحي تراجعى الحسابات بنفسك أهو».

- «وانت مش ناوي تروح؟»

- «هبقى أروح إن شاء الله».

- «دي فلوسك إنت في النهاية يا ابني، ولازم تـ...».

- «خلاص يا ماما قلت هروح».

قالها بشيء من العصبية مقاطعة جملتها، قبل أن يخيم الصمت ثانية إلا من أصوات أدوات المائدة وتناول الطعام، حتى قالت هي أخيرًا، مغيرة دفة الحديث:

- «عرفت إن (يوسف) ناوي يعلي دورين عشان شقق العيال؟»

ردّ بهدوء وقد زالت العصبية من صوته وملامحه:

- «لا ماكنتش أعرف والله، وجدو موافق؟»

- «آه طبعا، ده هو اللي اقترح عليه يبدأ، وقال له إنه هيساعده كمان».

- «وأساسات العمارة تستحمل؟»

- «جداك رامي أساسات تشيل لغاية 7 أدوار».

- «كويس، على بركة الله».

- «هيعملوا دور على شقتين، واحدة لـ (شريف) والثانية لـ (سعيد)، ودور كامل لـ (فيفي) وحدها، حبيبة أبوها بقى».

قالتها مبتسمة فبادلها الابتسام ولم يعلق، فعادت تقول:

- «(سعيد) بقى إنت عارفه، شريك مخالف زي عادته، عايز أبوه يبني دور واحد بس على شقتين لـ (فيفي) و(شريف)، وعايز يجيب

هو شقة لنفسه في مكان ثاني».

- «طب دي حاجة كويسة، عايز يستقل ويعتمد على نفسه».

- «إنت فاكركه بيقول كده عشان يستقل ويعتمد على نفسه بجد؟
ده إنت طيب أوي».

- «أمال عشان إيه؟»

- «عشان خطيبته مش عايزة تعيش في بيت عيلة».

- «عادي حقها».

- «الكلام ده يا ابني لو إحنا عيلة عقارب زي اللي بنسمع عنهم
ونشوفهم في المسلسلات، إنما إحنا هنعمل لها إيه بس؟ ده إحنا
أغلب من الغلب».

وصمتت قليلاً ثم أضافت بحزن:

- «وإحنا لو ما كناش غلابة كان ده بقى حالنا؟!»

لم يعلق، فعادت تقول:

- «بصراحة، ربنا يسامحني بقى لو كنت بظلمها، بس البنت دي أنا
عمري ما ارتحت لها».

- «المهم إنها مريحاه هو يا ماما».

- «ما هو راخر متعب وطول عمره خالف تعرف».

قالتها مقطبة مشيخة بيدها، ثم استطردت:

- «سيبك منهم وخلينا إحنا في حالنا».

وابتسمت قليلاً، مكملة:

- «إيه رأيك نشارك عمك (يوسف) في الدور بتاع (فيفي)؟؟»

قطب قائلاً:

- «انتي مش قلتي إنه هيبني الدور كله ليها وحدها؟!»

اتسعت ابتسامتها وأشرق وجهها وهي تقول:

- «آه».

لم يبادلها الابتسام، بل زادت تقطيعته عمقاً وهو يتفرس في وجهها ببطء، ويقول:

- «لا أنا مش فاهم».

بمزيج من الخبت والحياء قالت:

- «انتم مش كنتم... بتعزّوا بعض يعني؟»

- «ما أنا بعزّها لغاية دلوقت زي أختي عادي».

- «أختك إيه؟! مش زمان كان فيه بينكم استلطاف و...؟!»

- «صح، زمان، زي ما إنتي قُلتي بالضبط، كان شغل عيال وراح لحاله من زمان فعلاً، وأعتقد إنك عارفة ده كويس أوي».

فتحت فمها لتقول شيئاً لكنه دفع مقعده للخلف ونهض. رفعت يدها تستوقفه لكنه ابتعد سريعاً وهو يقول:

- «تسلم إيدك على الأكل، تصبحي على خير».

العباسية

5 أغسطس

2016

لم يعد متأكدًا مما يأتي به إلى هنا. كذا فكر (عمر) وهو واقف أمام باب شقة (العباسية) التي صارت مشاعره نحوها أكثر غرابة وارتباكًا وتعقيدًا من ذي قبل. يكرهها ويحن إليها، يخافها ويرتاح فيها، يحس داخلها بعزلة غريبة، تقلقه وتهدئه في نفس الوقت، مع مشاعر أخرى لن يتعب نفسه بالبحث عن مسميات وتوصيفات لها. هذا كله طبقًا بخلاف الأجندة التي يتوق لإكمال ما فيها، ويشعر بتواصل غريب معها، كآخر ذكرى حميمة من أبيه، بل ربما الشيء الوحيد الحميم بينهما أصلًا.

رغمًا عنه، انحرف بصره نحو باب الضيوف، فارتجف قليلًا. صار لهذا الباب ثقلًا وشخصية رغم مظهره البريء الذي لا يشي بأي شيء قرأه عنه. أعاد بصره للأمام مجتمدًا كل مشاعره وهو يفتح الباب الرئيسي بآلية، ليدخل ويغلقه وراءه، ثم يتخذ مجلسه المعتاد ويلتقط الأجندة ويفتحها، ويكمل قصة أبيه...

أجندة (فؤاد)

((بالإضافة لكل ما فعلته بنا وفاة (حسين)، كان هناك تأثيرًا خاصًا بي أنا بالذات، وهو أنها نبهتني للعالم الذي كنت قد شغلت عنه

طويلاً، عالم الجن، ليبدأ بذلك الفصل الرابع في علاقتي به، فصل التجارب، الذي يشرحه اسمه كما ترى.

كنت قد عرفت - من ضمن ما عرفت - أن المجهودات الذاتية لا تكفي وحدها للخوض في ذلك العالم، وأنه يجب التتلمذ على يد المتبحرين فيه، فاكتسبت في تلك الفترة علوماً شتى، ليس بالقراءة فحسب، بل بوسائل أخرى أعنف وأخطر بكثير. ثم بدأت - عملياً - بتطبيق الكثير مما تعلمته وقرأت عنه، مكتسباً بكل هذا خبرة كبيرة في ذلك المجال. كانت رحلة قاسية مخيفة لا أرغب في الخوض في تفاصيلها معك، لأنني - كما أخبرتك آنفاً - لا أريدك أن تعرف عن هذا العالم أكثر مما ينبغي.

كان المدخل لهذا كله هو رؤيتي لقرين (حسين)، أول قرين لميت أراه، والذي عزفني - للمرة الأولى - على اختلافات بين قرناء الأحياء وقرناء الموتى، لم أكن أعرف بوجودها من قبل، من بينهم اختلاف واحد جوهري، أو اختلافان يؤديان إلى نتيجة واحدة. قرناء الموتى لهم عيون وأنوف، وأجسادهم أقل شفافية بكثير من قرناء الأحياء، والذي يجعلهم في النهاية يبدون قريبين جداً من الهيئة البشرية المألوفة، بالتالي يسهل على العين غير الخبيرة أن تخلط بينهم وبين البشر العاديين، لا سيما في الإضاءات الضعيفة أو من المسافات البعيدة.

هذا عن حياتي الخفية. أما عن حياتي العادية، فبعد وفاة (حسين) بعام، أي عام 1977، دخل أخي (حلمي) المدرسة، وحصلت أنا على دبلوم التجارة. ومرة أخرى تعرقل ظروف الحياة

طموحاتي الدراسية، فلا أتمكن من إكمال تعليمي، ولا ألتحق بكلية ولا حتى معهد، توفيرًا للنفقات، بل أضطر للتفرغ للعمل لزيادة دخل الأسرة الذي صرت مسؤولًا بشكل شبه تام عنه، خاصة مع غلاء المعاش المستمر باطراد.

بخلاف الأجازة - التي زاد عدد ساعات عملي فيها - كنت أعطي دروسًا خصوصية في اللغة الإنجليزية - التي كنت متفوقًا جدًا فيها - لبعض أبناء المعارف والجيران، كما اشتغلت في أماكن ومهن أخرى عديدة. وسارت الحياة بنا باستقرار رتيب ظننا أنه لن ينكسر ثانية، لكنه فعل للأسف، ففي عام 1981، بدأت أعراض مرض الكلى تظهر على (حلمي).

كانت صدمة، بل صفة لم نتوقعها على الإطلاق. ورغم كل المجهودات التي بذلناها في علاجه، والأمل الذي تعلقنا بأظفارنا فيه، مات (حلمي) بعدها بعام، مات آخر أسباب الابتسام، تاركًا في النفس مرارة لا تُصدّق، وفراغًا بحجم الإحدى عشرة سنة التي قضاها بيننا، مؤنسًا وحدتنا. ولم يعد لي في الدنيا سوى أمي، التي لم يعد لها - أيضًا - سواي.

وبعد انحسار موجة الحزن العاتية الأولى، هدأنا تمامًا. لم نعد نبكي لكننا كذلك كففنا عن التبسم. صار بيتنا صامتًا كثيبًا. تمر عليه أيام لا تكاد تسمع فيها إلا صوت المذياع المضبوط دومًا على إذاعة القرآن الكريم، وصلوات أمي التي اتجهت بكل جوارحها إلى الله، مستعينة على مُصابها به. أما أنا، فقد انغمست في حياتي المهنية وعالمي السري، محققًا فيهما تقدمًا ملحوظًا، ودافئًا فيهما كذلك كل

مشاعري التي تركتها تتحجر عامدًا، حتى تحركت رغبًا عني من
تلقاء نفسها، بعد بضعة أعوام...))

وسط البلد

1986

كان (فؤاد) جالسًا خلف كاونتر الصيدلية التي يعمل بها كعادته، حين دخلت فتاة أنيقة في أوائل العشرينيات تطلب أقراصًا مسكنة. وحين نهض ملبيا طلبها، جذبته جمالها الأخاذ. ورغم أنه لم يكن معتادًا على إطالة النظر لأي أنثى مهما كانت جميلة، إلا أنه وجد عينه تتعلق، تلقائيًا، بتلك الفتاة، فتتابعها وهي تدفع الحساب وتلتقط كيس الدواء، ثم تخرج مختلطة بالزحام، تاركة على شفثيه ابتسامة خفيفة، ورغبة غريبة في رؤيتها ثانية. لكنه سرعان ما عاد إلى عمله ناسيًا كل شيء عن الموضوع، ومتوقعًا ألا يرى تلك الفتاة مرة أخرى في حياته.

لكنه، ودون أن يدري أو ينتبه، رآها بعد ذلك مرات عديدة، بل والتقت أعينهما مصادفة أكثر من مرة. كانت الصيدلية التي يعمل بها، تقع بالقرب من مقهى أنيق عريق تحبه الفتاة وتقصده كثيرًا، كل أسبوعين أو ثلاثة تقريبًا، تارة مع صديقاتها، وتارة أخرى مع أهلها، وأحيانًا قليلة بمفردها، نفس المقهى الذي كان هو يحبه كذلك، ويقضي فيه فترة راحته أحيانًا. لذا، ظلًا عامًا كاملاً تقريبًا، يمران ببعضهما البعض، ويرى كل منهما الآخر، في المقهى أو في الشارع أو من خلال واجهة الصيدلية الزجاجية، دون أن يدريا.

شبرا

1987

نقل (فؤاد) بصره بين ساعة معصمه، والعنوان المكتوب في نوتة الجيب التي يمسكها بيده، والبيت ذي الطابقين الذي يقف أمامه، متأكدًا، للمرة الأخيرة، أنه عند المكان الصحيح في الموعد الصحيح. كان لا يزال يعطي دروسًا خصوصية في اللغة الإنجليزية، بجانب عمله في الصيدلية. وكان والد فتاة من تلامذته قد أخبره منذ يومين، أن زميلًا له في العمل يبحث عن معلم يجمع بين المهارة وحسن الخلق، لابنة له في الثانوية العامة، وأنه رشحه له. وها هو ذا الآن يقف أمام بيت زميل والد تلك الفتاة، بناءً على الموعد الذي تم تحديده بالتليفون، للحصة الأولى.

وضع (فؤاد) النوتة في جيبه ودفع بوابة البيت المغلقة ليكتشف أنها موصدة. وقف أمامها حائرًا لثوانٍ قبل أن ينتبه لزر الجرس الصغير على يمينه، والذي ضغطه بتردد مرة واحدة قصيرة ووقف ينتظر. وبعد أقل من نصف دقيقة، انفتحت البوابة ليظهر خلفها رجل وقور طيب الملامح في الخمسين من عمره، حيّاه (فؤاد) معرفًا نفسه، فابتسم له الأول مرحبًا، وأدخله معاودًا إقفال البوابة خلفه، ثم قاده إلى شقة على اليمين، يحمل بابها المفتوح لافتة صغيرة، كتبت عليها بخط زخرفي جميل: «مهندس / صابر عبد الرحمن».

كان (فؤاد) منهمكًا في شرح بعض القواعد لتلميذته الجديدة، (هالة)، في غرفة السفارة التي خُصصت، كأكرية البيوت المصرية، للدروس الخصوصية، حين دخلت أختها التي تكبرها بخمس سنوات، حاملة صينية الشاي. لم يكن من عادته التحديق فيمن يقدم له ما يشربه في أي بيت يدخله، مكتفياً دومًا بنظرة خاطفة خجولة مع شكر مهذب. لكن تلك النظرة الخاطفة نحو تلك الفتاة وهي تقدّم له الشاي، كانت كافية جدًا كي يتعلق بصره، لبضع ثوانٍ فحسب، بوجهها الأخاذ الذي بدا له مألوفًا للغاية، وإن لم يذكر أين ومتى رآه من قبل، وكي تترك هي الغرفة وعلى وجهها حمرة وابتسامة خجلى، وبداخلها تجاهه نفس شعوره تجاهها بالضبط.

وسط البلد

1987

بعد بضعة أيام، كان (فؤاد) جالسًا في فترة راحته في المقهى العريق القريب من الصيدلية التي يعمل بها، يدخن ويشرب القهوة، حين رآها للمرة الثانية، أو التي ظنّ هو أنها الثانية، صاحبة الجمال الأخاذ، (نازك).

في حساباته هو، المرة الأولى كانت في بيت والدها، المهندس (صابر)، حين قدمت له الشاي وهو يعطي درس اللغة الإنجليزية لأختها الصغرى، (هالة). في حين أن المرة الأولى الفعلية، والتي نسيها كما نسيته هي كذلك، كانت منذ عام كامل تقريبًا، في الصيدلية، حين دخلت تشتري أقراصًا مسكنة، المرة التي نسيها

كما نسيا كل المرات التي تلتها، في المقهى وفي الشارع ومن خلال واجهة الصيدلية الزجاجية، باختصار، كل ما سبق دخوله لبيتهم، والذي ظلّ عالقًا في مكانين خفيين من ذاكرتيهما، جاعلاً كل منهما مألوفًا في عين الآخر.

لكنهما هذه المرة انتبها لبعضهما البعض، فأشرق وجهيهما بالحمرة والابتسام، وإن بدا بعض التردد والارتباك، عليه وهو يطفئ سيجارته وينهض من مجلسه، وعليها وهي تقترب منه. هز رأسه محيياً ففعلت المثل. دعاها للجلوس بأدب إلى منضدته وهو يتمنى أن تقبل، فاعتذرت بنفس الأدب وهي تتمنى لو تجلس. وانتهى اللقاء بأسرع مما بدأ، بأقل القليل من الكلمات المنطوقة باللسان، والكثير جدًا من كلام العيون.

وبمرور الوقت، وكما وطدت حصص اللغة الإنجليزية علاقة المعلم البارع الخلق، (فؤاد)، بالمهندس (صابر) وأسرته، وطدت لقاءات وسط البلد العفوية إعجابًا صامتًا خفيًا بين الأول ووسطى بنات الأخير، (نازك).

على الصعيد الأسري، كانت الأسرة كلها تحبه وتحترمه وترتاح له. (صابر) رأى فيه شابًا يمكن الوثوق به، لا يقلقه وجوده بين أهل البيت ونسائه. و(يوسف)، زوج ابنة (صابر) الكبرى، (زينب)، رأى فيه صديقًا ذكيًا مثقفًا، يسهل الحديث معه. أما (نازك)، الصعيد العاطفي، فقد كانت منبهرة تمامًا به، بكل شيء فيه، الظاهر من وسامة وأناقة ولباقة، والباطن من رجولة وشهامة وعصامية.

وبالتدريج وعلى استحياء، بدأت لقاءات وسط البلد تفقد صفة
العفوية لتكتسب صفة المواعيد، وبدأ الإعجاب المتبادل بين (نازك)
و(فؤاد)، يتحول إلى حب صادق حقيقي.

العباسية

5 أغسطس

2016

- «اتجوزوا عن حب».

تمتم (عمر) مرددًا نفس العبارة التي قالتها له خالته (هالة)، وهو
يرفع عينيه عن الأجندة مفكرًا بشرود. والداه تزوجا عن حب بالفعل،
كذا قالت (هالة) أول أمس، وكذا اتضح له الآن مما قرأه للتو. حسنا،
صحيح أنه لا زال لا يملك دليلاً قوياً أو مباشراً على صحة كلام أبيه
عن الجن والقرناء، لكن، إن كان كلام خالته يؤكد كلامه عن نقطة
معينة، فهل يُعبت هذا، بالقياس، أن بقية كلامه صحيح؟ هل يعد
دليلاً، ولو غير مباشر، على أن كل ما حكاه عن الشقة وقرينه وقرين
أخيه الميت، وقع بالفعل؟

شبرا

5 أغسطس

2016

- «أنا هشرب شاي بالنعناع، أعمل لك معايا؟»

قالتها (نازك) وهي تجمع أطباق العشاء الذي فرغت للتو من تناوله هي و(عمر)، والذي أوما لها برأسه شاردًا، فعادت تقول بابتسامة رجاء:

- «نشربه في البلكونة سوا؟»

بادلها الابتسام وهو يومئ مجددًا، ويقول:

- «ماشي».

فاتسعت ابتسامتها، ونهض هو متجهًا للحقّام. وحين عاد، وجدها قد انتهت من تنظيف طاولة السفرة وجلست تنتظره على أحد مقعدي شرفة الصالة، واطعة كوبي الشاي على المنضدة الصغيرة التي تتوسطهما. جلس على المقعد المقابل لها فابتسمت وابتسم بدوره، وتناول كل منهما كوبه وبدأ يرتشف منه.

- «سكّره مضبوط؟»

- «آه تمام أوي تسلم إيدك».

- «قعدة البلكونة مع الشاي بالنعناع بالدنيا وما فيها».

- «فعلًا».

- «إيه أخبارك؟ طمني عليك».

- «تمام الحمد لله».

- «يستاهل الحمد».

ساد الصمت لبرهة قصيرة غمرته خلالها بنظرات مفعمة بحنان
جارف وقلق، قبل أن تقول:

- «إنت فيه حاجة مضايكاك يا (عمر)؟»

- «حاجة زي إيه؟»

- «حاجة مخبيها أو... حاسس إنك مش قادر تتكلم فيها مع حد».

ماذا؟! لماذا تتحدث أمه هكذا؟ هل عرفت بأمر شقة (العباسية)؟؟
تلاحقت الأسئلة في رأسه مكونة عاصفة من مشاعر أجبرها على
البقاء بداخله، مخفياً إياها تحت قناع وجه المقامر الذي ارتداه
بسرعة، قائلاً:

- «ليه بتقولي كده؟»

- «عشان نفسي تتكلم معايا وتفضفض لي. أنا أمك، ولا يمكن حد
في الدنيا كلها يقدر يسمعك أو يفهمك أو قلبه يبقى عليك قدي.
فضفض لي أنا بدل ما تفضفض لحد غريب».

- «حد غريب مين؟! انتي بتتكلمي عن إيه؟؟»

- «الدكتور النفسي اللي إنت بتروح له ده، أنا مش شايفة إن فيه
داعي ل...».

- «أنا مابروحش لدكتور نفسي».

- «لأ بتروح يا (عمر)».

- «منين جبتي الكلام ده؟!»

- «من اسمه وبياناته اللي إنت كاتبهم في النوتة بتاعتك».

- «...انتي بتفتشي أوضتي يا ماما؟!»

- «والله ما فتشت حاجة، كنت بنضف ولقيتها بالصدفة».

- «فقلتي تنضيفها من جوة وتلمعي ورقها بالمرة؟!»

- «أنا مالستهاش أصلًا، إنت اللي كنت سايبها على الكومودينو مفتوحة على الصفحة اللي فيها بيانات الدكتور».

- «لا، أنا كنت سايبها مقفولة وفي الدرج».

- «والله العظيم أبدًا، ورحمة أمي كانت مفتوحة وعلى الكومودينو من فوق، ومستعدة أقوم أجيب مصحف أحلف لك عليه دلوقت إن ده اللي حصل».

قالتها دامعة ووضعت كوبها على المنضدة، وشعر هو أنه يرغب في تحطيم كوبه أو تطويحه من فوق سور الشرفة، فوضعه بدوره على المنضدة كي لا يفعل، في حين عادت هي تقول:

- «ومع ذلك، فأنا آسفة يا بني إني بصيت في حاجتك، حقك عليًا، ماكانش قصدي صدقني، عيني وقعت عليها بالصدفة والله، بس لما دوّرت على اسم الدكتور على النت وعرفت تخصصه، غصب عني اتخضيت، وقلبي كلني عليك أوي.. عارف ليه؟»

لم يعلق. أما هي، فسالت دموعها على وجهها وهي تكمل:

- «لأنني لما كنت باشوف اللي أبوك بيعمله فيك، بموت من قهرتي عليك، ومن إحساسي بالعجز لأنني مش عارفة أخلصك منه، لأن

ماكانش نافع معاه لا كلام ولا إقناع، ولا خناق ولا مسايسة، حتى لما كنت بحاول أحوش عنك كان بيتجنن أكثر ويبقى هيموتك من الضرب ويموتني معاك، لغاية ما خلاني أحزم أعترض أو أتدخل أو حتى أتكلم لما يضربك، كنت بكتم بوقي بإيدي عشان ماصرخش من بشاعة المنظر، وأحط إيدي الثانية على قلبي وأنا بصرخ في سري وأقول يا رب، نجّي لي ابني من اللي هو فيه، وحياة حبيبك النبي ما تخلي اللي بيحصل له ده يعقده ويشوّهه جسديًا ونفسيًا كمان يا رب».

ظلّ على صمته، وظلّ قناع المقامر البارد يغطي كامل وجهه، فيما عدا عينه التي التمعت قليلًا كأنه غاضب أو حزين، أو الاثنان معًا، في حين أغرقت الدموع وجهها وهي تتابع:

- «لكني للأسف فضلت أشوف حالتك وهي بتسوء قُدام عيني يوم بعد يوم. إنت كنت بتتمنى الموت يا (عمر). لسه فاكرة الجملة اللي قلتها لي ليلة ما مات، بترنّ في ودني من ساعتها، فاكرها يا (عمر)؟ فاكّر إنت قلت إيه؟»

تحشرج صوتها بالبكاء وهي تكمل:

- «قلت: هي موة ولأ أكثر، ياريتته يقتلني ويخلصني.. راجل مدمر، دمرك زي ما دمرني. كان مخليك بتتمنى الموت لغاية آخر لحظة في عمره، ولو فضل عايش، مش بعيد كان خلاك تتمناه لغاية، بعد الشر، آخر لحظة في عمرك إنت».

صمتت قليلًا لتمسح دموعها وتلتقط أنفاسها، قبل أن تضيف:

- «فللأسف، على ما قد حزنت عليه لما مات، على قد ما.. أستغفر الله العظيم، ارتحت عشانك، عشان حسيت إن الضغط النفسي والجسدي الرهيب اللي كانوا عليك راحوا خلاص، وإنك ممكن تبقى كويس، وتعيش عادي زي أي شاب طبيعي في سنك».

ثم عادت تجهش بالبكاء، قائلة من بين دموعها:

- «بس أنا حاسة إنه من ساعة ما.. مات، وإنك حالتك بتسوء مش بتتحسن. بقيت منعزل أكثر، وقافل على نفسك أكثر وأكثر، مابتكلمش تقريبًا، ولما... اكتشفت موضوع الدكتور، وإنك مخبي عليا.. خفت أوي. أنا ماليش غيرك يا ابني، وخايقة أ.. خاي... فة».

غلبتها الدموع لتنهار في نوبة بكاء عنيفة أعجزتها عن الكلام، وجعلته ينهض من مكانه متجهًا لها، ثم ينحني عليها مربيًا على ذراعها وهو يقول:

- «اهدي يا ماما. فيه إيه بس؟ خايقة من إيه؟»

تشبعت بيده الموضوعة على ذراعها، قائلة بصوت تخنقه الدموع:

- «... خايقة أبوك يجننك حي وميت».

العباسية

6 أغسطس

2016

دخل (عمر) شقة (العباسية) وعقله لا يزال مشغولاً بما دار بينه وبين أمه ليلة أمس، بكلامها وما يحمله من معاني. ما قالتها عن النوتة يرجح أن عقله ليس على ما يرام بالفعل، لأنه، عقله، يؤكد له أنه تركها مغلقة وفي الدرج. كان قد قرر الخوض في طريق الأجندة وطريق العلاج النفسي، مؤجلاً الطريق الأخير قليلاً، ومحتفظاً به، في نفس الوقت، متاحاً عند اللزوم. وهو يذكر جيداً أنه، بعد أن دُون بيانات الطبيب في النوتة، أغلقها ووضعها في مكانها المعتاد في درج الكومود، لأنه، أصلاً، لا يتركها أبداً خارجه.

أما بقية كلام أمه ف... ليس هذا وقت التفكير فيه، عليه الآن القيام بما يأتي لأجله يوميًا إلى هنا، متابعة القراءة في أجندة أبيه...

شبرا

1988

حين ظهرت نتيجة الثانوية العامة، والتي حصلت فيها (هالة) على الدرجة النهائية في مادة اللغة الإنجليزية، ارتفع مقام (فؤاد) عند (صابر) وأسرتة عدة درجات. لم تنقطع صلاته بهم بانتهاء وظيفته

كمعلم، بل ترقى منها إلى مرتبة صديق للعائلة. صار هو و(يوسف) صديقين مقربين. أما علاقته بـ (نازك)، فقد ظلت طي الكتمان، تحس ولا يصرح بها، وتتهامس بها نساء الدار فحسب.

بالنسبة لـ (فؤاد)، كان ذلك بمثابة انتصار يقربه أكثر من (نازك) التي يحلم بالارتباط بها. أما الانتصار الثاني، فقد أحرزه في نهاية العام نفسه، حين استطاع أخيرًا، وبعد سنين من التعب والادخار، شراء صيدلية صغيرة في حي (شبرا) الذي تسكن فيه محبوبته.

شبرا

1989

وكما كبر الحب في قلبي العاشقين الشابين، كبرت الصيدلية الصغيرة وصارت تدرّ دخلًا لا بأس به. وقد ساعدت خبرة (فؤاد) الطويلة المكتسبة من طول عمله في صيدلية وسط البلد، على تطوير صيدليته الخاصة في (شبرا). لكن الخبرة وحدها لم تكن تكفي بالطبع، واحتاج الأمر إلى تعب وتضحيات بذلها عن طيب خاطر من أجل (نازك)، كي يكون جديرًا بها حين يتقدم لخطبتها، وليؤمن لها حياة رغدة سعيدة بعد الزواج.

ولم يتوقف الأمر عند الحد العملي المادي فحسب، بل تعداه إلى كل شيء تقريبًا. كان يلبي كل طلباتها، ويسعى لإرضائها بشتى الطرق، حتى حين طلبت منه الإقلاع عن التدخين، وافق على الفور ودون تردد، ولم يضع في فمه سيجارة منذ ذلك الحين.

العباسية

6 أغسطس

2016

صوت الضحك والركض الطفولي على السلم...

في لمح البصر، كان (عمر) قد ترك الأجندة على المنضدة وقفز نحو باب الشقة وفتحه و..

لا أحد أمام الباب، ولا على درجات السلم الصاعدة لأعلى أو بسطته العلوية. تقدّم قليلاً للأمام كي يكشف البسطة السفلية والدرجات الهابطة لأسفل. لا شيء. وقف في زاوية تسمح له بكشف بابي الشقة، باب الضيوف بالأخص، والسلم من أعلى وأسفل، ناقلًا بصره بين المواضع الثلاثة، منتظرًا ظهور أي طفل، أي شيء، حيًا كان أو ميتًا.

لكن شيئًا لم يظهر أو يحدث، ليعود أدراجه متخذًا مجلسه من جديد، ومفكرًا. ما حدث لا يعني بالضرورة أن الأصوات صدرت عن شبح، أو قرين كما يسميه والده. قد تكون أصوات أطفال عاديين ركضوا بسرعة فاختفوا قبل أن يفتح الباب. معظم الأطفال أصلاً سريعون جدًا في الركض، بل هم من اخترع الحركة العبثية التي يحبها المزعجون منهم، والمعتمدة على السرعة، دق جرس باب شقة والاختفاء قبل أن يفتح أصحابها.

أكان الأجدر به أن ينظر في العين السحرية ليصبح هو أسرع؟

هل سيصنع ذلك فارقًا كبيرًا؟ والده قال أن ظهور القرين لم يكن يستغرق أكثر من ثوان معدودة. هو سريع إذن كالطفل العادي وربما أسرع. وحتى لو تمكن من رؤيته، لو رأى، من خلال العين السحرية، وبذلك الطريقة المشوهة التي تظهر بها الأجسام والأشياء، طفلًا يركض ضاحكًا، كيف سيعرف إن كان حيًا أو ميتًا؟ إن رآه ينبثق من باب الضيوف المغلق كما رآه والده يختفي خلاله؟ هل ستتحمل أعصابه مشهدًا كهذا؟ بل هل سيجد في نفسه ما يكفي من الشجاعة كي ينظر في العين السحرية لباب هذه الشقة أصلًا تحت أي ظرف، بعد كل ما قرأ عنها؟

كلا بالطبع.. أو ربما، فيما بعد، في المرة القادمة ربما، والتي قد تكون بعد خمس دقائق أو بعد غد، فهناك أيام يسمع فيها الصوت أكثر من مرة، وأيام أخرى، كالأمس، لا يسمعه على الإطلاق. ليدعو الله إذا ألا يسمعه ثانية أبدًا، وليعد الآن للقراءة...

شبرا

1990

وأخيرًا جاءت اللحظة التي انتظرها (فؤاد) طويلًا، أو بمعنى أصح، التي تعب وسعى من أجلها كثيرًا، اللحظة التي شعر أنها مناسبة كي يصطحب أمه ويذهب إلى (صابر) طالبًا يد ابنته، عارضًا، بصراحة، كل إمكانياته ومقدرته المادية، والتي كانت، إحقاقًا للحق، لا تجعل منه عريسًا مناسبًا فحسب، بل «لُقطة» كذلك، ليس من أجل الماديات وحدها، وإنما لأخلاقه أيضًا، وثقافته ومظهره وكل شيء فيه. كان

رجلاً ترحب به أي أسرة، وتتشرف بدخوله لها. وقد رحبت به الأسرة بالفعل، لكن..

لكن ليس بالقدر الذي توقعه. لم يرفضوا، لكنه شعر أنهم لا يعاملونه بنفس الصدق الذي يعاملهم به، أو لا يشعرون بالارتياح الذي يشعر به تجاههم، ويتصور أنهم يشعرون به تجاهه. بدا ترحيبهم مشوباً بشيء من الحذر، وبدأت موافقتهم وكأنها على مضض.

الغريب أن علاقتهم به كانت أفضل قبلها، وكأن رغبته في القرب منهم أبعدتهم عنه لسبب ما. أو أن ذلك كان شعورهم الحقيقي نحوه، والذي لم يظهر، أو لم يره هو، إلا الآن. الغريب كذلك أنهم بدوا وكأنهم منقسمون بشأنه. ثلاثة منهم تغيروا معه، وكان الأمر أوضح ما يكون لديهم، وهم (صابر) نفسه، و(شريفة) زوجته، وكبرى بناتهما، (زينب). أما الثلاثة الآخرون، (يوسف) و(هالة)، و(نازك) بالطبع، فقد ظلوا معه كما عهدهم.

لكن (فؤاد) تحمل من أجل (نازك)، لتسير الأمور، رغم كل شيء، بشكل عادي شبه طبيعي، تتخلله بضع منغصات أو مشكلات بالطبع، كأي زيجة أو مشروع زواج. مشكلات كان من بينها ثلاث رئيسية. أولها كان المؤهل المتوسط الذي يحمله (فؤاد)، والذي لم تره الأسرة متناسباً مع ذاك العالي الذي تحمله (نازك). لكن تلك المشكلة سرعان ما حلتها (نازك) بنفسها، بتأكيداتها على عدم كونها مشكلة أصلاً بالنسبة لها.

ثانيها كانت (فريال)، أم (فؤاد)، التي شعر الجميع، بما فيهم (نازك) نفسها، بمزيج من الرهبة والقلق تجاهها، وعدم الارتياح في التعامل

معها. كان (فؤاد) هو الذي حاول الوصول لحل هذه المرة، والتوفيق بين طرفي المشكلة الرئيسيين. تارة يجلس مع أمه ليخبرها أن (نازك) طيبة حقًا، وبنت حلال وتحبها كثيرًا. وتارة أخرى يحاول إقناع (نازك) أن طريقة تعامل أمه، الجافة في أحيان كثيرة معها، هي طريقته العادية في التعامل مع الجميع، معه هو نفسه حتى، ولا تعني مطلقًا أنها تكرهها، وأنها لو علمت ما قاسته في حياتها وما رآته من أهوال، لفهمت سبب طبعها الحاد، بل ولأشفقت عليها، مشيرًا لتلك الأهوال بشكل عام فحسب، من ترمل مبكر وئكل متكرر، دون الدخول في أي تفاصيل.

لكن ذلك كله لم يجدي كثيرًا مع أي منهما، ولم يكن يحل المشكلة بشكل جذري، وإنما يخمدتها قليلًا فحسب، كغبار من نار يُكَنَس فقط كي يختفي تحت بساط من رماد.

أما المشكلة العالمة، والتي كادت تضرب علاقة (صابر) و(فؤاد)، والزيجة كلها معها، في مقتل، مُظهرة، في نفس الوقت، استماتة (نازك) في تمسكها بـ (فؤاد)، فقد كانت رفضه القاطع للعيش مع زوجته في بيت عائلتها، تحت سقف شقة باسمها، كما كان (صابر) يريد. كان مصرًا على شراء شقة خاصة به، يمكن التفاوض والنقاش في موقعها ومساحتها وأثاثها وكل ما يخصها، إلا أمرين اثنين لا جدال فيهما، ثمنها الذي يجب أن يدفعه هو، وعقد ملكيتها، أو إيجارها، الذي لن يكون إلا باسمه.

لم تجدي معه أي محاولات، لا بالحسنى ولا بغيرها. حتى حين

أخبره (يوسف) أن (صابر) لا يريد إلا جمع العائلة في بيت واحد، وأنه هو نفسه يعيش مع (زينب) في شقة باسمها، وأن الأمر لا ينقص من رجولة الزوج في شيء، لم يتزحزح (فؤاد) عن رأيه. أما (نازك)، فقد حاولت إقناعه هي الأخرى في البداية، متوقعة أن يلبي طلبها، ولو بشيء من الدلال والإلحاح، كما اعتادت معه. لكنها حين وجدته صلبًا كالصخر في ذلك الأمر بالذات، فهمت أن إلحاحها لن يفعل سوى إفساد العلاقة بينهما، فرفعت الراية البيضاء سريعًا، ووقفت في صفه معلنة أنها لن تتزوج سواه، وإن ظلت طيلة حياتها بلا زواج.

ولأجل موقفها ذاك، حاول (فؤاد) الوصول لحل وسط، عارضًا اقتراح بناء طابق أعلى في بيت العائلة ليعيشا فيه، حتى لا تبتعد (نازك) عن أهلها، على أن يُبنى ذلك الطابق من ماله ويوثق باسمه. ورغم اعتراض (صابر) على ذلك الحل في البداية، متحجبًا بأنه يستلزم وقتًا أطول من اللازم لتنفيذه، ويتعارض مع رغبته في إتمام الزواج سريعًا، إلا أنه استسلم في النهاية، وتم تأجيل الزواج لحين الانتهاء من بناء الطابق الثاني، الذي لم يدخر (فؤاد) جهدًا ولا مالًا في تشييده وتجهيزه وتأثيثه على أكمل وجه ممكن.

العباسية

6 أغسطس

2016

رفع (عمر) عينيه عن الأجندة بشرود، مستعيرًا عبارة أخرى من

عبارات خالته (هالة) في وصف والديه، ليتمتم قائلًا:
- «كانوا ييموتوا في بعض».

شبرا

6 أغسطس

2016

- «وحشتني أوي».

انسابت عبارة (نرمين) في أذني (عمر) عبر سماعة تليفونه
المحمول، مرخية جسده على فراشه، وجفنيه على عينيه، وهو
يقول:

- «وانتي كمان».

ثم سمعته يطلق ضحكة صغيرة خافتة، لتبتسم بتساؤل حذر وهي
تقول:

- «بتضحك على إيه؟»

- «أصلي عارف انتي هتقولي إيه دلوقت».

- «هقول إيه؟ أنا نفسي مش عارفة».

- «هما كلمتين مابقيتش أسمع غيرهم اليومين دول، (وحشتني)،
وبعديها على طول، (مالك؟)، ولازم ييجوا مع بعض كده زي
البيجامة، تي شيرت وبنطلون».

ضحكت قائلة:

- «أنا ما كنتش هاقول كده أصلاً».

- «قولي والمصحف».

- «بصراحة كنت هاقولها فعلاً، بس خلاص بلاش».

- «بلاش ليه؟! قولوها عادي عشان أقفل في وشك على طول».

- «خلاص خلاص، امشي يا (مالك؟)، امشي يا (مالك؟)، هو بقى كويس خلاص، امشي».

ضحكا سوياً، قبل أن يقول:

- «بقالي كتير ماضحكتش كده».

- «ولا أنا والله».

- «وبقالنا كتير كمان مش بنتكلم تقريباً غير عشر دقائق في اليوم، وساعات مش بنتكلم خالص، أو نتكلم عشان نتخانق بس، أنا واخد بالي، وعارف إني رخم ومقصر معاكي الفترة دي، لكن...».

قالها بخفوت، لتقاطعه بحرارة:

- «يا حبيبي ماتقولش كده، إنت مش مقصر ولا حاجة، طبيعي إنك تتضايق وتتأثر وتتغير بعد وفاة باباك الله يرحمه».

- «أنا جيت عليكى جامد برضو وانتى مالتيش ذنب، معلش يا (نرمين)، سامحيني واستحمليني».

- «والله العظيم أنا ما زعلانة أصلاً، أو زعلانة لكن عشانك مش

منك، وفاهمة ومقدرة من غير ما تقول».

- «تسلمي لي يا حبيب...».

بتر عبارته مجفلاً وقد انتزعه من الحالة الحميمية التي كانا فيها،
باب غرفته الذي فُتح لتظهر على عتبته (نازك) قائلة:

- «العشا جاهز يا (عمر)».

حدق فيها قليلاً وهو يعتدل جالساً، قبل أن يقول:

- «شكراً يا ماما مش جعان دلوقت».

- «إنت معاك تليفون؟»

- «آه».

فهزت رأسها وغادرت مغلقة الباب.

- «هو حصل حاجة؟»

كانت تلك من (نرمين)، والتي رد عليها قائلاً:

- «حاجة إيه؟»

- «مامتك صوتها متضايق».

- «وشكلها كمان، ما أعرفش مالها، دي حتى ماخبطتش قبل ما

تفتح».

- «معلش يمكن نسيت. تقوم تشوفها طيب متضايقة من إيه؟»

- «لا لا، سيبك. كنا بنقول إيه؟»

- «مش فاكرة».

- «ولا أنا».

- «مارسمتش حاجة جديدة؟»

ذكره سؤالها بآخر لوحة وجدها على التابلت، لوحة الكائن الغريب
المرعبة التي كاد يخبرها عنها، لولا أن شيئًا بداخله جعله يحجم عن
ذلك، ليقول:

- «مش بالمعنى، شوية شخبطة كده بالرصاص في الإسكتش».

- «مارسمتش حاجة على التابلت؟»

- «لا».

- «وماعرفتش مين اللي رسم البورتريه إياه؟»

قبل أن يجيب، انفتح باب الغرفة لتظهر (نازك) ثانية وهي تقول:

- «مش هتتعشى يا (عمر)؟»

- «أنا مش لسه قايل إني مش جعان يا ماما؟!»

قالها بمزيج من الدهشة والضيقة، متوقعًا أن تغادر بعدها، لكنها
تململت في مكانها، قائلة:

- «طب مش هنقعد مع بعض شوية قبل ما أنام؟»

- «حاضر، شوية وهاجي».

ارتسم استسلام حزين على وجهها وهي تغلق الباب، ليتنهد هو
بحرارة، في حين حاولت (نرمين) إخفاء الضيق الذي تسرب القليل

منه إلى صوتها وهي تقول:

- «روح شوفها عايزة إيه يا (عمر)».

- «ماتزھقینیش انتي كمان، لو وراكي حاجة وعايزة تقفلي قولي».

- «مامتك اللي عايزانا نقفل مش أنا، وهتفضل تيجي كل شوية لغاية ما نقفل فعلاً».

وكانما كانت تتنبأ، سمع كلاهما طرقتان على الباب.

- «إيه ثاني؟؟؟»

هتف بها والباب يُفتح لتظهر (نازك) خلفه ممسكة بتليفونها المحمول، وبصوت بدا مضطرباً كوجهها، قالت:

- «أنا آسفة، كنت عايزة بس أسألك على حاجة في الموبايل، خلاص بقى بعدين».

- «حاجة إيه؟؟؟»

قالها بعصبية مكتومة فرفعت يدها قليلاً كأنها تهذئه، معاودة إغلاق الباب وهي تقول:

- «خلاص خلاص، بعدين، مش مهم».

وقبل أن ينغلق الباب تمامًا، لمح وجهها، لجزء من الثانية، يتقلص وكأنها على وشك البكاء. ورغم غضبه، انغrust تلك اللمحة الخاطفة في عينه كشوكة كادت تبكيه هو الآخر، ليزفر بقوة مانعاً نفسه، دافئاً رأسه بين كفيه، وصوت (نرمين) المترفق يتدفق في أذنيه:

- «معلش يا (عمر)، لازم نقدر ظروفها وإحساسها برضو، هي بقت وحيدة تمامًا دلوقت، ومحتاجة ونس، ومالهاش غيرك».

- «كنتي عايزة تسأليني في إيه؟»

قالها (عمر) برفق وهو يجلس في الصالة أمام (نازك) المنشغلة بتليفونها المحمول. تأخرت في الرد كعادة من يستحوذ تليفونه عليه، فأعاد سؤاله. همهمت بشيء لم يتبينه، دون أن ترفع عينيها عن الشاشة الصغيرة، ليتساءل:

- «إيه؟»

- «خلاص مش مهم».

قالتها ولم تزد عليها، ثم خيم صمت، توقع، أو انتظر، أن تقطعه، فلما لم تفعل، بادر هو:

- «اتعشيتي؟»

- «أيوه».

نفس الاقتضاب الذي تبعه نفس الصمت. لم تسترسل معه في الحديث، لم تسأله عن حاله، لم تعرض حتى أن تحضر له عشاءه، بل ولا رفعت عينيها عن تليفونها لحظة واحدة. لم يحمل وجهها أي تعبير، لكنه، رغم ذلك، سألها:

- «انتى متضايقة من حاجة؟»

تأخرت قليلًا، ثم:

- «لا».

اقتضاب وصمت للمرة الثالثة. لم يحاول فتح الحديث هذه المرة. عقد ذراعيه على صدره، وحاجبيه فوق عينيه، واكتفى بتحديثها بنظرة متفحصة مترقبة، قال بعدها:

- «يعني أنا يا ماما سببت تليفوني وجيت لك مخصوص، عشان ألاقكي قاعدة مركزة مع تليفونك وما بتبصيليش حتى؟!»

رفعت عينيها أخيرًا لتقول بحدة مفاجئة:

- «جيت لي بعد إيه؟! بعد ما أخذت الإذن؟!»

- «.. إذا؟؟!!»

- «معلش، ابقى اعتذر لجلالتها عن الإزعاج، واشكرها عشان سمحت لك تقعد معايا شوية».

- «إيه اللي انتي بتقوليه ده؟؟!!»

- «روح يا ابني كمل اللي كنت بتعمله، الله الغني عنك وعن القعدة معاك».

قالتها وعادت لتليفونها، ومرت فترة قصيرة من الصمت، راقبها خلالها بوجه جامد متصلب، قبل أن يقول:

- «مممكن أعرف انتي بتتكلمي عنها كده ليه؟! هي عملت لك إيه؟!»

لم تجب ولم ترفع عينيها.

- «طب بتعملي معايا أنا كده ليه؟!»

تجاهل تام من جانبها.

- «فرقتي إيه انتي كده عن بابا؟!»

هنا فقط رفعت رأسها، هاتفة:

- «نعم؟!»

- «ليه كنتي بتتضايقي لما بيعمل حاجة انتي دلوقت بتعملوها؟!»

- «حاجة إيه اللي أنا باعملها؟! بجلدك بالحزام ولأ بمدك على رجليك؟!»

- «أبدًا، عايزة بس تجبريني على حاجة أنا مش عايزها».

- «أنا أجبرتك ولأ جيت جنبك؟!»

- «أمال اللي حصل من شوية ده كان اسمه إيه يا ماما؟!»

- «إنت عايز تقارن الكلمتين اللي أنا قلتهم، باللي أبوك كان هيعمله لو عرف علاقتك بالبنت دي؟! ده لو كان شم خبر بس عن مقابلاتكم في الكافيهات، ولأ مكالماتكم اللي بالساعات، مش بعيد كان دبحك، أو على الأقل قطع عنك الفلوس، وسحب منك العربية والموبايل، وحبسك في البيت زي البنات».

شبرا

7 أغسطس

2016

استيقظ (عمر) من نومه معتدلاً على فراشه بتعاقل. كانت عينه لا تزال ناعسة نصف مغمضة، حين وقعت على ما جعلها تنفتح عن آخرها، تابلت الرسم الخاص به، والذي كان موضوعاً على مكتبه مستنداً إلى بضعة كتب، بحيث تقتحم شاشته مجال رؤيته رغماً عنه، وبطريقة لا يمكن أن تكون عفوية، لا يمكن ألا تكون متعمدة، ليبدو وكأنه يجلس أمامه في تحدٍ، صارخاً فيه: انظر لي، وإياك أن تتجاهلني.

حرق (عمر) في الجهاز الذي لم يكن متأكداً أنه لم يستخدمه ليلة أمس فحسب، بل إنه لم يلمسه منذ أيام، منذ وجد لوحة المخلوق المخيف إياها عليه، والتي جعلته يرهبه إلى الحد الذي صار يخشى معه حتى النظر إليه، ليضعه في أحد أدراج مكتبه، بعيداً عن متناول يده ومجال عينيه.

هل سيجد عليه لوحة جديدة؟ لوحة تمثل من أو... ماذا هذه المرة؟؟ كانت شاشته مطفأة يجب تفعيلها ليظهر ما عليها. أراد أن ينهض ليعرف لكنه لم يفعل. تسمر في مكانه ناظراً لها، يغزوه شعور عجيب مخيف، بأنها تبادله النظر. لماذا لا تزال أمور كهذه تفاجئه وتخيفه؟ ألم يعتدها؟ ألم يصر شبه واثق أنه من يفعل كل هذا، وأنه في حاجة حقيقية لعلاج نفسي، يؤخره خوفاً من الاعتراف باضطرابه العقلي لنفسه فحسب؟

لكن تفكيره اتخذ فجأة مساراً مغايراً تماماً. كانت آثار ما حدث في الليلة السابقة مع أمه لا تزال عالقة بذهنه، ليجد نفسه يفكر، متسائلاً، هو لا يعيش وحده هنا، فلماذا يفترض أن كل ما يحدث هنا من فعله

هو؟ لماذا يُخرج أمه من المعادلة؟ لماذا افترض أنها كانت صادقة تمامًا في موضوع النوتة؟ ولماذا لا يفترض أنها هي من يرسم على التابلت؟

اندفع نحو المكتب ملتقطًا الجهاز بانفعال شعر أنه بدأ يحل محل الخوف في نفسه. لمس شاشته ليفعلها فظهرت على سطحها لوحة تمثّل.. أباه هذه المرة! نسخة متقنة طبق الأصل منه، مع فارق واحد اقشعر له بدنه، وجعله يعيد النظر في فرضية أن أمه هي التي ترسم هذه اللوحات.

العينان والأنف في اللوحة كانوا باهتين، شديدو الشفافية، بطريقة جعلت الوجه كله يشبه وصف والده للقرناء، في الأجندة التي لا يقرأها، ولا يعرف بوجودها أصلًا، سواء.

شبرا

2001

- «هتعيش غبي وتموت غبي».

قالتها (نازك) وهي تنقل بصرها بين المرطبان الزجاجي الممتلئ بمسحوق بني في يدها، و(عمر) الواقف أمامها. كانا في مطبخ شقتهم الذي دلفت إليه (زينب) إثر عبارة أختها، متسائلة:

- «إيه يا (نازك)؟ إيه اللي حصل؟؟»

- «حط لي كاكاو على القرنفل اللي قعدت أطحن فيه إمبارح يا

(زينب)«.

- «ليه كده؟»

بدا (عمر) وكأنه سيهم بالكلام، لكن (نازك) هي التي أجابت السؤال بعصبية، قائلة:

- «قال لي عايزين نشرب لبن بالشوكولاتة أنا و(شريف)، قلت له علبة الكاكاو الجديدة على الرخامة، افتحها وفضيها في البرطمان واعملوا لنفسكم كوبايتين، وأدي النتيجة».

جذب الصياح أبناء (زينب) الثلاثة في تلك اللحظة ليتجمعوا عند باب المطبخ متطلعين للمشهد في صمت، و(عمر) يختلس النظر لهم بحرج، وأمهم تقول:

- «طب حاولي كده تشيلي اللي تقدري عليه بالراحة من على الوش وتفصليهم ع...».

- «مش هينفع لأن البيه رج البرطمان جامد كمان فاختلطوا ببعض. ليه كده يا ابني بس؟ ليه؟؟»

- «كنت فاكده برطمان الكاكاو».

قالها (عمر) بوجه محمر وصوت محشرج، فعادت تهتف موبخة:

- «ليه؟! ماتعرفش الفرق بين القرنفل والكاكاو؟!»

- «لونهم قريب من بعض فعلاً يا (نازك)، وانتي مش معلّمة البرطمانات بحاجة».

فتحت (نازك) المرطبان ومدت به يدها نحوها، قائلة:

- «والريحة يا (زينب)! الريحة دي إيه؟ مش علامة؟! بدمتك انتي فيه أقوى من ريحة القرنفل؟! ممكن حد يتلخبط فيها؟!»

- «معلش، صغير برضو مايعرفش».

- «8 سنين مش صغير، فيه قده بيشتغلوا ويصرفوا على أهاليهم».

قالتها معيدة غلق المرطبان، فقالت (زينب) بأسف:

- «جيننا عملنا لكم قلق إحنا».

وضعت المرطبان على طاولة المطبخ وهي تهز رأسها بأسف ممائل،
قائلة:

- «وانتم ذنبكم إيه بس؟ ابني أنا اللي غبي».

العباسية

7 أغسطس

2016

دخل (عمر) شقة (العباسية) بقلب مثقل بالهموم حد الغميان،
وعقل تتصارع فيه أفكار وذكريات، يكاد يسمع أزيزها داخل رأسه.
ورغم ذلك، أجبر روحه على ابتلاع غصتها وهو يتخذ مجلسه
المعتاد، كاتماً ضجيج مخه وهو يلتقط الأجندة ويفتحها، مكماً قصة
أبيه...

أجندة (فؤاد)

((في عام 1992، تم زواجنا أنا ووالدتك. ورغم كل ما كان - ولا يزال - بيننا من شقاق، لن أنكر أنني أحببتها حقًا، ولا زلت أحبها حتى اليوم. ورغم كل ما تراني عليه من صرامة وقسوة طباع - لن أنكرها أو أبررها - فأنا أؤكد لك يا بني أن قلبي ليس في حقيقته قطعة حجر، بالعكس، ما قُذ من حجر فعلاً، ليس إلا قشرة خارجية فحسب، أجبرتني وعودتني صعوبة حياتي على إحاطة نفسي دوماً بها، حتى معك للأسف.

أما قلبي، فلم يكن يوماً خاليًا من الحب أو عاجزًا عنه كما قد تظن، بل إنني أحبك حبًا لن تقدر كلماتي على وصفه مهما حاولت، من شدته قسوت عليك، من شدة خوفي عليك، فوالله لو أنني تركت العنان لمشاعري يا (عمر)، لما رفضت لك طلبًا أبدًا، ولأفسدتك من فرط تدليلي لك.

وما دمنا نتحدث عن الحب، فدعني أعترف لك أنني أعلم بأمر ارتباطك بـ (نرمين) زميلتك في الكلية، والذي أخذت على نفسي عهدًا بعدم التدخل فيه - إلا لو طلبت أنت - احترامًا لقراراتك واختياراتك في كل ما يخصه. وبقدر ندمي الآن على تدخلتي في اختيارك لمجال دراستك، بقدر ما أنا سعيد لأن هذا المجال هو الذي عرفك بـ (نرمين)، التي لا أعرف عنها إلا كل خير، وأدعو الله - كل يوم - أن يجمعك بها على خير)).

العباسية

7 أغسطس

2016

توقف (عمر) عن القراءة فاغراً فاه في ذهول. كان يعرف؟ والده كان يعرف بأمر علاقته بـ (نرمين)، بل ويباركها؟! لكن أمه قالت العكس، فلماذا؟ هل أخفى والده معرفته بالأمر عن الجميع حتى هي أم... أم ماذا؟؟

أجندة (فؤاد)

((ومرت الشهور الأولى في سلام ووثام، يتعكر صفوه أحياناً بخلافات بسيطة من التي تنشأ بين أي زوجين، إلى أن وقع أول شجار حقيقي بيننا، جالبا معه ما لم أتوقعه على الإطلاق...))

شبرا

1993

- «إنت عملت لها إيه؟؟ عملت في بنتي إيه؟؟؟»

كذا صرخت (شريفة)، أم (نازك)، في (فؤاد) الذي احمر وجهه وهو يهتف بقلق عصبي:

- «والله ما جيت جنبها!»

أما (نازك)، فقد كانت منطرحة على أريكة في الصالة، في شقتها

هي و(فؤاد)، مغمضة العينين كالمغمى عليها، وبجوارها (صابر) الذي بدا، على عكس زوجته، هادئًا تمامًا، وهو يربت برفق حازم على خدي ابنته محاولًا إفاقتها، في حين عادت (شريفة) تصيح قائلة:

- «أمال كانت بتصرخ ليه؟! ده صوتكم كان واصل لنا تحت!!»

- «في إيه يا جماعة؟؟ إيه اللي حصل؟؟»

كانت تلك من (زينب) التي دخلت في تلك اللحظة من باب الشقة الذي نُسي مفتوحًا، فما إن وقع بصرها على أختها، حتى ضربت صدرها بكفها المفتوحة، شاهقة:

- «يا نهار أسود! (نازك) مالها؟؟ (نازك) مالها يا (فؤاد)؟؟ إنت عملت لها إيه؟؟؟»

- «ماعملتش حاجة، والله العظيم ما عملت حاجة، كانت خناقة عادية وشدينا مع بعض شوية في الكلام».

صاح بها بعصبية، فعادت تقول:

- «وأغمى عليها كده لوحدها؟!»

في حين قالت (شريفة) كالباكية:

- «حرام عليك، يا شيخ حرام عليك، دي حامل».

ولم ينتهِ الأمر على خير، فبعد أن فتحت (نازك) عينيها أخيرًا، لم تجب عن أي أسئلة وُجِهت لها ولم تحكي شيئًا مما حدث، لم تبدو حتى على استعداد للصلح أو النقاش، فقط أصرت على عدم

المبيت في الشقة، والذي عارضه والدها في البداية، و(فؤاد) بالطبع، وشجعتها عليه أمها وأختها.

في النهاية، رجحت كفة النسوة الثلاث، لتغادر (نازك) الشقة بالفعل، كي تبیت عند والديها في الطابق الأرضي.

كانت أول ليلة يقضيها (فؤاد) بعد الزواج بمفرده تمامًا، لا يؤنس وحدته إلا أرق ناجم عن قلق شديد، وغضب أشد. لم يغضبه الشجار نفسه بقدر ما أحنقه ما حدث بعده، الاتهامات التي ألقيت عليه جزافًا، دون أي أدلة أو إثباتات، التدخل في الأمر أصلًا بهذا الشكل المستفز المهين، دون مراعاة لحرمة أو خصوصيات. بدأ الأمر بشجار عادي بينه وبين زوجته، وانتهى بأسرتها كلها في صالة شقته، وكل منهم يتهمة بما لم يفعل حقًا!

من أعطاهم الحق في اقتحام حياته والهجوم عليه هكذا؟! ما الذي تصوّروا أنه فعله بالضبط؟؟ وما الذي وضع هذا التصور في أدمغتهم أصلًا؟! هل بدر منه أي عنف أو إساءة من قبل؟! هل آذاها سابقًا كي يشكّوا فيه بهذه السرعة؟! لكنهم حتى لم يشكّوا، كانوا متأكدين دون أدنى سبب! قفزوا إلى استنتاجات تجعله مذنبًا دون أي مقدمات. لم يخطر على بالهم أنها ربما فقدت الوعي لأي سبب آخر لا يتعلق به، كتعب الحمل مثلاً، ولا صدقوه رغم قسمه المغلظ بأنه لم يفعل لها أي شيء. عاملوه كدخيل عليهم، كوحش عذب ابنتهم الحامل، دون أن يضعوا حتى في حساباتهم، أن ابنتهم هذه زوجته، وأنه حين رآها تفقد الوعي، قلق عليها مثلهم وربما أكثر.

تكالبت عليه الخواطر والأفكار وهو راقد على سريريه حتى أثقلت رأسه، فلم يدرك أنه نام إلا حين استيقظ فجأة مجفلاً كأن شخصاً أو شيئاً أيقظه. لعوانٍ دار بعينيهِ المتوترتين في ظلام الغرفة الذي لا يبده إلا الضوء المار من خصاص الشرفة نصف المفتوح، شاعراً بتشوش جعله لا يدرك أين هو أو ماذا حدث، ثم يتعجب من عدم وجود (نازك) بجانبه. لكنه سرعان ما تذكر كل شيء، مرجحاً أن ما أصابه كان نوعاً من كوابيس الخُضة أو أحلام السقوط، نجم عن كل ما مرَّ به من توتر ذلك اليوم.

لكنه حين انقلب على جانبه الآخر ليعاود النوم، خيّل إليه أنه يرى شخصاً واقفاً قرب السرير، في بقعة لا يصلها الكثير من الضوء، فقط ما يكفي لتبين هيئة عامة لجسد يعلوه رأس، فطن (فؤاد) على الفور أنه ليس قريبه، ففي أعلى الرأس تلتمع عينان ثابتتان لا تطرفان.

وقبل أن يفتن إلى أي شيء آخر، أو يفكر أو يتخذ أي ردة فعل، تحرك الشخص بسرعة غريبة كأنه يطفو ولا يسير. في جزء من الثانية صار ملاصقاً للسرير، حيث سقط الضوء على وجهه الذي ميزه (فؤاد) على الفور، الوجه الذي يعرفه كما يعرف راحة يده، وإن لم يَرَ صاحبه منذ مدة طويلة جداً.. وجه أبيه.

ثم فتح ذلك الشخص فمه وتكلم.

- «ماتزغلش مراتك ثاني يا (فؤاد)».

قالها بصوت مخيف لا يمت بصلة لصوت والده، ثم تراجع واختفى،

كأنه ذاب أو تبخر في الظلام. هنا فقط تمكن (فؤاد) من الحركة، شاعرًا أن الخوف لم يكن الشيء الوحيد الذي سقره في مكانه. اعتدل جالسًا بسرعة وأضاء أبا جورة الكومود المجاور له وعيناه تدوران حوله بجنون. لا أثر لذلك الشخص الذي هو واثق أنه لم يكن قرين أبيه، بل على الأرجح شيئًا تشكل على هيئته وصورته فحسب، شيئًا فطن الآن إلى أنه هو ما أيقظه بغتة هكذا، ليقول له جملة واحدة فقط، كأنها رسالة و...

وعقد (فؤاد) حاجبيه، لقد فهم، هذا الشيء لم يكن سوى...

أجندة (فؤاد)

((... هاتف. وهو جني يرسله الشخص إلى من يرغب في إيصال رسالة معينة له، متشكلاً على الهيئة التي يطلب منه التشكل عليها. وهي وسيلة بغیضة تتسبب في إفزاع المرسل إليه، لذلك لا تُستخدم تقريبًا إلا للردع أو التهديد.

في حالتي كان الأمر مخففاً بعض الشيء، فعلى عكس ما هو معتاد من تشكّل الهواتف على صور مرعبة، اتخذ الهاتف المرسل لي هيئة مألوفة قريبة من قلبي، كي أظن ربما، أن الرسالة تأتيني من روح والدي المتوفى حقًا، ولا تحمل من التهديد قدر ما تحمل من النصيح.

كان هذا ما سيعتقده أي شخص لا خبرة لديه في عالم الجن والروحانيات. لكنني فهمت الحقيقة بالطبع، كما فهمت أن مرسل

الهاتف يفهم أنني سأفهم، أو يشك أنني سأفعل على الأقل. لهذا لم يكن ما فعله انتقامًا مخفّفًا أو تهديدًا مبطنًا، أو كما يقال، قرصًا للأذن أو ذبحًا للقطعة فحسب، بل طلقة اختبار كذلك، لا تهدف لإيذائي أو قتلي فزعًا، بل لإظهار ردة فعلي التي سيظهر ما خفي عنه من أمري. فلو ظننت أن ما أتاني كان روح والدي، سأتعظ وأستمع إلى نصحه، أو أخذه بعين الاعتبار على الأقل، ويتضح وقتها أنني شخص عادي لا علاقة له بعالم الجان. أما لو فهمت حقيقة ما حدث، فسأتي بردة فعل تناسبه من نفس نوعه، تظهر أنني أفهم في تلك الأمور.

المرسل إذا أراد أن يعاقبني، هذا مفروغ منه، لكنه كذلك يشك في أمري لسبب ما، غلطة ارتكبتها ربما أو سهوًا في كلام، ولا بدّ أنه حاول استجواب قريني للتأكد مما شك فيه، لكنني كنت قد تعلمت كيف أجعل هذا الأخير عصيًا على الاستجواب، عن طريق تلقينه ما أريده أن يجيب به إن شئ، كي أخفي ما لا أريده أن يُعرف عني. لهذا لم يكن كشف صلتي بعالم الجان وقدراتي فيه سهلًا، ولهذا لجأ ذلك الشخص لتلك الحيلة الملتوية، ضاربًا عصفورين بحجر واحد.

أشارت أصابع اتهامي بالطبع إلى اتجاه واحد بدا سهلًا جدًا وواضحًا للغاية، لدرجة أظنها جعلتك تتوقعه الآن أنت أيضًا يا (عمر). لكنني لم أهدأ ليلتها حتى تأكدت - بطرقي الخاصة - من هوية ذلك المرسل، الذي لم أشك فيه لحظة واحدة قبل تلك الليلة، كما شك هو في، لأنني كنت أكثر سذاجة وأقل حذرًا منه ربما، كما ظننت وقتها، أو لأنه أقدم خبرة وأطول باعًا مني في عالم الجان، كما فهمت لاحقًا.

أجل يا (عمر)، كما لا بُدَّ أنك توقعت، المرسل كان (صابر عبد
الرحمن، جدك.)

العباسية

7 أغسطس

2016

سار (عمر) في الطرقات لا يكاد يرى ما أمامه، شاعرًا بانعدام وزن لا يعرف معه أين هو بالضبط، ولا كيف غادر الشقة وهبط إلى الشارع، وأمواج الأفكار تتلقفه كورقة عائمة على سطح محيط هائج. ما هذا الذي قرأه بالضبط؟؟ ما الذي يقوله والده؟! جده! جده (صابر) المتدين الطيب، خبير في أمور الجن والعفاريت؟! هل عانى والده من عدة أمراض واضطرابات نفسية وعقلية؟ هل تحولت ضلالاته وهلوساته حول الجان والقرناء، إلى جنون اضطهاد أو ارتياب جعله يشك أن أحدهم يرسلهم إليه؟ يعابثه بهم؟؟ وأن أحدهم هذا ليس سوى جده (صابر)، أحب أفراد عائلته له؟! لا لا، مستحيل! أين الدليل على ذلك؟؟ أين الدليل على أي شيء؟؟ أين الحقيقة؟؟؟

العجمي

2002

- «الغبي غبي ولو زعق له نبي».

جلجل الضحك في جنبات الشقة التي اجتمعت فيها العائلة

للتصنيف في منطقة (العجمي) بمدينة (الإسكندرية)، إثر العبارة التي هتفت بها (نازك) بانفعال ملوحة ببضع أوراق مالية في وجه (عمر)، وهما يقفان عند طاولة قرب باب الشقة، وضعت عليها أكياس بلاستيكية تحوي بعض الأطعمة. أما الضحك فقد جاء من كل مكان فيه فرد أو أكثر من العائلة، الصالة والشرفة وغرف النوم، والمطبخ الذي خرجت منه (زينب) مبتلة اليدين، غارقة في الضحك وهي تقول:

- «سمعتها فين دي يا (نازك)؟؟»

- «لسة مألهاها حالاً والله».

قالتها وعدوى الضحك تنتقل لها مختلطة بالعبوس الذي يكسو وجهها، لتعود (زينب) وتقول من بين ضحكاتهما:

- «يخرب عقلك! بتجيبني الكلام ده منين؟!»

- «من غلبي يا اختي، من اللي بشوفه».

- «إيه بس؟ عمل إيه؟؟»

- «الراجل بتاع السوبرماركت ضحك عليه وإداله الباقي ناقص عشرة جنيه».

- «معلش ملحوقة. انزل يا (سعيد) شوف الموضوع ده».

قبل أن تنهي عبارتها، كان الأخير عند باب الشقة يرتدي حذاءه، ماداً يده إلى خالته التي ناولته قائمة الطلبات والنقود، قائلة:

- «معلش يا حبيبي هنتعبك».

- «لا يا طنط مافيش تعب ولا حاجة».

قالها مغادرًا الشقة سريعًا، و(نازك) تتابعه بعينيها، قائلة:

- «ربنا يحميك يا ابني».

ثم أدارت عينيها نحو ابنها، وهزت رأسها بأسفٍ ساخط، ثم ابتعدت.

شبرا

7 أغسطس

2016

- «مش هتتعشى يا (عمر)؟»

في موضعها المعتاد عند باب غرفته، ألقت (نازك) سؤالها عليه بهدوء، ليجيب باقتضاب:

- «لا شكرًا».

- «طب أنا هدخل الأكل في التلاجة، ابقى طلعه إنت واغرف».

- «ماشي».

- «بس سخنه الأول».

- «حاضر».

كادت تغلق الباب لكنها عادت تفتحه وتقول:

- «ولأ تحب أغرف لك أنا؟»

- «أي حاجة يا ماما، مش مهم».

قالها بعصبية فرفعت يدها قليلاً كأنها تهدئه، وهي تبتسم بارتباك كأنها تعتذر، قبل أن تتراجع مغلقة الباب وهي تقول:

- «هغرف لك».

لم يبادلها الابتسام، وظل مقطباً حتى اختفت خلف الباب المغلق، فما إن فعلت، حتى لان وجهه قليلاً وهو يطلق زفرة كادت حرارتها تصل عبر سماعة التليفون المحمول لـ (نرمين) التي سألته بحذر:

- «مشيت؟»

- «أيوه».

- «...».

- «ساكنة ليه؟؟»

- «حاسة إنها هتيجي تاني».

- «حاسة؟!»

ومع آخر حرف في تساؤله الساخر، فتحت (نازك) الباب بالفعل دون طرق، قائلة:

- «ما عندكش حاجة عايضة تتغسل؟»

- «لا».

قالها بحدة بدت وكأنها لم تتأثر بها ولا حتى لاحظتها، وهي تخطو

بهدهوء داخل الغرفة لتتفقد الملابس المعلقة على مشجب خلف الباب،
ثم تلك المطوية على المقعد الذي يضع ملابسه عليه، قائلة بنفس
الهدوء:

- «متأكد؟ مش ناسي حاجة هنا ولأ هنا؟»

لم يجب، لم يعط أي ردة فعل ولم يقل كلمة واحدة، لكن غضبه
كان جليًا لدرجة أن (نرمين)، التي لا ترى وجهه ولا يصلها منه إلا
صوت أنفاسه في سماعة التليفون، شعرت به بوضوح، كادت معه
تراه بعين الخيال، وهو صامت جامد مقطب الجبين، يراقب أمه
بنظرات، لو كان الشرر المتطاير منها يصعق، لاحتترقت في مكانها.

وحين انتهت أخيرًا من تنقيبها وسط الملابس، والذي لم تخرج منه
بشيء، غادرت الغرفة دون كلام، وظل هو بعد رحيلها واجمًا متجهمًا،
معقود الحاجبين متشنج الفك، حتى قالت (نرمين) أخيرًا، بقلق حذر:

- «(عمر)، انت هنا؟ انت كويس؟؟»

لم يلن وجهه هذه المرة وهو يجيبها كالمنوم مغناطيسيًا:

- «أيوه يا (نرمين) .. معاكي..».

- «ماما انتي مش هتبطلّي اللي بتعمليه ده؟؟»

قالها (عمر) بعصبية فانتفضت في مكانها رافعة عينيها من تليفونها
المحمول إليه، قائلة:

- «فيه إيه؟؟ أنا عملت إيه؟!»

- «عايزة توصلي لإيه طيب؟؟ عايزة توصليني لإيه؟؟»

- «إنت بتتكلم عن إيه؟؟ أنا مش فاهمة حاجة!»

- «فعلاً؟! هو ده التكنيك اللي هتتبعيه المرة دي؟؟ تمام، أقول لك أنا بتتكلم عن إيه.»

قالها ثم جلس في مواجهتها، مكملًا:

- «..عن الساعة اليتيمة اللي بكلم فيها (نرمين) كل ليلة في التليفون، اللي بالصدفة بتظهر خلالها كل الحاجات اللي بتخليكي تدخل علي الأوضة خمسين مرة عشان تقاطعي المكالمة، مش هتتعشى؟ ما عندكش غسيل؟ مش هنقعد مع بعض؟ خالتك جت، بنت خالتك جات، شوف لي التليفون ماله، مش هتتعشى ثاني؟؟»

صمت قليلًا ليلتقط أنفاسه، ثم تابع:

- «وبالصدفة برضو، أول ما أقفل السكة، خلاص، بح، كل ده بيخلص فجأة! تبقي لسه حالًا قايلة لي تعالى عشان تشوف لي مش عارف إيه، أقفل مخصوص وأجي، ها يا ماما، خير؟ خلاص مش عايزة حاجة! إيه؟! إيه كل ده؟! إيه واخدة موقف من (نرمين) أصلاً؟!»

- «آديك قلتها بنفسك، الساعة اليتيمة، الوقت الوحيد اللي بقدر أشوفك فيه، بتقضييه كلام معاها في التليفون. أنا بقى اللي عايزة أسألك فيه، بعد ما بتقضي معاها اليوم بطوله، فيه بتستنكف تقضي ساعة واحدة بس معايا أنا؟!»

- «أنا مش معاها اليوم بطوله، ولا بشوفها كل يوم أصلاً زي ما

انتى متخيلة، ولو كل اللي مضايك منها إنها واخداني منك، ليه لما بقعد بقى معاكي بتتعمدي تفتحي موضوع الجواز من (صافيناز) كأنك قاصدة تغيظيني، كأن (نرمين) مش في حساباتك، مش موجودة أصلاً»

- «أهو الكذب ده اللي مخليني واخدة موقف منها. أقال بتروح فين طول اليوم؟! انت عمرك ما كنت بتكذب عليا يا (عم)، ومابدأتش تعمل كده إلا من ساعة ما عرفتھا».

- «أنا مش بكذب».

- «لأ بتكذب، والبنت دي تأثيرها السيء واضح جدًا عليك، في كل حاجة مش في الكذب بس. أنا من الأول قلت لك إنها مش مناسبة ليك، وإن أنا مش مرتاحة لها، كفاية إنها معصياك على أمك اللي الرسول وصاك عليها».

خيم صمت قصير بعد عبارتها، تفرس خلاله في وجهها قليلاً، قبل أن يقول:

- «من إمتى يا ماما؟!»

- «هو إيه ده اللي من إمتى؟؟»

- «من إمتى بتعتبري الكذب حاجة سيئة؟! ما إحنا طول عمرنا بنكذب وبنخبي على بابا عادي، إيه اللي حصل؟!»

- «أنا كنت بكذب على أبوك عشانك، عشان خايقة عليك من بطشه».

- «بس؟ ماكذبتيش عشان أي سبب ثاني؟»

- «إنت بتكلمني كده ليه يا (عمر)؟! هو تحقيق؟! هي اللي قايلة لك
تكلمني بالطريقة دي؟؟ ضحكت على عقلك وفهمتك إن عقوقك لأمك
شطارة؟؟»

- «إيه ضحكت على عقلي دي؟! هو أنا عقلي خفيف؟!»

- «ماقلبش الترابيزة وتمسك لي على الواحدة».

- «لا دي مش واحدة، انتي على طول بتتكلمي معايا بالطريقة
دي».

- «طريقة إيه؟؟»

- «طريقتك اللي دايمًا بتحسني إني قليل وفاشل ومشوّه
وغبي».

- «أنا يا (عمر)!! إمتى حسستك بكده؟؟!»

- «طول عمرك.. صيدلة مش هتقدر على دراستها، أبوك عقدك
وشوهك نفسيًا وجسديًا، فضلت أشوف حالتك وهي بتسوء قُدام
عيني، حياتك كانت هتخرب أكثر، كان هيحبسك في البيت زي
البنات، أبوك دمرك، خايفة يجننك حي وميت. ومش بيني وبينك
بس، لا، قُدام الناس كمان، هتعيش غبي وتموت غبي، البقال ضحك
عليه، هيتجنن ويتلبس. كفاية كده ولأ أقول كمان؟؟»

- «.. أنا.. أنا أصلًا مش فاكرة إني قلت الكلام ده!»

- «ما ده الجديد بقى، تشكيني في عقلي.. ماقلتش، ماسمعتش،

ماحصلش، ماكانش فيه صوت في الحمام، الثوتة ماكانتش في الدرج، أنا عملت كده؟! أنا حسستك بكده؟! كان بيتهياً لك، ماتوهمش نفسك، أنا قلقانة عليك. وبعد كل ده، أول ما تعرفي إني احتمال أروح لدكتور نفسي.. أنا مش شايفة إن له داعي، فضفض لي أنا. ده انتي لو قاصدة تجننيني مش هتعملي كده!»

قالها وتراجع في مقعده لاهتًا، وران عليهما صمت قصير، قالت بعده بتأثر:

- «ياه يا (عمر).. كل ده جواك من ناحيتي؟!»

- «ده نقطة في بحر».

- «ماكنتش أعرف إن قلبك أسود أوي كده!»

- «اقلبي انتي بقى الترابيزة وطلعينني أنا اللي وحش. (قلبك أسود أوي)، الجملة الرسمية للجاني اللي عمل مصايب ومصرّ برضو يطلع طيب وبريء، لأ ومصدوم يا عيني من المجني عليه، الشرير أبو قلب أسود، اللي لسه فاكرها له».

- «أوام طلعتني الجانية؟! حولتني للشريرة اللي عملت كل المصايب ونسيت كل اللي أبوك عمله فيك؟! نسيت الرعب اللي كان معيشنا فيه؟!»

- «أبدًا، عمري ما نسيت، اكتشفت بس إن فيه فرق بينك وبينه».

- «إيه بقى الفرق ده؟؟»

- «هو خلاني أكرهه، إنما انتي بتخليني أكره نفسي».

العباسية

8 أغسطس

2016

كعادته مؤخرًا، دخل (عمر) إلى شقة (العباسية) وباطنه، على عكس ظاهره الهادئ الجامد، يضج بالمشاعر والأفكار. وكعادته أيضًا، دار بعينه دورة سريعة في المكان، قبل أن يتخذ مجلسه متناولًا الأجندة، ليواصل القراءة من حيث انتهى...

أجندة (فؤاد)

((في ليلة الهاتف تلك، اتخذت عدة قرارات، منهما اثنان رئيسيان. أولاً، ألا أترك مشاعري تدفعني لرد فعل متهور قد أندم عليه لاحقًا، كالانتقام أو الانفصال، بل إن أتروى وأفكر. وثانيًا، أن أترعر بالحدز، وبحماية تصد عني ما قد يطرأ تاليًا من أحداثات.

يقولون إنَّ الذكاء هو التظاهر بالغباء، وأنا لا أزعم أنني ذكي، فقط لا أحب كشف أوراقِي، وإظهار الذكاء إظهار للأوراق، تعرية لعقلك أمام خصمك، تسهل عليه التنبؤ بخطواتك التالية، وتجعله بالتالي، يسبقك دائمًا بخطوة أو أكثر. لهذا قررت التظاهر بالغباء، وبأن حيلة روح والدي قد انطلت عليّ.

كنت حتى تلك اللحظة، ورغم خبرتي في عالم الروحانيات، لا

أملك خدامًا من الجن. لم أشعر بضرورة امتلاكهم إلا تلك الليلة. كانوا الحماية التي قررت جلبها والتحصن - خفية - بها، مقررًا كذلك ألا أستخدمهم في رد أو انتقام، ولا حتى في استجلاب معلومات عن جدك، فقد رجحت أنه سيكون حصيًّا عصيًا على الاختراق، وأن نبشي خلفه سيلفت انتباهه ويعير حفيظته أسرع من اللازم، وهو ما لم أرده بالطبع، وقتها على الأقل.

في الباطن كان الحذر والترقب والموقف الدفاعي، وقرار جلب خدام من الجان في أسرع وقت. أما على السطح، فكان التظاهر بالبراءة والغباء، مع القليل من الندم على ما «فعلت»، والرغبة مما رأيت، دون إشارة - ولو غير مباشرة - إليه. على تلك الحال هبطت صباح اليوم التالي إلى شقة جدك في الطابق الأرضي كي أصلح الأمور مع والدتك، مستغلًا الأثر الطبيعي الذي خلفه أرق وقلة نوم الليلة الماضية على وجهي، من شحوب وهالات داكنة حول العينين، في إضفاء مصداقية أكبر على هيئتي، لأبدو في النهاية ممتنعًا مضطربًا شاعرًا بالذنب، كرجل أته روح والده الميت ليلاً لتنصحه بأم، امتعل له فور انبلاج الصباح.

أما والدتك، فلم آخذها بجريرة أبيها أو عائلتها، ولم أحقلها يومًا آثامًا لم ترتكبها، فلا تزر وازرة وزر أخرى. ولو لم تحدث واقعة الهاتف هذه من الأساس، لذهبت إليها من تلقاء نفسي كي أصالحها وأراضيها. فحتى ذلك الوقت، لم أكن قد رأيت منها أو عليها ما يسيئني لحد النفور، وكنت صادقًا حقًا حين وصفت ما حدث بيننا

بالخناقة العادية. حتى حين رحت أطلب رضاها، لم يستني منها
إعراضها في البداية، ولم أر في تمنعها إلا دلالة أنثويًا لم أجد فيه
بأسًا، ولا أنكرت عليها حقها فيه.

ما ساءني حقًا كان تدخل العائلة كلها في جلسة الصلح، كما في
واقعة الشجار نفسه، لكنني صبرت لأجل والدتك، ولأجلك وأنت بعد
جنين في رحمها. وبعد الكثير من الشد والجذب، تم الصلح أخيرًا،
وعادت المياه لمجاريها، مخلقة في نفسي ضغينة صغيرة، وحذرًا
كبيرًا.

قبل حادثة الهاتف، كنت أحتفظ بجل ما له علاقة بعالم الجن
والروحانيات - من كتب وأدوات وخلافه - في مكان خفي بغرفتي
القديمة، في الشقة التي تجلس فيها الآن، وبأقل القليل - الضروري
فحسب - في غرفة المكتب في شقتنا في (شبرا)، داخل درج
بمكتبي، لا تعرف والدتك عنه إلا أنه يحوي أوراقًا هامة، ولا أتركه إلا
مغلقًا بمفتاح لا يعلم مكانه سواي.

أما بعدها، فكان أول إجراء اتخذته، هو نقل كل شيء من (شبرا)
إلى (العباسية). أما ثاني إجراء فـ....))

العباسية

1993

كانت (فريال) قد اعتادت، منذ مدة طويلة، على عادة ابنها في

الاختلاء أحيانًا بنفسه في غرفته المغلقة عليه لساعات طوال. كان كلاهما صموتًا هادئًا، قليل الأسئلة والكلام، كما كان بينهما ما يشبه اتفاقًا ضمنيًا حول الكثير من الأمور، من ضمنها هذا الأمر. لا هي تسأل ولا هو يحكي، وفي نفس الوقت، لا هي تدعي عدم الفهم، ولا هو يفترضه، لكنهما لا يتحدثان عن الموضوع.

أما صمتها، فلم يكن عن رضا أو تجاهل لما يحدث، بقدر ما كان عجزًا عن الاعتراض عليه، ربما لأنها ظلت، طيلة حياتها، تحمل في نفسها بعض الخوف من ابنها، من قبل حتى أن ينخرط في عالم السحر والجان، وربما لشعورها تجاهه بشيء من الذنب، كونها تعرف أنها هي من دفعته، ولو غير عامدة، إلى ذلك العالم.

ورغم قطع الكرتون التي سدّ بها (فؤاد) نظارة باب غرفته، بل وحتى فتحات خصاص شرفتها، إمعانًا في العزل والعزلة، وبحجة حجب أي نذر، ولو يسير، من الضوء المتسلل الذي يُعجزه عن النوم، كثيرًا ما كانت (فريال) تشعر بما يحدث بالداخل، فتتجاهله عامدة مرغمة، خاصة بعد تلك المرة الوحيدة التي غلبها فيها، على غير العادة، فضولها، فاقتربت من الباب، ليأتيها من خلفه صوت أقرب ما يكون لمزيج من خوار وغرغرة، اقشعر له جسدها وقفّ شعر رأسها، لتهرول مبتعدة مرتعبة متسعة العينين، مقسمة ألا تقرب ذلك الباب ثانية أبدًا وهو مغلق.

لكن ما أراد (فؤاد) عمله هذه المرة لم يكن يحتاج لخلوة في غرفته فحسب، بل في الشقة كلها.

لم تكن (فريال) بطبعها اجتماعية أو كثيرة الاختلاط بالآخرين، خاصة بعد كل ما مرت به في حياتها، والذي زادها تقوقعًا وانغلاقًا على نفسها. لكن تلك القاعدة كانت تنكسر مع بضعة أشخاص، يمكن عدّهم على أصابع اليد الواحدة، من بينهم ابنة خال لها، قريبة إلى حدّ كبير من نفسها، أرملة لم تنجب، اعتادت، كل شهر تقريبًا، على زيارتها والمكوث عندها يومين أو ثلاثة، في شقتها التي تعيش فيها بمفردها في (بورسعيد).

وكان هذا، بالضبط، ما يحتاجه (فؤاد).

بعد أن أوصل أمه إلى محطة (مصر)، وتأكد من ركوبها القطار المتجه لـ (بورسعيد)، عاد (فؤاد) وحده إلى شقة (العباسية). أوصل الباب خلفه ثم طاف على نوافذ وشرفات الشقة يتأكد من غلقها بإحكام. ثم اتجه إلى غرفته، وبعد بضعة دقائق، كان قد أخرج منها ما يحتاجه ورصه على منضدة متوسطة الحجم في الصالة، جلس أمامها يرتب ويهيئ ما عليها، ويتأكد أن كل شيء صحيح وفي مكانه.

كتاب سحر صغير له غلاف خشن باهت اللون، فتحه على صفحة معينة، مبخرة نحاسية وكيس به خليط من بخور الجاوي والصندل الأحمر، قنينة تحوي ميعة سائلة أزال غطاءها، طبق صغير غويط، وورقة بيضاء متوسطة الحجم، وقلم من البوص.

قرّب منه أولًا الورقة والقلم والقنينة، ثم مستخدمًا الأخيرة كدواة للحبر، بدأ يخطط بالقلم الذي غمسه في الميعة، على الجزء العلوي

من الورقة، جدولًا صغيرًا كتب في خاناته أرقامًا، وبمحاذاة كل ضلع من أضلاعه: جبريل، ميكائيل، إسرافيل، عزرائيل. وفي الجزء السفلي، رسم مربعًا تتوسطه عين، عند كل ركن من أركانه، بشكل مائل كالوتر، كتب: سمسائيل، عينيائيل، كفيائيل، صرفيائيل.

فلما انتهى، أشعل البخور وهو يقول:

- «بخ بخ من بين أيديهم سدًا، روميخ روميخ ومن خلفهم سدًا، سلام قولًا من رب رحيم».

ثم طوى الورقة وألقاها فوق البخور المشتعل وهو يقول:

- «هاطوش خاطوش بل هم منها عمون، راطوش طاطوش فهم لا يعقلون».

فلما بدأت الورقة تحترق مع البخور متحولة إلى رماد، قَطَر فوق المبخرة بضع قطرات من الميعة، ثم أمسك بالكتاب وبدأ يقرأ من الصفحة التي فتحه عليها:

- «يا من تسمى بالأسماء، وكائن في عفا، أسألك باسمك الأسمى، وسرك المعقى، اهيا شراهما ادوناي، أدعوك بألف تأليف الأكوان، وميم الملك والسلطان، وسين سر الإحاطة والأمان، وكاف كفاية الأسواء والأشجان، وصاد الصمدانية بصيانة العالم من اختلال النظام والضمان، وبسر اللاهوتية المحتجبة عظمية الشان، يا قوي الأركان، يا يغموش طرغموش، جل الجليل صاحب الاسم الكبير، يا من هو في كل مكان ولا يحويه مكان، يا ذا العزة والجبروت، يا من بيده الملك والملكوت، سخر لعبدك الأشباح، ومكنه من أزمة الأرواح، حتى

لا يخرج عن حيطة تصريفه وقبضته إنس ولا جان، ولا ملك ولا أعوان، ولا مارد ولا شيطان، ولا زمان ولا مكان، ولا شيء مما يشمله نعت الإمكان، اهيا شراهيا ادوناي اصباؤت، بك أعطي وبك أمنع، وبك آخذ وبك أدفع، فلا أضام ولا أرام، ولا يرتع حول حماي ولا يحام، يا ذا الجلال والإكرام، ارعيش ارغشيش لغشون، فأغشيناهم فهم لا يبصرون».

مع آخر كلماته، توهج خليط الرماد والبخور من تلقاء نفسه ثم انطفأ دفعةً واحدةً كأن شيئًا نفخ فيه بقوة فجأة. ترك (فؤاد) الكتاب وتناول المبخرة بحرص وسكب ما فيها في الطبق الغويط، ثم تناول قنينة الميعة وصب منها القليل فوقه، وبالقلم، قلب المزيج حتى تجانس نوعًا، وصار له قوام سميك كبقايا القهوة في الفنجان.

ثم نهض، بالقلم في يمينه والطبق في يسراه. غمس الأول في العاني واتجه لأقرب حائط إليه، وبخط كبير كتب عليه: يا ربنا صدا. ثم انتقل للحائط الذي يليه، وبنفس الكيفية كتب: باعوثا هيعا. وعلى الحائط الثالث: باصعاق. وعلى الأخير: باصعيق.

كرر ذلك على حوائط جميع غرف البيت، فلما انتهى، عاد لمجلسه الأول، وقال بصوت عالٍ:

- «برهتية برهتية، تتلية تتلية، مزجل مزجل، برهش برهش، شمخاير شمخاير، بدوح بدوح، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، اهيا شراهيا ادوناي اصباؤت، أوفوا بعهد الله، اهيا شراهيا آل شداي سمعيل، احترق من عصي أسماء الله، الوحا الوحا، العجل العجل، الساعة الساعة».

مرت بضع ثوانٍ لم يحدث فيها أي شيء، وفجأة، خفتت إضاءة الشقة كلها، ليس الصناعية الخارجة من المصابيح الكهربائية فحسب، بل الطبيعية المتسربة من خصائص النوافذ والشرفات كذلك، كأنما تنبعث كلها من مصباح كيروسين واحد، خفض أحدهم شدته بغتة.

ثم بدأت الكلمات المكتوبة على الحوائط تلتمع، تومض ببريق ناري غريب، كجمر يشتعل من تلقاء نفسه. كل الكلمات على جميع حوائط الشقة تألقت بنفس الطريقة في وقت واحد. ورغم أن (فؤاد) لم يكن يرى، من موضعه حيث يجلس في الصالة، إلا حوائطها وبعض حوائط غرفتي السفارة والصالون، فقد كان يحس بضي ذلك التألق منتشراً في الشقة كلها، ملقياً ظلالاً غامضة مخيفة، كشموع حمراء تنأثرت في كل مكان.

ثم راح الوميض يزداد حدة وتألقاً بسرعة، في كل موضع في نفس الوقت، وبالتزامن مع صوت فحيح قوي انبعث بغتة من كل مكان ولا مكان، كأن الحوائط نفسها تصدره.

فجأة، توقف كل شيء دفعة واحدة، الفحيح والوميض الناري المنبعث من الكلمات، حتى الكلمات نفسها اختفت بلا أثر، كأن الحوائط امتصتها أو ابتلعته. أما إضاءة الشقة، فقد عادت ترتفع بشدة كأن التيار الكهربائي اندفع في الأسلاك بقوة عالية مفاجئة جعلت بعض المصابيح تحترق مصدرة فرقعات عالية، سمعها (فؤاد) تأتي من ثريا غرفة الصالون، ومواضع في الجزء الداخلي من الشقة، لم يتمكن من تحديد مصدرها.

عادت بعدها الأضواء تخفت من جديد، ليس للحد الخفيض جدًا الذي كانت عليه منذ قليل، لكن أيضًا، ليس للمستوى الذي كانت عليه في سيرتها العادية الأولى، كأن القدرة الكهربائية لكل اللمبات نقصت قليلًا، أو بالأحرى، كأن غلالة داكنة غلفت كل النوافذ والمصابيح، جاعلة الشقة كلها ضبابية خافتة الإضاءة.

أجندة (فؤاد)

((...منذ تلك اللحظة، اكتسبت الشقة عدة خصائص، منها ثلاث جوهرية، كانت هي مقصدي من الأساس، ويمكنك فهمها على أنها ثلاثة خطوط دفاعية. أولها، خط التعمية، وهو أنها صارت مموهة في أعين الجان، مموهة لا خافية، أي لا يتمكن من رؤية حقيقة ما يحدث بداخلها إلا من أسمح لهم فقط بذلك، وبالنسبة لأي جان آخرين، هي نقطة عمياء، أو بمعنى أدق، مُعقاة مموهة، إن ظُلب من أي جني مراقبتها ومعرفة ما يدور بداخلها، نُقلت له صورة زائفة مضللة، مغايرة تمامًا لما يحدث بالفعل.

ثانيها، خط التحصين الخارجي، والذي يمنع الجان من دخولها دون إذني، فإن حدث وتمكّن أي جني من تجاوز خط الدفاع الأول، واكتشف ما يحدث بالداخل، أو أراد الدخول لأي سبب، رُجِرَ ومنع.

أما الثالث، فهو تحصين داخلي، يُضعف قوة من يدخلها من الجان - حتى من أسمح لهم بذلك - إلى درجة تهبط بقدراتهم هبوطًا عظيمًا، يحجّم من تأثيرهم إلى حدّ كبير، ويجعل الراغب منهم في الإيذاء، غير قادر عليه.

وهكذا، صارت الشقة ملاذًا آمنًا أمارس فيه أي نشاط روحياني
أحتاج إليه، بعيدًا عن عين جدك ويده، فلا يتسنى له - أو لا يسهّل
عليه على الأقل - كشف قدراتي أو تحركاتي، كي أسبقه دائمًا
بخطوة، فإن كشفني، لا أكون هدفًا سهلاً لضربات.

شبرا

8 أغسطس

2016

وصلت أصوات الحديث والضحكات لأذن (عمر) من داخل شقتهم
قبل حتى أن يولج مفتاحه في بابها، ليقطب وقد فهم ما رجح أن
هذا يعنيه، أن خالته (زينب)، وربما صاحبة الجلالة «فيفي» كذلك،
بالداخل مع أمه، ليدير المفتاح في الباب، داعيًا الله في سره ألا
تكون جلستهن في موضع يضطره للمرور عليهن في طريقه إلى
غرفته، فهو غير قادر ولا راغب حقًا في التبسم حتى في وجه أحد.

كاد يتنفس الصعداء حين دفع الباب ودخل ليجد صالة الشقة
خالية، ليرجح أنهم في غرفة الجلوس أو غرفة نوم أمه أو إحدى
الشرفات. لكنه فوجئ بالأصوات تأتيه من غرفة الصالون. عجيبة!
لماذا تعامل أمه أختها، وابنتها إن كانت معها، معاملة الضيوف
الواجب استقبالهم في الصالون، وأفراد عائلة أمه كلهم أصلًا أقرب
لبعضهم البعض من حبل الوريد؟! هل معهن ضيف مثلاً أو شخص
غريب؟؟

صك أذنيه في تلك اللحظة صوت رجولي يأتيه مختلطًا بصوتي أمه وخالته. يا للقرف. مَن هذا هو الآخر؟؟ زوج خالته أم أحد ولديها؟؟ أم جده ربما؟ ولو، لا زال هذا لا يبرر جلوسهم في الصالون، وفي كل الحالات، ستقتضي قواعد اللياقة أن يمر عليهم ويجلس معهم، أو يلقي السلام على الأقل، ولّا اتهم بقلة الذوق، أو سنحت لأمه فرصة ذهبية لممارسة نشاطها المحبب جدًا إلى قلبها، انتزاعه من خلوته في غرفته كي «يسلم على الجماعة». لكنه لا زال لا يفهم، لماذا يجلسون في الصالون؟!

تبّا، لو كانت الجلسة كلها نسائية لوَقَرَت عليه كل هذا، كان التملص منها سيكون أسهل و... لحظة! هذا ليس صوت جده ولا زوج خالته، ولا أي من ابنيها.. صوت مَن هذا؟؟!

رنّ السؤال في رأسه وهو يتأكد بسرعة من تسوية هندامه وهيئته أمام المرأة المجاورة لباب الشقة، ويتأهب للتوجه للصالون، لتأتيه الإجابة قبل أن يذهب هو إليها، وبأسرع مما توقع.

فمن باب غرفة الصالون، خرجت أولًا خالته (زينب) هاشة باشة، يتبعها.. (راضي) مدير صيدليتهم! ما الذي يفعله هنا؟!

في النهاية خرجت (نازك)، ليسير العلائة نحو باب الشقة، نحو (عمر) الذي سمرته الدهشة في مكانه، وإن سارع بإخفائها خلف قناع من الهدوء تعلوه ابتسامة دبلوماسية، رسمها على وجهه في الوقت المناسب، قبل أن يرفعوا أعينهم نحوه وينتبهوا له.

لاحظ على الفور مزيج الارتباك والتوتر الذي ظهر على وجهي أمه وخالته حين رأتاه، لكنه حرص على إظهار تجاهله التام له، وهي

يحيي (راضي) بكياسة متبادلًا معه حديثًا ودّيًا قصيرًا، قبل أن يهبط معه إلى الطابق الأرضي كي يوصله بنفسه، ويفتح له بوابة البيت. فما إن انتهى من توديعه، موصدًا البوابة خلفه، حتى تبخرت الابتسامة من على وجهه، وإن ظلّ محتفظًا بهدوئه حتى عاود الصعود إلى الطابق الثاني، ليجد أمه واقفة عند باب شقتهم تودع خالته، متبادلة معها نظرات غامضة، وحديثًا هامسًا توقف فور أن رأتاه، ولم تلتقط منه أذنه إلا:

- «رّي ما اتفقنا».

والتي قالتها خالته، قبل أن تستدير نحوه بابتسامة عصبية، مربّطة على كتفه وهي تحييه وتودعه في نفس الوقت، ثم تهبط عائدة إلى شقتها.

- «راضي) كان بيعمل إيه هنا يا ماما؟»

ألقي (عمر) السؤال بهدوءٍ على (نازك) المتشاغلة بإزالة آثار الضيافة عن غرفة الصالون التي جلس هو على أحد مقاعدها. انتظر إجابتها فلم تُجبه، ولا بدا عليها حتى أنها سمعته، وهي تتابع ما تفعله، فعاد يقول:

- «ردي عليا يا ماما لو سمحتي».

نفس التجاهل، حتى تعبير وجهها البارد الجامد لم يتغير.

- «لا ما انتي لو فضلتى ساكتة كده أنا دماغي هتروح في اتجاه مش تمام».

هنا فقط التفتت إليه بغضب ملأ وجهها وصوتها وهي تقول:

- «اتجاه إيه اللي مش تمام يا قليل الأدب؟! ما خالتك كانت قاعدة معانا قُدامك ومانزلتش إلا لما نزل».

- «حلو، هو كان هنا ليه بقى؟»

- «وانت بتروح فين كل يوم؟؟»

- «ماترديش على السؤال بسؤال».

صرخت في ثورة:

- «إنت إزاي تكلمني بالطريقة دي؟! أنا أمك، أنا اللي ليا الحق أسألك بتعمل إيه وتروح فين وتيجي منين».

فصرخ هو بصرامة:

- «وده بيتي، لما أرجع ألاقى راجل غريب قاعد فيه، أنا اللي ليا الحق أسأل كان هنا ليه وبيعمل إيه».

- «بيتك؟!»

- «آه بيتي، وأنا راجل البيت، ولازم أعرف الواد ده كان هنا ليه، وإزاي تدخليه وتقعدي معاه في غيابي وبدون علمي؟؟!»

- «إيه قوة الشخصية اللي نزلت عليك فجأة دي؟! بتتشطر عليا أنا؟! مابتسترجلش كده ليه قُدام اللي عاملاك خاتم في صباعها وممشياك على كيفها؟!»

اتسعت عيناه في مزيج من الغضب والألم والذهول، وتكورت

قبضتاه بقوة وهو ينهض فجأة بحركة حادة جعلتها تتراجع بظهرها بسرعة لتسقط جالسة على أحد المقاعد، في حين اندفع هو نحوها رافعاً قبضته اليمنى بحركة هجومية جعلتها تطلق صرخة فزع قصيرة وهي تنكمش على نفسها رافعة ذراعها بشكل غريزي دفاعي أمام وجهها. لكنه لم يمسه، بل انحرف بقبضته المندفعة إلى اليسار، إلى زجاج درفة باب الشرفة الذي اخترقه بدوي عنيف، قبل أن يعود ليستدير نحوها كأنه لم يفعل شيئاً، قائلاً بغضب معلوج:

- «(راضي) كان هنا ليه؟»

رفعت رأسها مزيحة ذراعها عن وجهها ببطء متسعة العينين، ليتشتت بصرها بين الفجوة المحاطة بالشروخ في لوح الزجاج، وهيئة ابنها التي بدت غريبة مخيفة، بقطع الزجاج الحادة البارزة من قبضته المتشنجة الدامية، ووجهه الذي اجتمعت فيه حمرة الغضب وبرودة العلاج، فتقول مذعورة:

- «إيدك.. الإزازا»

- «كان هنا ليه؟؟؟»

شحب وجهها وارتعد جسدها مع صرخته الحادة الهادرة، لتقول بخوف:

- «كان بيحب لي فلوس».

- «فلوس إيه؟! انتي مش قُلتِ لي إنك رُحتِ الصيدلية خدتِ منه الإيراد بنفسك من كام يوم؟!»

- «دي مش فلوس إيراد».

- «أمال فلوس إيه؟؟»

- «.. من البنك».

- «بنك؟! بنك إيه؟؟ أنا مش فاهم حاجة!»

- «مبلغ كنت محتاجاه.. خليته يسحبه لي من حسابي في البنك».

قال بعدم فهم:

- «يسحبه لك من...؟!»

بتر عبارته وارتسم على وجهه وجوم الفهم وهو يسقط جالسًا على أقرب مقعد له، قبل أن يقول بذهول:

- «...انتني عاملة له توكيل؟!»

- «آه».

- «عام؟!»

- «أيوه».

- «من إمتى؟؟»

- «من كام يوم».

- «يوم ما ضحكتي عليا وقلتي لي إنك زحتي الصيدلية؟!»

- «لأ أنا زحت الصيدلية فعلاً يومها».

- «بس خبيتي الجزء بتاع التوكيل».

لم ترد، فعاد يقول، ومعالم الصدمة والأسى محفورة على وجهه:

- «مش ده التوكيل اللي كنتي هتعمليه ليا أنا؟!»

- «وأنا عارفة أكلمك ولأ أشوفك حتى؟!»

- «ده عذرك؟! ده المبرر اللي خلاكي تعملي توكيل لراجل غريب وابنك عايش؟!!»

- «(راضي) مش غريب، ده عشرة عمر ومحل ثقة، وأبوك أصلًا اللي معينه».

نهض صارخًا:

- «تقومي تسلميه رقبتك ورقبتي معاكي؟!!»

فصرخت بدورها:

- «وإنت مالك ومالي؟! ما إنت ليك فلوسك وأنا ليا فلوسي!»

- «والشقة اللي إحنا عايشين فيها؟! والصيدلية اللي هي أصل راس مالنا ومصدر دخلنا الأساسي؟! نسيتيهم؟! إحنا مش شركا بالورث فيهم؟! انتي كده دخليته معانا!!!»

قالها بوجه محتقن وعروق نفرت من شدة الحنق، قبل أن يتابع باستنكار غاضب ذاهل:

- «انتني إزاي أصلًا تعملي فيا كده؟! إزاي تكسريني قُدامه كده؟! أحط عيني في عينه إزاي أنا دلوقت بعد ما عرف إن أمي فضّلتَه عليا ووكلته بكل ما تملك؟!! انتني.. انتني مدركة انتني عملتي إيه؟!! عملتي سعر لواحد مايسواش! خليتي حتة موظف حقير بيشتغل عندي.. يبقى شريك ليا في ملكي!!!»

- «مافيش داعي تغلط فيه، هو ماأذاكش في حاجة عشان تتكلم عنه بالطريقة دي».

كادت عيناه تخرجان من محجريهما وهو يندفع نحوها صارخًا بجنون:

- «انتى بتدافعي عنه كمان؟!!! انتى بتعملي معايا كده ليه؟؟!! هو مين فينا ابنك؟!! أنا ولأ (راضي)؟!!!»

رفعت يدها قليلًا بخوف كأنما لتتقي هجومًا محتملًا منه، ثم صرخت باكية فجأة وهي تقول:

- «إنت مش شايف إنت بتعمل فيا إيه؟!! يا ريتة كان ابني، والله لو خيروني لأختاره هو».

تجمد (عمر) في مكانه أمام أمه بعد عبارتها الأخيرة، وتقلص وجهه وارتجفت شفاته، لكن كل هذا لم يكن نذيرًا بالبكاء كما كان يبدو، بل بانفعال بدا أعنف من كل ما سبقه منذ بداية حديثهما، اكتملت هيئته باتساع عينيه وفتحتي أنفه، وتشنُّج فكه وركن فمه، كأنما أصابه مس أو جنون. ثم بدأ جسده ينتفض بالتزامن مع صوت بدأ يخرج من بين شفتيه المتشنجتين، الصوت الغريب الذي كان يخرج منه أثناء ضرب أبيه له، كأنه يزمجر أو يزوم، و(نازك) تردد بذعر:

- «سلام قولاً من رب رحيم! فيه إيه؟! بتعمل كده ليه؟!»

فلم يجب ولم يتحرك من مكانه، فقط ارتفعت زمجرته لحد مرعب،

ويده اليسرى السليمة ترتفع بدورها، لتعتصر (نازك) صدرها بيدها فجأة متأوهة صارخة بأعلى صوتها:

- «آآآآه!!! إنت عايز إيبويه؟؟ عايز مني إيبويه؟؟ عايز تموتني زي ما مَوْت أبووووك؟؟!!»

لم تسمر الصدمة (عمر) في مكانه تلك المرة، بل دفعته، حرفيًا، للخلف. تقهقر ساقطًا على أقرب مقعد له كمن تلقى ضربة قوية على صدره أخلت بتوازنه، مفسحًا الطريق أمام (نازك) التي انتهزت الفرصة لتهب من مقعدها وتندفع خارجة من الصالون وهي تولول بانهيان:

- «يا (زينب)، يا (زينب) الحقيني، يا (زينب)!!!!!!».

أما هو، فلم يتبعها ولم يقل شيئًا، بل أكملت يده الصاعدة لأعلى طريقها حتى وصلت لأزرار قميصه العلوية تمزقها طلبًا للمزيد من الهواء، وهو جالس في مكانه حيث سقط، غارقًا في ملكوت ما فجرته أمه للتو في وجهه، لا يعرف ولا يفهم شيئًا عن الجلبة التي بدأت تعلو خارج الصالون، وقد غطى الطنين المدوي داخل رأسه عليها، فلم يفق، ذاهلًا، إلا على خالته (زينب) وهي تقتحم عليه الغرفة بوجه ممتقع، هاتفة:

- «أمك مالها يا (عمر)؟؟ عملت فيها إيه؟؟!!»

نهض (عمر) بصعوبة تابعًا خالته التي خرجت إلى الصالة بعد

هتافها، ليطالعه المشهد المهيّب، أمه ممددة بلا حراك على أرض الصالة، مغمضة العينين كالمغمى عليها، وخالته جاثية على ركبتها بجوارها، تحاول إفاقتها بلا جدوى وهي تصرخ بذعر:

- «ماتت؟؟ أمك ماتت؟؟!!»

اندفعت (صافيناز) من باب الشقة المفتوح في تلك اللحظة دامعة العينين، ممتعة الوجه هي الأخرى، وهي تقول:

- «أعمل إيه؟؟ أطلب الإسعاف ولا أعمل إيه؟؟»

شعر (عمر) أنه يحلم، تسمر في مكانه، للمرة الألف تلك الليلة، محدقًا بلا وعي في جسد أمه الساكن الممدد على الأرض، بوجه ينافس شحوب وجهها، لا ينطق ولا يتحرك مثلها. نسي يده المصابة وما حدث بينهما منذ قليل، نسي حتى ما قالت قبل أن... أن ماذا؟؟! سيكون ذلك آخر ما يسمعه منها؟؟! آخر ما تقوله على الإطلاق؟؟!! أحس بروحه تكاد تنسحب من جسده والفكرة تتجسد كحقيقة مروعة في عقله، و(صافيناز) تطلب الإسعاف بالفعل، و(زينب) تلطم مواصلة صرخاتها:

- «إنت عملت إيه؟؟! عملت في أمك إيه؟؟!»

أخيرًا تحرك لسانه بصعوبة، ليقول:

- «ما عملتش حاجة.. والله العظيم ما عملت حاجة».

لم تأتِ الإسعاف، أو بالأحرى، لم تتمكن (صافيناز) من إعطائهم

عنوان البيت بشكل صحيح، لتقرر (زينب) أن يسارعوا، هم بأنفسهم، بأخذ (نازك) الغائبة عن الوعي إلى المستشفى. كانوا جميعًا بملابس الخروج، حتى (نازك) نفسها، لذا، تحركوا بسرعة البرق. ركض (عمر) أولاً إلى الحمام ليغسل يده المصابة، بعد أن نزع منها قطع الزجاج التي كانت كبيرة الحجم قليلة العدد لحسن الحظ، كي يتمكن من تحريكها والتعامل بها، وحين عاد، تعاون مع خالته وابنتها على حمل أمه والهبوط بها لسيارته التي قادها بسرعة جنونية، غير عابئ بيده التي لا تزال تنزف، إلى أقرب مستشفى.

- «هي الحالة خطيرة يا دكتور؟؟»

ألقى (عمر) سؤاله بقلق على طبيب الطوارئ الذي سأله بدوره:

- «مين حضرتك؟»

- «أنا ابنها».

- «هو إيه اللي حصل بالضبط؟»

خُيِّلَ له أنه سمع في سؤال الطبيب رنة اتهام خافتة أشعرته بمزيج من الخزي والذنب، ليختلس النظر للستار الذي ترقد خلفه أمه بصحبة (زينب) و(صافيناز)، قائلاً بخجل وانكسار:

- «حصل موقف يعني.. زغلها جامد و... هي عندها إيه؟؟!»

حدجه الطبيب بنظرة لم يفهمها إلا حين أجابه قائلاً:

- «ما عندهاش حاجة أصلاً».

ثم ابتعد وهو ينفخ في ضيق.

ورغم ذلك، رغم أن الطبيب نفسه قال إنَّ (نازك) بخير تمامًا ولم يصبها أي مكروه، ثمغ (عمر) بوصمة الابن العاق الذي كاد يقتل أمه! لتشئف أذناه بمحاضرات جميلة طويلة في حب الأم وفضل الأم وعظمة الأم، وشناعة إغضاب الأم، مع الكثير من العتاب واللوم والتأنيب والتقريع، من (زينب)، بل وحتى من (صافيناز)، طوال رحلة العودة إلى البيت، حتى شعر أنه لا يقود سيارة، بل يركب حمازًا بالمقلوب.

الغريب أن أحدًا لم يكثر كثيرًا بما أصابه هو، بيده التي ظلَّ يبدل المناديل الورقية عليها، كلما تخضب واحد بالدماء، رماه وغطاها بغيره. لم يُسأل عنها إلا سؤالًا عابرًا لا إلحاح ولا اهتمام حقيقي فيه، استصغارًا لأمرها ربما، أو عقابًا له على ما «فعله» بأمه، حتى هو نفسه نسيها لدرجة أغفلته عن طلب تضميدها في المستشفى، ليضمدها بنفسه كيفما اتفق، حين عاد إلى البيت.

الاهتمام الحقيقي كان، في المرتبة الأولى، بـ (نازك)، التي عادت للبيت واعية، لكن، لسبب لا يعلمه إلا الله، مترنحة متساندة على (زينب) و(صافيناز). يليها، في المرتبة الثانية، لوح الزجاج المكسور. لهذا، ما إن عادوا جميعًا للشقة، حتى اختفى (عمر) داخل غرفته ليعنى هو بجراح يده ونفسه، تاركًا لخالته وابنتها مهمة العناية بما يعنيهما حقًا، وهاربًا، في الوقت ذاته، من باقي أفراد العائلة الذين سرعان ما ملأوا الشقة للاطمئنان على أمه «الغلبانة»، ولوح الزجاج

العباسية

9 أغسطس

2016

.. زي ما مَوْت أبوك.

منذ الليلة السابقة، وتلك العبارة تتردد في عقل (عمر) وقلبه. نام وهو يفكر فيها، وصحا وهي ترن في أذنيه، ولازال صداها يتردد بداخله وهو يصعد لشقة (العباسية) ويفتحها ويدخل. لماذا قالت أمه ذلك؟! أهي حقيقة كانت تخفيها، خرجت منها رغماً عنها تحت ضغط شجار الأمس؟ أم عبثاً قالته لإغاضته وتعذيبه فحسب، كالذي قالته عن تفضيلها لـ (راضي) عليه؟ لكن.. هل كان ما قالته عن هذا الأخير، عبثاً حقاً؟

جلس في مقعده المعتاد وتناول الأجندة وعقله لا يزال يطن بأسئلته المتلاحقة. هل قتل أباه حقاً؟! هل قُتل أبوه أصلاً؟! أكان هذا ما تعنيه عبارته الافتتاحية في هذه الأجندة؟؟ «أسوأ كوابيسي قد تحقق؟؟» لقد قال بعدها إنه لا يعني الموت، فهل كان ما يعنيه هو القتل؟! وعلى يد ابنه الوحيد؟!

لكن.. كيف؟! كيف عرف والده أنه سيقتله؟! كيف تنبأ بالمستقبل؟! كيف يكون هو قاتل أبيه، وهو لم يكن موجوداً معه في نفس المكان حين مات؟! وكيف يكون أبوه قد قُتل أصلاً، وميتته كانت طبيعية

تمامًا؟! كيف يكون الانزلاق في حمام موحد من الداخل، أدى إلى صدم الرأس بحافة البانيو.. قتلًا؟!!

شعر أنه يكاد يختنق تحت وطأة كل هذا العدد من علامات التعجب والاستفهام، كل هذا القدر من الـ«كيف؟!»، والذي لم يجد له من إجابات، إلا احتمالين اثنين. الأول هو أول ما شعر به عقب وفاة أبيه، والذي أفضى به إلى أمه ليلتها، لتستخدمه ضده، على الأرجح، ليلة أمس، وهو أنه قتله غيظًا وكمدًا، في آخر شجار بينهما. الثاني هو تلك الفكرة المرعبة المؤرقة، والتي يدعمها كل ما يحدث حوله ولا يجد له تفسيرًا أو فاعلاً سواه، أنه مصاب بمرض عقلي جعله يقتل أباه فعلاً، بوسيلة ما، ثم ينسى أنه فعل.

كاد يصرخ باكيًا من هول الفكرة، لكنه شعر أنه يضيع وقتًا ثمينًا فيما لا جدوى منه، وأن الأجدى أن يكمل القراءة في الأجندة، علها تهديه إلى الحقيقة، فتخفف عنه ولو بعضًا من عذابه...

أجندة (فؤاد)

((كان أول ما فعلته، بعد تحصين الشقة، هو تحصين نفسي بخدام أو - كما يقال في الأوساط الروحانية - خدمة، من الجان. قمت بالطقوس داخل الشقة بالطبع، كما فعلت مع كل طقس أو نشاط روحاني بعد ذلك، وأمرت خدامي أن يظلوا دائمًا - حتى أطلب أنا منهم العكس - في حالة خفاء دائمة، لا يعرف معها من يراهم - حتى من الجن - أنهم في خدمتي. وكل هذا كي أكون - كما أخبرتك آنفًا

- خارج مرمى بصر جدك، ومتناول يده.

أما هو، فقد كان ذكياً بما يكفي كي يتجنب كثرة الصدمات المباشرة - من هذا النوع - بيننا، إذ لم يكن من مصلحة أي طرف من الأطراف - بمن فيهم هو نفسه - أن تتحول علاقتنا إلى حرب مستعرة مستمرة. كان أذكى من أن يستهين بي، رغم أنني أخفيت علاقتي بعالم الجان، ولم أظهر إلا كل براءة وسذاجة، لكنه يشبهني قليلاً في هذا الصدد، هو أيضاً يخفي حقيقة حتى عن أسرته، ويبدو في الظاهر ودوداً طيباً، بل و «على نيّاته»، لا تظهر عليه أي علامة تشير إلى علاقته بعالم الجان، لهذا لم يُطمئنّه مظهري الساذج الطيب ذاك بل أخافه أكثر، لأنه ذكره بنفسه، وجعله يشك أنني مثله ومن نفس نوعه.

لهذا اكتفى - ولمدة طويلة - بقرصة الأذن الأولى تلك ولم يأت بمثلها، رغم المشاكل والخلافات التي راحت تتكاثر بيني وبين والدتك - والعائلة كلها - باطراد.

أما والدتك، فكما لم أنكر أنني كنت ولا زلت أحبها، لن أنكر أنني شعرت أنها تبادلني هي الأخرى حباً بحب، لا سيما في بدايات علاقتنا، وشهور زواجنا الأولى، لكن...

وآه يا بني من «لكن» هذه. لشد ما يثقل على قلبي ويحز في نفسي، أن أسوّد الصفحات في كتابة ما يكره أي ابن أن يقرأ عن أمه، لكنني أقسم لك بالله، وبكل غالٍ ونفيس لدي، إنني ما أفعل هذا إلا تبرئةً لنفسي، ولو قليلاً، ولو من بعض ذنوبها فحسب، في عينك، فبقدر ما يعز عليّ تشويه صورة أمك في نظرك، يعز عليّ كذلك أن

أقضي أنا نحبي، وصورتي مشوهة بهذا القدر عندك.

أجل، أنا أعلم بالطبع أن صورتي عندك مشوهة، وأنت... لنقل: لا تحبني. ورغم وجهك وفمك المغلقان أغلب الوقت على ما في قلبك من مشاعر، من باب الأدب أو الخوف ربما، إلا أن الأمر واضح لي وضوح الشمس، فأنت ابني، وأنا أعرفك أكثر مما تتصور، وأعرف أنك «لولا الملامة» - كما يقولون - لقلت لي صراحة في وجهي، أنك تكرهني.

أعلم كذلك أن جزءًا لا يستهان به من هذا التشوه، هو غلطتي بلا شك، وأقرُّ وأعترف، كما سبق وأن أقررت واعترفت، أنني كنت أقسى عليك مما ينبغي، في كثير من النواحي، وأن أسلوب تربيته لك في المجمل، كان بعيدًا إلى حد كبير عن المثالية التي تصورته عليها.

لكنني أيضًا يا (عمر)، لست الشيطان الذي تظنه، ولا الوحش الذي تصوره لك والدتك - سامحها الله - حتى يومنا هذا. قسوتي عليك نارك من الممكن أن تسكب والدتك فوقها ماءً يخففها عن كليتنا، بدلًا من الزيت الذي تتعمد صبه عليها ليأججها كل يوم، انتقامًا مني، ورغبة في حرقني وحرق علاقتي بك، ناسية - أو متجاهلة - أنها تحرقك معي بنفس النار، وأن إفساد علاقة ابن بأبيه، لا يثمر خيرًا أبدًا، ويؤذي الابن كما يؤذي الأب، وربما أكثر.

تسألني لماذا ترغب والدتك في الانتقام مني؟ بسبب المشاكل التي تفاقمت بيني وبينها، قبل أن تتفاقم بيني وبينك، بل قبل حتى أن تأتي أنت للوجود. المشاكل التي قررت هي أن تمنح كليتنا فيها

دورين ثابتين لا يتغيران، أنا دومًا ظالم جاني وهي دومًا ضحية مظلومة. وبناء على ذلك، أصبحت في نظرها مُستحقًا لعقابها وانتقامها مدى الحياة.

كيف تفاقمت تلك المشاكل ولماذا؟ ما ذكرته للتو أحد أسباب ذلك التفاقم. خبرني أنت يا بني بالله عليك، هل تستقيم الحياة مع شخص يرى نفسه مظلومًا وعلى حق على طول الخط؟! هل يُعقل هذا؟! هل يوجد على وجه البسيطة شخص لا يخطئ؟! أعلم أن الاعتراف بالخطأ من أصعب الأمور على نفس أي إنسان، لكنه - بالنسبة لوالدتك - ضربًا من ضروب المستحيل!

هل تراني قاسيًا غليظ الطبع معها أكثر الوقت؟ هل سألت نفسك يومًا عن السبب؟ أراهن أنك تصورت أنها طبيعتي، أنني هكذا وُلدت وعلى هذا سأموت. لكنني أقسم لك إنني لم أكن هكذا في بداية زواجنا. أقسم إنني اعترفت لها بخطئي في حقّها مرارًا، بل واعتذرت مرارًا، فبماذا كانت تقابلني؟!

بكل ما يجعل المعتذر يندم، على اعتذاره لا على خطئه، بل ويقسم على عدم تكرار ذلك الاعتذار!

جفاء، صد، ترفع، تأنيب، بل وتوبيخ في بعض الأحيان! أي والله توبيخ.

خبرني أنت، من الرجل الذي يتحمل من زوجته هذا؟! من ذا الذي لا يفقد أعصابه أمام توبيخ امرأته له؟! من يصبر على كل ذلك لا بُدّ جبل من ثلج، وأنا لست ثلجًا يا بني، أنا إنسان حي من لحم ودم وأعصاب.

طبعًا فقداني لأعصابي هذا يؤدي غالبًا إلى ما لا يُحمد عقباه، وما أندم عليه - لاحقًا - من أقوال وأفعال، تستغلها هي للعب دور الضحية من جديد، وهكذا دواليك، حلقات مفرغة من مشاكل ندور داخلها، ومع كل دورة، تتفاقم الأزمة أكثر، كطبقات من وحل يتراكم فوق بعضه البعض.

الفكرة هنا أنني لم أرغب أن تخوض أنت في هذا الوحل. لكنك فعلت. جرجرت معنا - رغما عني وعنك - في مشاكل لا ناقة لك فيها ولا جمل ولا ذنب، مشاكل أنا آسف على إقحامك في الحديث عنها الآن، بقدر ما أنا حزين على إقحامك فيها وقت وقوعها، إلا أن هذه النقطة - في حد ذاتها - هي أحد أسباب مشاكلي مع والدتك، وفي الوقت نفسه، أحد الأشياء التي أرغب في تبرئة نفسي منها أمامك.

والدتك - للأسف - لا تكتفي بصب الزيت فوق النار بيني وبينك، بل تتعمد أن تجذبك لأي نار تشتعل بيني وبينها كذلك، تقحمك فيها كي تلفحك حرارتها، كي تشهدك علي، على أنني أعذبها كما أعذبك. هكذا تتشيطن صورتني في عقلك مرتين، فيتضاعف مقتك لي وسخطك علي، تارة لأجلك، وتارة أخرى لأجلها.

لكنها تنسى أو تتجاهل - في تلك الحالة أيضًا - أن الابن لا ذنب له بتاتًا فيما يقع بين والديه من خلافات، لا ينبغي أن يكون له فيها دور أو رأي، ولا أن يراها أو يسمعها أو يعلم عنها شيئًا أصلًا، لا سيما وهو طفل صغير.

وتدليلاً على ما أقول، سأطلب منك - آسفًا - طلبًا قاسيًا بعض

الشيء. غُد بذاكرتك للوراء قليلاً أو كثيراً، لأي شجارٍ شهدته بيني وبين والدتك. حاول الآن أن تتذكر كيف كنت تجد نفسك دائماً في بؤرته. من كان يشدك إليها؟ أو يحركها حتى تصل إليك؟))

العباسية

9 أغسطس

2016

رفع (عمر) عينه عن الأجندة والذكريات تندفع في رأسه دونما جهد. لم يرجع هو إليها بل أتنه هي طائعة من تلقاء نفسها، بادئة بذكرى برزت في رأسه بغتة، كمنقب في سد انبعثت منه المياه بعنف خلخل هيكله، فسمح لمنقب ثانٍ بالتكون، ثم ثالث، فراجع.. ذكرى ثاقبة تلو الأخرى، تكاد تقوّض السد كله، وتؤكد جميعاً أن... أن والده على حق!

أجندة (فؤاد)

((حين تكون بعيداً عن موضعنا، تصرخ بأعلى صوتها - وإن لم أمسسها - كي تسمعها ويسمعها البيت كله، فإن لم يجدي الصراخ، في حالة كونك نائماً في غرفتك مثلاً، تقتحم عليك الغرفة مولولة كأنها تفر مني إليك، مستنجدة بك حتى وأنت طفل صغير، يحتاج أصلاً لمن ينجده مما هو فيه. تقحمك قسراً في الشجار. تسألك وتطلب شهادتك حتى فيما لا علم لك به ولا شأن، أو ما قد تضطر

للكذب حياله من شدة الخوف، كأن حياتها متعلقة بإجابتك التي ستنقذها من أنياب وحش كاسر، هو أنا بالطبع.

وبالطبع أيضًا، حين يحاول هذا الوحش أن يُسكت صوتها، كأني إنسان طبيعي يكره الفضائح، أو أن يجذبها بعيدًا عنك رحمة بك مما لا طاقة لك به، من الضغط النفسي والعصبي الرهيب الذي لم ترحمك هي منه مذ كنت طفلًا صغيرًا، يبدو في ظاهره على صورة معاكسة تمامًا لما يضره، يبدو أكثر وحشية في عينك للأسف، بسبب تشنجه وعويلها ومحاولات تملصها، التي تجعلني كلها أبدو كحيوان ضارٍ بالفعل، يخنق فريسته ويجذبها بعيدًا عن الأعين، كي يلتهمها في هدوء.

أما إن فاتتك واقعة الشجار نفسها لأي سبب، كأن تكون خارج البيت مثلاً، فلا ترتاح حتى تحكيها لك دامعة حين تعود، أو على أقل تقدير، تريك آثارها على جسدها - إن وجدت - وكأنها لا تقصد أن تفعل، بطريقة عفوية في ظاهرها متعمدة في باطنها، معتمدة، أولاً، على عدم انتباهك - أو تجاهلك الذي لا ألومك عليه - لما تحدثه هي في من إصابات، بحركات تحسن إخفاءها، أو إظهارها في صورة مقاومة دفاعية في خضم الأمر كله، كالعض الذي جرحني به مرارًا، والخمش الذي كادت تفقأ عيني به أكثر من مرة.

ثانيًا، على صمتي، على طبيعتي قليلة الكلام، التي لم تكن أبدًا شاكية باكية تسلط الضوء على ما يشحنك ضدها، كما تفعل هي معي. وثالثًا، على كوني رجل وكونها امرأة، وبالتالي، تهون وthus تصغر أي إصابة تحدثها هي في، مقارنة بما أحدثه أنا فيها. لكن،

هل كل شكوى لها عن أمر فعلته بها، كانت حقيقية أصلاً؟

الإجابة القاطعة - والمؤسفة في الوقت ذاته - عن هذا السؤال هي: لا. معظم حالات الانهيار والإغماء التي تصيب والدتك هي في حقيقة الأمر - ويحزنني أن أقولها - تمثيل، حيلة ليس إلا، تكسب بها تعاطف من حولها، وتقلب بها الطاولة علي في معظم شجاراتنا، كي تظهرني بمظهر المعتدي الأثيم)).

العباسية

9 أغسطس

2016

- «بالضبط!»

اتسعت عينا (عمر) والكلمة تخرج منه بصوت عالٍ بلا وعي تقريبًا، وعقله يسترجع أحداث الليلة الماضية. هذا ما حدث معه بالضبط! ولولا أنه مرّ بنفسه بما يقرأ الآن في أجندة أبيه، لما صدّقه أبدًا.

أجندة (فؤاد)

((أما أهم سبب لتفاقم المشاكل بيني وبين والدتك، والعائلة كلها، هو العائلة نفسها، والتي تشعر فور اقترابك منها أنها كتلة واحدة موحدة المعالم، لا أفراد تختلف طبائعهم واختياراتهم في الحياة، كيان أقرب لطائفة دينية غريبة خفية، المنضم لها لا بُدَّ وأن يؤمن

بمبادئها، أن يذوب في نسيجها ويعيش بنفس طريقته، وإلا اعتبر مارقًا شاذًا، منبوذًا مدى الحياة.

الغريب أنهم لا يرون أنفسهم على تلك الصورة أبدًا، بل وينفونها عن أنفسهم بشدة إن اتهموا بها، مدعين كامل احترامهم للرأي الآخر، في حين أنهم لا يعترفون بفكرة الآخر نفسها أصلًا، أي آخر بالنسبة لهم عدو، آراؤه أخطاء لا آراء، ونظرتهم له تتلخص في عبارة: إن لم تكن معنا، فأنت إذاً ضدنا.

هذا بالضبط هو ما حدث معي، ثبتت وكُرهت ولُفظت معنويًا من الأسرة كلها، فقط لأن بعض آرائني لم توافق آراءهم، ولأن نمط الحياة التي أردتها لنفسي ولأسرتي، لم يكن مطابقًا لنمط حياتهم، ولا مستوفٍ لشروطهم. نفس الأمر تكرر مع (يوسف) زوج خالتك (زينب)، و(حسام) طليق خالتك (هالة)، بشكل مخفف مع الأول، وأعنف بكثير مع الثاني.

ثلاثتنا قابلته نفس الظروف لدى اقترابه واقتترانه بالعائلة، ولأن لكل منا شخصيته المختلفة عن الآخر، جاءت ردود أفعالنا وعلاقاتنا بالعائلة، مختلفة كذلك.

(يوسف)، ذو الشخصية الدبلوماسية المرنة، اختار طريق المسايسة، أو بعبارة أخرى، قرّر أن «يمشي حاله». لو نظرت إليه من بعيد لرأيتَه مندمجًا متناغمًا جدًا مع العائلة، في حين أنه يضمّر في نفسه شعورًا مخالفًا تمامًا لما يظهره، نادرًا ما يصرح به لسانه ومظهره، ويكاد يتطابق مع شعوري أنا.

بالنسبة لي، فأحسبك تعرف شخصيتي جيدًا، ما يظهر منها على

السطح الأقل، وهو أنني لا أحب الحلول الوسط ولا البين بين.
ما لم تكن تعرفه، وأحسبك فهمته الآن بعد كل ما قرأته، هو أنني
فقط أعرف متى أشد الحبل، ومتى أظهار بأنني أرخيه. وعلى هذا
الأساس، إن قلنا إن طريقة (يوسف) في التعامل هي المسايسة،
فيمكن القول إن طريقتي أنا، هي التلاعب.

كما ترى، فطريقتانا متشابهتان إلى حد ما. الفارق بيننا هو أنه
يرضى أو يفوت أحيانًا ما لا أقبله أو أتساهل أنا أبدًا فيه، ربما لأنه
ظلّ يحمل في نفسه بعض الرضوخ الحقيقي أمام سطوة جدك،
رضوخ لا أصمه بضعف الشخصية لأجله، لأنه نابع من خوف لا ألومه
عليه، ولم أره يومًا جبانًا بسببه، رأيتَه بشرًا فحسب، إنسانًا عاديًا لا
يملك ما يحمي به نفسه أمام جبروت لا قبل له به.

أنا نفسي - رغم كل ما أتحصن به - لا أزال خائفًا من جدك، حتى
وقت كتابة هذه السطور.. بل ربما كان خوفي هذا، هو ما دفعني
لكتابتها من الأساس.

والسبب في ذلك الخوف؟ ليس ما يملكه جدك من قدرات، بل ما
هو قادر على فعله بتلك القدرات.

السبب في خوفنا - أنا و(يوسف) - من جدك، هو ما فعله بابتته،
خالتك (هالة)، وطليقها (حسام)..))

العباسية

9 أغسطس

صوت الخربشة!

ارتفع رأس (عمر) بحركة حادة وجسده كله يتوتر كالقوس. أغلق الأجندة ووضعها ببطء على المنضدة، وعيناه المتسعتان معلقتان بمدخل الطريقة المؤدية للجزء الداخلي من الشقة، من حيث أتى الصوت، نفس الصوت الذي سمعه قبل ظهور (ميكى)، الفأر الأسود إياه، فهل هو مصدره هذه المرة أيضًا؟؟

جاءته الإجابة على سؤاله حين تكرر الصوت ثانية وكأنه يقترب قليلاً، ليتبين أنه ليس خربشة فحسب، بل حفيف كذلك، كأنه صادر عن احتكاك أوراق أو... ملابس، مع دقات على الأرض تشبه ال... خطوات.. خطوات أثقل من أن تصدر عن أقدام فأر، تسير بتؤدة في الطريقة مقتربة منه...

في جزء من الثانية، اتخذت غريزته، لا عقله، قرار الفرار، وفي الجزء التالي، قفز من مقعده إلى باب الشقة ليفتحه ويخرج ويغلقه، قبل أن يتراجع بظهره وعينه لا تزال معلقة به، بشراسته التي جعلتها إضاءة الصالة الفلورسنت، المشعة من خلف زجاجها المنقوش، أشبه بمسرح لخيال الظل.

تقهقر (عمر) حتى توقف عند أولى درجات السلم النازل لأسفل، وقلبه يصرخ به أن يكمل طريقه ويهبط، لكنه لم يفعل، سقره في مكانه فضول شيطاني راغب في الفهم.

بضع ثوانٍ مرت عليه كالدهر، احتدم خلالها الصراع بين خوفه

وفضوله. خُيِّلَ له أن مساحة ضبابية داكنة تكونت على شِزَاة الباب، حسبها في البداية من أثر التحديق المستمر، قبل أن يتبين أنها... ظِلٌّ أو خيال ظهر خلفها. ارتجف جسد (عمر) ويده المتعركة تتشبث بدرازين السلم كأنه ينشد فيه الأمان، أو يثبت به نفسه في مكانه، خشية أن ينتصر خوفه فتنهار ساقاه، أو تُطلقان للريح.

لكن المساحة الداكنة بدت وكأنها تزداد وضوحاً أو.. قريباً من الشِزَاة حتى.. حتى لم يعد هناك مجال للشك في وجودها وهيئتها.. هيئة شخص يقف داخل الشقة خلف الباب.

هنا فقط، استسلم (عمر)، وأطلق ساقيه للريح.

شبرا

9 أغسطس

2016

جلس (عمر) في غرفته على سريره مقطب الجبين، وتابلت الرسم أمامه، تارة يمسه ليقلب فيه بين اللوحات الثلاث العجيبة إياها، التي لا تزال تثير في نفسه رهبةً وخوفًا، وتارةً أخرى يشرد مفكرًا في كل ما حدث ويحدث، كل ما ينهال على رأسه من مصائب وغرائب، وبشكل عشوائي أصابه بالصداع.

أهو من قتل أباه حقًا؟ ما حل مصيبة التوكيل العام الذي منحته أمه لـ (راضي)؟ ما الذي فعله جده بخالته وطلقها؟ إجابة السؤال الأخير تستلزم العودة لشقة (العباسية) كي يكمل القراءة في الأجنحة ويفهم. لكن، كيف وهو خائف من مجرد التفكير في الشقة أصلًا؟!

ما بال هذه الشقة؟ ألم يبت فيها أيامًا وليالي من قبل؟ هل كانت مخيفة لهذا الحد وقتها؟ أم صارت أسوأ حين هجرت؟ هل رأى وسمع فيها، وهو طفل، ما يراه ويسمعه الآن، ونسي؟ أكان يسمع صوت الضحكات والركض الطفولي على السلم، ولا يفهم ما يعنيه؟ والأهم من هذا كله، من أو.. ما الذي ظهر خلف شراعة الباب؟ ذلك الشيء الذي ظهر مرتين، أولهما التي كانت أقل وضوحًا، في أول مرة ذهب فيها إلى هناك، والثانية التي كانت منذ بضع ساعات، وتثير رجفته حتى الآن.

لكن.. هل ظهر شيء فعلاً؟ أم أنها هلوسات عقله المريض؟ هل عقله مريض أصلاً؟ هل يصطحب معه للشقة شخصاً يثق به وبقدرته على كتمان سرها، كشاهد يؤكد له ما يحدث فيها أو ينفيه؟ أم يتجاهلها برمتها وينسى أمرها هي وأجندتها المخيفة مثلها، ويذهب مباشرة للطبيب النفسي؟

إن ذهب للطبيب، فما الذي سيقوله له؟ إن روى له كل شيء بصدق وأمانة، ألا يُعتبر هذا إفشاءً لأسرار أبيه، وخرقاً للعهد الذي طلب منه الالتزام به؟ وإن قرّر اصطحاب أحدهم إلى الشقة، فمن هو هذا الشخص؟ بمن سيثق وقد فقد الثقة في أمه نفسها؟ وكيف يضمن أن الشقة لن تتظاهر بالبراءة وقتها؟ وهي أصلاً تبدو بريئة عادية أغلب الوقت.

ما من طريقة أصلاً لمراقبة أي مكان طوال الوقت ومن كل الجوانب، إلا كاميرات المراقبة. لكنها طريقة فاشلة من كل الجوانب أيضاً. لن يستطيع تركيبها أو التعامل معها بنفسه لأنه، حرفياً، لا يفقه شيئاً عن الموضوع، ولا يستطيع الإتيان بخبير يقوم هو باللازم، لنفس السبب الذي ألغى الفكرتين السابقتين، السرية، التي ستمنعه أيضاً من تلبية احتياجه، الذي سيظل قائماً، لعين أخرى، لشاهد يراقب معه ما ستسجله الكاميرات، لأنه لم يعد يثق بعينه أو عقله هو.

كل المشاكل بلا حلول. كل الأسئلة بلا إجابات. شعر بالعجز، وبأن الصداع في رأسه يزداد حدة. عاد يمسك بالتابليت ويقلب بين اللوحات الثلاث. واحدة تمثله، وأخرى تمثل والده، أو قرين والده،

وثالثة تمثل مخلوقًا غريبًا مرعبًا. ما هذا؟ ما الذي يعنيه هذا؟ وهل يعني شيئًا أصلاً؟؟

فجأة، طرأت في رأسه فكرة، أو بالأحرى، ربط عقله بين أمرين، بطريقة جعلته يتساءل، ألا يحتمل أن تكون لهذه اللوحات، علاقة مباشرة بما ظهر خلف الشراعة؟؟ أن يكون أحدها معلاً؟؟ وما دام ليس هو نفسه بالطبع، فهل يكون قرين والده أو.. ذلك الكائن المخيف؟؟؟

وجد نفسه، رغم خوفه، يقلب بين اللوحتين الأخيرتين، يكبر كل واحدة ويصغرها مرارًا، مستحضراً في ذهنه، في نفس الوقت، مشهد الشراعة الرهيب، وكأنه يعقد بينهما مقارنة يحدد بها أيهما كان ذلك الشيء الذي رآه خلفها. لكنه يعود فيتساءل، من الذي رسم هذه اللوحات أصلاً؟ أهو من فعلها حقاً؟ هل ضغط ما يحدث في الشقة وما يقرؤه في الأجندة على عقله بطريقة جعلته يختزنه في الجزء اللاواعي منه، والذي حاول التنفيس عما بداخله بجعله يرسم وهو، حرفياً، غير واع؟؟ ألهذا لا يذكر الجزء الواعي من عقله أي شيء عن الموضوع؟؟

محتمل، محتمل جداً، بل ربما لهذا السبب تطابق أسلوب الرسم في اللوحات الثلاث. (نرمين) قالت، كما يعرف هو أصلاً عن نفسه، أنه لا يرسم بأسلوب ثابت أو نمط واحد، فربما إذن كان هذا الأسلوب بالذات، هو ما اختاره لواعيه كـ..

لحظة.. الأسلوب!

كيف لم ينتبه لهذا من قبل؟!!

انتصب جسد (عمر) فجأة على سريرهِ وعيناه تبرقان. الأجندة ليست معه الآن، لكنه لا يحتاج إلى النظر فيها كي يستحضر في ذهنه الورقتين اللتين وجدتهما مقتطعتين منها، والكلام المنظوم الشبيه بالشعر الذي كُتب عليهما بخط مهزوز مشوه، لا يمكن أن تكون اليد التي كتبتَه، هي نفس اليد التي رسمت اللوحات العلات، شديدة الإتقان والحرفية، على التابلت! هذا يعني أنهما شخصان، شخص رسم وآخر كتب، يعني.. حتى لو كان هو من قام، بلا وعي، بإحدى الفعلين، فهو، قطعًا، لم يقم بالثاني. هناك شخص آخر في المعادلة، فمن هو؟؟

شبرا

2003

- «(شريف)، (شريف) تعالَ لو سمحت».

كزّر (سعيد) هاتفه مرتين، وهو واقف في غرفته هو وأخيه، قرب سرير الأخير، الذي دخل مع الهاتف العالت، متسائلًا:

- «نعم؟»

رفع (سعيد) وسادة السرير الطويلة بيد، مشيرًا بالأخرى لكتابي جيب من سلسلة (ملف المستقبل)، أحدهما بعنوان (الزمن المفقود)، والآخر بعنوان (أطياف الماضي)، موضوعين تحتها، وهو يقول:

- «مش دول العديدين اللي انت قلت إن (عمر) مارجّعهمش؟!»
- أجاب شحوب وجه (شريف) عن السؤال بوضوح لا يحتاج إلى كلام، ومع ذلك قال ببرود:
- «مش فاكّر».
- ترك (سعيد) الوسادة تسقط عائدة لمكانها، قبل أن يقول:
- «يعني دي صدفة؟!»
- «ماعرفش».
- ثم أضاف بعصبية:
- «انت أصلاً بتفتّش في حاجتي ليه؟؟»
- «مش بفتّش، كنت بدوّر على الآلة الحاسبة ولقيتهم بالصدفة.
- انت اللي ليه عملت كده؟!»
- «مالكش فيه».
- «انت بجح ومستفز كده ليه يالا؟! مش خايف معلاً أقول لبابا على اللي حصل ده؟!»
- «قل له، وأنا كمان هاقول له على مكالمات الليل وآخره مع (ياسمين)، مش اسمها (ياسمين) برضو؟»
- قالها بابتسامة ساخرة، ثم غادر الغرفة.

ما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟

تردد التساؤل في رأس (عمر) وهو واقف أمام شقة (العباسية)، على مسافة تسمح له بتأمل بابيها بحذر وشك. منذ صبحا اليوم وذلك التساؤل يتردد داخله، مشجعًا إياه على المجيء إلى هنا.

ما الذي أصابته به شقة (العباسية) أصلًا حتى الآن؟ فعليًا أو ماديًا، لا شيء. نفسيًا، الخوف. لكن، هل هذا الأخير حكر على (العباسية) فحسب؟ قطعًا لا، لأنه يلزمه طوال الوقت، بل ويطارده في كل مكان، حتى في (شبرا).

مادام الأمر كذلك، فما الذي يمكن أن يضيفه استمرار المجيء إلى هنا؟ المزيد من الخوف؟ لا فارق إذًا، أو بالأحرى، فارق واحد فقط، الأجندة، التي يحمل إكمال قراءة ما فيها أملًا، ولو ضئيلًا، في الفهم. فمادام الخوف إذًا واقعًا لا مفر منه، فهو مع الفهم أفضل منه مع عدمه.

أجندة (فؤاد)

((لعلك يا بني لا تعرف عن قصة خالتك (هالة) وطليقها (حسام)، إلا قشورها فقط، لأن أحداثها الرئيسية وقعت وأنت لا تزال طفلًا صغيرًا. وهي أنهما - باختصار - تحابا فتزوجا فانفصلا، فأثر ذلك

الانفصال على نفسية خالتك، بل وعقلها كذلك، بطريقة دمرت حياتها تمامًا، ووصمتها بتلك الكلمة البغيضة البشعة التي تتناثر همسًا - بل وجهًا في أحياء كثيرة - بين أفراد العائلة، كلمة: مجنونة.

لعلك كذلك تجد في كلامي عن عائلة والدتك إجحافًا في حقهم، أو تحيزًا مبالغًا فيه ضدهم. ولعلك محق. لعلني أبالغ فعلاً فيما أخلع عليهم من خصال. قديمًا كنت سأصر وأعاند، متشبّعًا برأيي جازمًا بصحته. أما الآن، فلن أفعل. لن أجزم إلا بأمر واحد فقط، هو أنه، بغض النظر عن تلك الخصال، عن كونها حميدة أم خبيثة، فهي تكاد تنطبق على جميع أفراد العائلة، إلا فردًا واحدًا فقط، هو (هالة).

لم أرها أبدًا مثلهم. لا أعني بذلك أنها أفضل أو أسوأ. هي مختلفة وحسب. أكثرهم بساطة وصراحة، وهدوءًا وانطواءً، مع ميل للانعزال، ازدادت حدته بعد قصتها مع (حسام). هكذا كانت منذ عرفتها وعرفت الأسرة كلها. ما لا أعرفه هو ما إذا كانت قد وُلدت مجبولة على ذلك الميل، أم أنها اكتسبته بالتدريج، بسبب شعور الاغتراب الدائم عن العائلة التي تنبذ كل مختلف عنها.

هل نبذوها فاعتزلتهم؟ أم اعتزلتهم فنبذوها؟ أم أنها حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر؟ لا أدري حقًا. المهم أنها كانت دومًا كالغريبة عنهم، كمن ليست من دمهم، ليس فقط لأنها لا تشبههم، ولكن لأنهم - أيضًا - يعاملونها على هذا الأساس، قبل حتى موضوع (حسام).

أما ما بعده، فلم يكن إلا نسخة أكثر بشاعة مما قبله، نوع من إلقاء الملح على الجرح. كل ما كان سيئًا صار أسوأ بكثير. كانت

بالنسبة لهم غريبة، فصارت غريبة ومجنونة. حتى كلمة «غريبة»
صارت تستبدل في أحيائين كثيرة - بل أغلب الوقت - بأخرى أشد
وطأة وإيلامًا، هي: ممسوسة، مع ربط الأمرين - المس والجنون -
ببعضهما البعض، باعتبار واحد منهما أدى إلى الآخر.

والسؤال هنا هو، هل حدث كل ذلك بعد انفصالها عن (حسام)؟
أو، بصياغة أخرى، هل كان الانفصال هو السبب في تدهور حياة
(هالة) وحالتها النفسية بهذا الشكل المؤلم؟ ألقى هذا السؤال على أي
فرد في العائلة، وسيجيبك بأن (هالة) كانت مجنونة ممسوسة منذ
ولدت، وأن موضوع (حسام) لم يكن إلا العامل المحفز الذي أظهر
طبيعتها الحقيقية على السطح. هنا نجد أنفسنا أمام حلقة مفرغة
أخرى. هل عاملوها على أنها مجنونة، فجنت؟ أم جنت، فعاملوها
على أنها مجنونة؟ أم جنت، فعاملوها على أنها مجنونة، فجنت
أكثر؟

ولماذا يصرون على أنها ممسوسة؟))

مدينة نصر

2001

- «.. (حسام) عايش ماماتش يا (هالة).. (حسام) اتجوز وسافر
(السعودية) من سنة».

أنهت (هبة) عبارتها وهي تتراجع في مقعدها، متأملة (هالة) بما
يشبه الترقب والحذر، كأنها تعلم أن ما ألقته على مسامعها ليس

عبارة بل قنبلة، نزعت فتيلها ثم تأهبت لما سيأتي بعدها من انفجار. توقعت جدالاً أو اعتراضاً، بكاءً أو حتى صراخاً، أي شيء إلا ما فعلته (هالة)، التي حدقت في وجهها بعبات وثرها، قبل أن تتسع عيناها لحدّ مخيف، وهي تقول بصوت أجش غريب:

- «جبتي الكلام ده منين؟»

سرّث في جسد (هبة) رعدة خوف جعلها ترتبك، حتى إنها تلعمت وهي تقول:

- «هت... هتفرق في إيه؟»

- «جاوبي على السؤال».

- «الموضوع مش...».

- «مين حفظك الكلمتين دول؟»

- «حفظني؟!»

أجندة (فؤاد)

((لا بُدّ وأنت شهدت - كما شهدنا جميعًا - تدهور حالة (هالة) بعد الانفصال، المتمثلة في شجاراتها وصراخها وارتياها وشكها في كل من حولها، إلى حد اتهامهم جميعًا بالكذب، وبأنهم يكرهونها ويريدونها أن تُجن، بالذات (زينب)).

ما سبب كل هذا في رأيك؟ الانفصال؟ أي فتاة قد تصاب، بعد انفصالها عن زوج أو حبيب، بالاكئاب، هذا منطقي وطبيعي، فلماذا

أصببت (هالة) بما يشبه جنون الاضطهاد والارتياب؟ لماذا بدأت تتكلم وتتصرف بطريقة غريبة وكأنها أصببت فعلاً بمس أو جنون؟ هل كان لشكوكها تلك أي أساس من الصحة؟ وهل تسبب الانفصال في كل ذلك حقاً؟

كانت تلك هي الأسئلة التي طرحتها على نفسي وقتها، وقررت البحث عن إجاباتها بطريقتي، لسببين. الأول هو تعاطفي مع (هالة) نفسها، التي لا أنسى أنها كانت أول من تعرفت عليه في الأسرة، والتي ستظل دوماً في عيني، تلك التلميذة الهادئة الوداعة، التي أحمل لها معزة خاصة في قلبي، كأخت صغرى لم تلدها أُمي.

الثاني هو موقف العداوي من العائلة، أو بالأحرى، موقفهم العدائي منّي، الذي جعلني أشعر بتوحد مع (هالة) المنبوذة مثلي، كأننا نقف على نفس الجبهة، في مواجهة نفس العدو، الذي كنت أعرف مسبقاً أنه مرعب متجبر، وإن لم أكن قد أدركت بعد، المدى الذي يمكن أن يبلغه ذلك الرعب والجبروت.

وبدأت في البحث، وهالني ما وجدت من إجابات.

لم يكن (حسام) مهادئاً كـ (يوسف)، ولا متلاعباً مثلي، كانت له نفس طباع (هالة) تقريئياً، نفس البساطة والصراحة والوضوح، لكن ليس نفس الهدوء للأسف. كان - على العكس منها تماماً - انفعالياً عصبياً إلى حد كبير، وكان هذا هو لب المشكلة حين بدأت الخلافات بينه وبين جدك، والتي كان منبعها - كالعادة - التدخل الزائد عن حده في الكثير من التفاصيل، مع رغبة العائلة في فرض نمط

حياتهم على حياته مع (هالة).

وبين تصلب جدك على آرائه وموقفه، وحرارة عصبية (حسام)، انصهرت (هالة) وهي تحاول التهدئة والتوفيق بينهما. لكن الخلافات استمرت واحتدمت وتفاقت، حتى سدت أي طريق ممكن للوفاق.

وفي يوم من أيام عام 1998، بعد شجار حامي الوطيس، تم الانفصال.

وتقوَّعت (هالة) على نفسها أكثر، بدت حزينة مكتئبة أغلب الوقت، قلقة متوترة أحيانًا، لكن يهدوء، كل تلك المشاعر كانت تتبدى عليها برزانة أقرب لسكينة الصبر، ولعدة أشهر، قرابة نصف عام تقريبًا، ظلت محتفظة باتزانها وقواها العقلية، ولم يبد عليها أي مظهر أو عَرَض مما ظهر عليها بعد ذلك، من غرابة وعصبية وارتياب.

ثم بدأ كل ذلك يتغير، أو بالأحرى، يتضاعف. تحول التقوقع لتوحد وانعزال شبه تامين دائمين. صارت تجلس وحيدة في غرفتها بالساعات، صامتة ساكنة تمامًا، أو ترسم، أو تحدث نفسها بصوت عالٍ. تشعر أنها وحيدة حتى حين لا تكون وحدها. تجلس بين الناس حين تضطر فقط، وفي عينيها نظرة شاردة ذاهلة عما حولها، كالمحبوسة في فقاعة عالم خاص بها، لا يراه سواها. القلق والتوتر تحولاً لعصبية تبدت في كل حركاتها وتصرفاتها، واضطراب يكاد يقفز من كل خلجة في وجهها. الحزن في عينيها تحول لأسى يائس عميق محفور بين جفنيها، كأنها دوَّما على وشك البكاء، أو فرغت منه لتوها.

إلى هنا، كانت الأمور لا تزال تبدو منطقية إلى حد ما. كان من الممكن تفسير ما حدث على أنه تدهور طبيعي لإنسانة كان عندها صبر وأمل، فقدتهما بالتدريج.

لكن الأمور لم تقف عند هذا الحد. لم تعد (هالة) يائسة مكتئبة فحسب، صارت كذلك خائفة. ظهرت في عينيها نظرة رعب وتوجس غريبة، كأن شيئًا يطاردها، نظرة خائفة ومخيفة في ذات الوقت، تجعلك لا تعرف إن كانت المطاردة أم المطاردة.

ثم بدأت المرحلة الأسوأ على الإطلاق، مرحلة العصبية البالغة والهياج، والشك وفرط الارتياب، في كل ما حولها ومن حولها. بدأت التصرفات الغريبة والكلام الأغرب، اللوحات العجيبة المخيفة التي كانت ترسمها وكأنها غير واعية، وما يشبه الهذيان بأشياء غامضة متداخلة غير مفهومة عن موت (حسام)، وشبحة الذي يطاردها، وشقتهما التي صارت مسكونة. ليقرر جدك أخيرًا، أن ابنته في حاجة ماسة لعلاج نفسي.

وبدأت (هالة) بالفعل تتردد بانتظام على طبيببة نفسية، بدت بعد فترة وكأنها تحرز معها تقدمًا بطيئًا، ملحوظًا رغم ذلك. ومع الوقت، صارت أكثر هدوءًا وأقل شكًا، وأفضل بوجه عام.

كان هذا هو ظاهر القصة، أما باطنها، فشيء مختلف بالكلية.

في الباطن لم تتحسن (هالة) قط. وقد يتبادر للذهن أن هدوؤها إذا لم يكن إلا نتيجة كيميائية للأدوية التي تصفها لها طبيبتها.

لكنني كنت أعلم أن الأمر أعمق من هذا، أن (هالة) تنغلق على نفسها أكثر فحسب، أن هدوؤها وتحسنها تظاهر وتمثيل، غلاف صنعته حول نفسها، تخفي تحته أمراً جليلاً. أما شكها، فكل ما حدث هو أن دائرته اتسعت فقط، كي تشمل طبيبتها كذلك، والذي يعني أنها، إما مريضة ذكية، أذكى من طبيبتها على الأقل، لأنها تمكنت من خداعها، أو ليست مريضة أصلاً.

والحقيقة أن (هالة) ليست مريضة فعلاً، ولا ممسوسة. هذا يعيدنا للأسئلة التي بدأت كل هذا، بالأحرى، لسؤال بعينه، مفصلي إلى حد كبير، هل لشكوكها إذاً، أي أساس من الصحة؟

والإجابة المريعة المفزعة على ذلك السؤال هي.. نعم)).

مدينة نصر

2001

- «مين حفظك الكلمتين دول؟»

- «حفظني؟!»

- «مين يا (هبة) مسأطك تكدي عليا؟»

- «يا (هالة) انتي فاهمة غـ».

- «(زينب)، مش كده؟»

- «اسمعيني طيب...».

- «تبقى هي».

أجندة (فؤاد)

((شك (هالة) في أختها الكبرى في محله بالفعل. (زينب) فعلاً لا تحبها. تحقد عليها لأنها ترى أنها الوحيدة التي نالت من جدك تديلاً زائداً لا تستحقه. ودها الظاهري معها مصطنع. ما تقوله عن كونها أجملهن وأفضلهن ليس إلا غيرة. ما تبديه من حزن وأسف على حالها، ليس إلا شماتة تغلفها - وتزيدها قسوة - بالشفقة. أما القصص التي تدل بها على كونها ممسوسة، فمختلقة بالكامل. وقس على ذلك كل كلامها وتصرفاتها، هي وأبناءؤها الذين تشربوا لحد التشبع منها، حتى صاروا مثلها وأسوأ، في تعاملهم مع خالتهم. الشك إذاً صحيح، لكنه ليس دقيقاً جداً، بالأحرى، فيه بقعة عمياء، هي الأخت الوسطى، التي تحمل نفس المشاعر تجاهها، وينطبق عليها كل ما ينطبق على الكبرى، بفارق واحد فقط، أن والدتك أكثر ذكاء ودبلوماسية من (زينب)، لهذا هي أقدر على إخفاء حقيقة ما بداخلها، ولهذا ظلت في موضع بعيد - نسبياً - عن شكوك (هالة).

شك (هالة) في طبيبتها النفسية صحيح هو الآخر. الحقيرة تنقل للأسرة كل ما يدور بينها وبين مريضتها بالفعل، في تجاهل تام بشع لخصوصيتها، وخرق يعاقب عليه القانون، للقسم الذي جعلها طبيبة من الأساس. لهذا ظلت (هالة) حذرة في حديثها معها، لهذا لم تبح لها بسرّها، بالأمر الجلل الذي أشرت له آنفاً، الذي تسبب في المأساة كلها، والذي يؤسفني أنني سأبوح لك به الآن - مضطراً - كي يكتمل

فهمك للقصة، وتكتمل الصورة لديك.

الشك هنا كان في محله أيضًا إذن، الحذر هو ما جاء متأخرًا جدًا للأسف، أو بالأحرى، بلا جدوى، لأن الفأس كانت قد وقعت في الرأس، وجدك كان قد عرف كل شيء بطريقته، وتصرف على أساسه، دون احتياج للطبيرة قط. لكن (هالة) لم تكن تعلم ذلك، بل ولا تدرك - حتى الآن - حقيقة أبيها أو قدراته، لأنه - كما سبق وأخبرتكم - يخفي صلته بعالم الجان حتى عن عائلته. صحيح أن قلة منهم شعروا أو استنتجوا، أو عرفوا جزءًا من الحقيقة، كـ (يوسف) مثلاً، إلا أنهم لا يصرحون بشيء، ولا يتحدثون عن الأمر - إن تحدثوا - إلا بتلميح أو إشارة. أما (هالة)، فمن الأغلبية، مثلك، الذين لا يعرفون.

ماذا إذا عن شكها في موت (حسام)؟ ما السر الذي تخفيه؟ وما الذي فعله جدك حين عرفه؟

هذه الأسئلة تكون فيما بينها مثلًا، لا ترسم فيه ضلعين، إلا وارتسم الثالث من تلقاء نفسه.

أما السر، فقد كان استمرار علاقتها بـ (حسام) في الخفاء، وتببييتهما النية على الزواج مجددًا، ووضع العائلة كلها أمام الأمر الواقع.

وأما ما فعله جدك.. فهو أنه قتل (حسام)...

العباسية

ما.. ما هذا.. ما الذي.. ما هذا الذي قرأه بالضبط؟؟؟!!!

توقف (عمر) عن القراءة، أو بالأحرى، أعاد قراءة آخر سطر قرأه مرارًا. التصق بصره به كأنه يتأكد من وجوده. دقق في كلماته وحروفه، قرأها جملة وفردى، بعينه وشفته، كأنما يتأكد من معناها، أو يتعلم القراءة من جديد.

هذا الكلام لا يعني إلا أن أباه كان مجنونًا تمامًا أو.. أن جده قاتل؟؟!!

مستحيل! غير ممكن! غير معق... لا، لا لا، ليس هذا وقت الاستنكار والذهول، القصة لم تنته عند هذا الحد، لا يمكن أصلًا أن تنتهي عند هذا الحد، لا بُدَّ وأن يمنحه والده دليلًا على كلامه هذا، لا بُدَّ وأنه سيفعل.

عليه إذاً أن يكمل القراءة، يجب أن يفهم، يجب أن يكمل...!

أجندة (فؤاد)

((أعلم يا بني أنك الآن في حالة ذهول، بل وعدم تصديق، ولربما تتهمني في شرك بالكذب أو الجنون. أعلم أنه من الصعب عليك - بل وضرب من المستحيل - أن تصدق أن يصدر فعل كهذا من جدك الذي لم تَر منه إلا وجهه الطيب، المسالم الحنون. لكنني أقسم لك إن

ما قلته هو الحقيقة ولا شيء سواها، وأن لجذك وجهًا خفيًا مخيفًا،
لا أتمنى لألد أعدائي أن يراه، وجهه حين يكره.

وجدك يكره من يعصيه أو يتحداه أو يستغفله، و(حسام) فعل
الثلاثة معًا؛ لذا، من وجهة نظر جدك، حق عليه الانتقام. لم يعد يراه
زوج ابنته ولا حتى طليقها، بل عدوًا يجب تدميره، وإن ثمرت - في
سبيل ذلك - حياة ابنته نفسها.

وهكذا، في وقت متأخر من الليل، عند بقعة هادئة من كورنيش
(المعادي)، فوجئ (حسام) بشيء غير مرئي يدفعه بقوة ليسقط في
(النيل)، ثم يبقى رأسه تحت الماء حتى يموت.

جريمة كاملة، الفاعل فيها نفر من الجن، لا أدلة فيها ولا بصمات،
ولا حتى شهود. عنصرًا المفاجأة والسرعة الخاطفة أخفيها عن
الأنظار. حتى وإن شهدها أحدهم، فلم يكن ليرى فيها إلا حادثًا
مؤسفًا أو انتحار. لكن أحدًا لم يرَ (حسام)؛ لأن أحدًا لم يحاول
إنقاذه، ولا هو نفسه وجد فرصة حتى للصراخ. أما جثمانه، فثرك كي
يتكفل به التيار، الذي سحبه لموضع لا يعلمه إلا الله.

ولأن المسكين كان مقطوعًا من شجرة، قليل الأصدقاء، لم تُقدّم
أي بلاغات عن اختفائه، بالتالي لم تُبذل أي مجهودات من أي نوع
للبحث عنه أو عن جثته، ولم تكزَم ذكراه ولو ببضعة أسطر في
صفحة الحوادث. حتى (هالة)، لم تتخذ أي خطوة رسمية، ولا
تقدمت ببلاغ. أولًا، لأن موته لم يكن أول احتمال طرق رأسها، أو
بالأحرى، ظلت لفترة حائرة مترددة بين احتمالين، إصابته بمكروه أو
هجره لها. ثانيًا، لأنها كانت في عماء تام عن قدرات أبيها ونواياه،

يصعب معه أن يطرق سيناريو القتل الغريب هذا تفكيرها. ثالثًا،
لخوفها من الإقدام على خطوة لا تضمن نتائجها، قد تضر ولا تفيد،
تثير شوشرة أو بلبلة حولها، أو حتى أزمة لـ (حسام) نفسه، ولا
تؤدي إلا إلى فضح سر علاقتهما، ومخططهما الخفي.

وهكذا، مات الموضوع كما مات صاحبه، في خفاء وهدوء.

ثم بدأ قرينه في الظهور.

كل ما قالته (هالة) عن شبح (حسام) الذي يطاردها، وشقتهما التي
صارت مسكونة، كل ما تم اعتباره علامات مس أو هلوسات جنون،
لم يكن إلا الحقيقة ولا شيء سواها. لم تكن المسكينة مجنونة ولا
ممسوسة، ولا كانت تهذي أو تخرف، كانت فقط تقول - أو ترسم
حين لا تجد أذنًا صاغية أو مصدقة - كل ما تراه وتسمعه، وما كان
يحدث فعليًا بدقة.

لكن القرين لم يكتف بالظهور. ميتة صاحبه الغادرة البشعة حقلته
بطاقة غضب عارمة، كانت تخرج في صور شتى، كانت مصدر كل
ما حدث في الشقة، الباب الذي كانوا يجدونه مفتوحًا، الأصوات
والدقات العالية بعد منتصف الليل، كل ما اتُهمت فيه (هالة) ظلمًا،
ووصمت لأجله تارة بالمس وأخرى بالجنون، كل ما ترك لكل فرد في
العائلة كي يفسره على هواه، أو في ضوء ما يعرف عن خفايا جدك.
كانوا بين جاهل بالحقيقة، ومطلع على جزء منها فحسب. الوحيد
الذي عرف الحقيقة كلها بالطبع، لأنه المتسبب فيها أصلًا، هو جدك.

المشكلة هنا، أن المتسبب في المشكلة، وجد نفسه عاجزًا عن حلها، بالأحرى، عن إيجاد حل جذري للفوضى التي خلقتها، لأنها كانت فوق قدراته، رغم قوته وقوة خدامه من الجان، لأنه - كما يقول المثل - «القوي فيه الأقوى منه»، والأقوى في حالتنا هذه هو القرين، فالقرناء لا يموتون، والجان أضعف منهم بوجه عام، فما بالك بقرين غاضب مورتور؟

لهذا وقف جدك أمام هذا كله مكبل اليدين، مزموم الشفتين، لا يملك لابنته إلا شفقة قاتل على ضحيته، وتعاطف جاني مع مجني عليه.

أما القرين، فكانت (هالة) أكثر من رآه بحكم ارتباطها به، لكنها لم تكن الوحيدة، جدك أيضًا رآه كثيرًا، والسبب واضح بالطبع. أنا نفسي رأيته أمام باب شقتهم مرتين، كنت مع (يوسف) في إحداها. ظهر لثوان معدودة أثناء صعودنا على السلم، ثم اختفى في لمح البصر. وفي حين احتفظت أنا بتماسكي، فقد (يوسف) توازنه حتى كاد يسقط أرضًا، لولا أن أسندته في آخر لحظة. والتقت عينانا لبضع ثوان، لم ننس خلالها بينت شفة، لكنني فهمت أنه فهم، أن عقله ربط الأمور ببعضها البعض بسرعة بالغة. اتساع عينيه، ووجهه الذي غاضت منه الدماء، أنبئاني بذلك. لكننا لم نقل شيئًا، ولا أشرنا بعدها للأمر أبدًا، ولو من بعيد، وإن ظللنا محتفظين بخوفنا من جدك، الذي تضاعف منذ ذلك الحين.

خوفي هو ما يجعلني أكتب لك كل هذا يا (عمر)، خشيتي من الموت غيلة، بلا دية، كـ (حسام) ..

لأنني واثق أن جدك سيقتلني.)

العباسية

10 أغسطس

2016

كانت الصدمة، تلك المرة، أقوى من أن يجد عقل (عمر) طريقة للتنفيس أو التعبير عنها، أو حتى للتفكير فيها. لم يشعر إلا بما يشبه انفجارًا نجميًا صامتًا داخل عقله، سطع بقوة حتى ابيض كل شيء، ثم لم يعد هناك شيء. لا شعور، لا تفكير، لا تعبير حتى على وجهه الساكن المتراخي. وببطء وهدوء، كأنه كان يتصفح جريدة أو مجلة، أغلق الأجندة ووضعها على المنضدة أمامه، وهو لا يزال ساكنًا هادئًا تمامًا.

وبنفس التراخي والهدوء، نهض من مكانه، وغادر الشقة.

شبرا

10 أغسطس

2016

جلس (عمر) في غرفته على فراشه كالمبنج. عيناه مفتوحتان، جامدتان لا تريان. عقله لا يزال مغلقًا بما يشبه الضباب. بالكاد يتحرك، بالكاد يفكر، بالكاد حتى يتنفس.

لم تنتهِ الأجندة. آخر ما قرأ فيها، ليس آخر المكتوب فيها، لا زالت هناك بقية.. أي بقية؟! ما الذي يمكن أن تحويه؟؟ لم يعد بداخله هو أصلًا أي بقية من أي شيء، ولا طاقة لأي شيء. تبًا لتلك الأجندة، لعن الله كاتبها وقارئها، بل وبائعها وطابعها. تبًا لشقة (العباسية) كلها، بكل ما فيها. سيتركها، سيتجاهلها تمامًا كأن لم تكن، لن يطأها بقدمه ثانية، لن يسمح لها بأن تدمر عقله وحياته، لكن..

لكن لماذا؟! لماذا فعل أبوه به أصلًا كل هذا؟! لماذا كتب له هذا الكلام؟! لماذا شككه في أقرب الناس إليه؟! ما الذي استفاده؟! ما فائدة الشك بعد أن مات وذفن؟! هل أراد إحالة حياته إلى جحيم، حيًا وميتًا، حقًا؟! هل كانت أمه على حق؟؟

آه، أمه، كيف نسيها هي الأخرى؟! حتى وإن كانت على حق، فما ذنب أبيه فيما تفعل هي؟! ما ذنب شقة (العباسية)، مثلًا، في التوكيل الذي منحته لموظف حقير عندهم؟! إن كان أبوه قد سقم أفكاره بأجندته، فأمه كذلك تسمم بدنه بكل ما تقول وتفعل، كل يوم. جميل، هذا لا يجعله أقل سخطًا عليه، بل أكثر سخطًا عليها فحسب. ألا لعنة الله عليهما معًا، وعلى.. وعليه هو نفسه كذلك في الواقع.

نعم، هو نفسه. لماذا يستنكر أفعالهما فقط؟! ماذا عن أفعاله هو؟! إن كان والده قد ترك له الأجندة في (العباسية)، فهو من قرّر الذهاب إليها، ومن اختار، بمحض إرادته، أن يستمر في ذلك كل يوم. ربما لو كان، بدلًا من ذلك، قد تقرب من أمه حين كانت في أمس الحاجة إليه، لو أنسها وجالسها وبزها، لما لجأت لغريب كما فعلت.

أجل، ألا لعنة الله عليه هو الآخر. ليته يملك زراً يغلق به كل شيء إلى الأبد.

شبرا

11 أغسطس

2016

فتح (عمر) عينيه في نفس الموعد المبكر الذي تعود جهازه العصبي، مؤخرًا، على التنبه عنده كل يوم، بغض النظر عن موعد نومه. شعر أنه منهك العقل والروح والجسد، كالأمس وربما أكثر، كأن لم يتم على الإطلاق، أو كان نائمًا في حلبة قتال أو غرفة تعذيب. وكانت أول فكرة طرقت رأسه هي: تبًا، أما زالت الدنيا موجودة؟ أما زال هو موجودًا فيها؟ ثاني ما طرق رأسه كان التساؤل الذي يطرحه، أحيانًا، على نفسه: هل يذهب إلى (العباسية)؟

ولأول مرة، لأول مرة منذ بدأت القصة كلها، لم يجد في نفسه أي حافز أو رغبة في.. في أي شيء في الواقع، لينقلب على جانبه الآخر، ويغمض عينيه مرة أخرى، ويعاود النوم.

حين استيقظ للمرة الثانية، كان الظلام قد حلّ. رباها! هل نام كل هذه المدة حقًا؟ كذا فكر (عمر) وهو يفتح عينيه. المصيبة أنه لا يزال متعبًا، لكنه كذلك قد وصل لمرحلة لم يعد فيها النوم علاجًا للتعب، بل مسببًا أقوى له. صار رأسه وجسده يؤلمان، حرفيًا، من

طول الرقاد. لذا اعتدل جالسًا، رغم رأسه الذي لا يزال يدور.

فتح تليفونه المحمول الذي كان قد أغلقه قبل نومه، ليجد محاولات اتصال ورسائل مكتوبة ومسموعة، من أرقام وأسماء شتى، من بينهم (نرمين) طبقًا، التي كان لها نصيب الأسد من كل ذلك. كانت تعلم أنه أحيانًا ما ينغلق على نفسه وينقطع عن العالم، مغلقًا تليفونه وكل وسائل الاتصال به. لكنه هذه المرة، وعلى عكس عادته معها، لم ينبهها إلى أنه سيفعل، فلا ريب أن المسكينة قلقت عليه كثيرًا.

أمه كذلك قلقت هي الأخرى فيما يبدو، رغم البرود والنفور المتبادل الذي اعتري علاقتهما، مشيدًا بينهما ما يشبه جدازًا عازلاً من التجاهل المتوتر والخصام، بعد كل ما نشب بينهما من نزاعات أقرب للحروب، في الفترة الأخيرة. رغم هذا، كان يشعر بها في أوقات متفرقة بين اليقظة والسبات، تطرق باب غرفته وتفتحه، أو تفتحه بلا طرق، لتنادي عليه برفق، ثم تمكث في مكانها قليلًا كأنها تتأكد أنه حي، قبل أن تغادر مغلقة الباب خلفها.

قلب (عمر) في تليفونه قارئًا ومستمعًا للرسائل المهمة بالنسبة له فحسب، وعلى رأسها الواردة من (نرمين)، التي تبدى القلق الدامع في صوتها وكلماتها بطريقة كانت لتجعله يشفق عليها، لولا أنه لا يزال في تلك الحالة الشبيهة بنوبة الاكتئاب، كأن تفكيره ومشاعره مبنجين تمامًا. ورغم ذلك، أجبر نفسه على الرد عليها ليطمئنها كي لا تجن، وليخبرها أنه سيكلمها لاحقًا، برسالة مكتوبة لا صوتية، لأن صوته في الغالب كان سيقلقها أكثر، ولأنه لم يكن راغبًا في الكلام

ولا قادر عليه، لم يكن واثقًا أصلاً مما سيخرج من حلقه لو حاول تحريك أحباله الصوتية، بل ولا حتى من قدرته على تحريكها أساسًا.

نهض بآلية متجهًا إلى الحمام، شاعرًا برغبة في التحمم ثم النزول والجلوس على القهوة بمفرده. أراد أن يكون وحده، ووسط الناس في نفس الوقت، ناس عاديون يجهلهم ويجهلونهم، لا يضطر للحديث أو التعامل معهم، كأنه يريد أن يلقي بنفسه وسط زحام حياة عادية، تشعره أنه عادي مثلها، وتحتفظ له، في الوقت ذاته، بما يشبه حاجرًا زجاجيًا بينه وبينها، يسمح له بمراقبتها فحسب، دون أي تفاعل من أي نوع.

خرج من الحمام شاعرًا أنه أفضل قليلًا. وفي طريق عودته لغرفته، لمح أمه قرب باب الشقة، تنزع عن رأسها حجابًا كأنما عادت من الخارج للتو، وتمسح وجهها المحمر بيدها كأنما كانت، أو لازالت، تبكي. لم يبذ عليها أنها رأتها، ولم يرغب هو في أن تراه، ليختفي داخل غرفته ويغلق بابها خلفه بسرعة، ويبدأ في تبديل ملابسه استعدادًا للخروج. لم يشعر بالشفقة عليها تلك المرة، ولا حتى بفضول يدفعه لسؤالها عن أي شيء. «أبوك وأبوك ثم أبوك، دمر حياتنا حيًا وميتًا»، لن تخرج الإجابة عن هذا النطاق، فلماذا يتعب نفسه بالسؤال؟!

كان صوت الشجار عاليًا لدرجة أوصلته لأذني (عمر) وهو يهبط على السلم، وهو بعد في الطابق الأول، شجار بدا واضحًا أنه ينبعث من شقة خالته (زينب)، التي جلجل صوتها صامدًا بشتائم مقذعة،

لم يفهم في البداية لمن توجهها، وظنها لأحد ابنيها، قبل أن يتبين أنها لزوجها، (يوسف)، حين سمعه يرد عليها بصوت عال كصوتها، أقل حدة منه رغم ذلك، ولا يحمل نفس فظاعة السباب.

ولم يندهش (عمر). لم يكن الموقف غريبًا أو غير معتاد بالنسبة له، ولا لأي أحد في البيت. الكل سمع أو شهد هذا النوع من الشجارات بين خالته وزوجها مرارًا، حيث يطفى صوتها ولسانها، وشخصيتها التي يعرفون جميعًا أنها أقوى من شخصيته. لم يشعر (عمر) إلا بتوتر خفيف، لا يمكن ألا يشعر به أي إنسان يسمع كل هذا القدر من السباب والصراخ، ويشعر بكل هذه الكهربية في الجو.

ومع اقترابه من الطابق الأرضي، حيث الشقة مصدر الشجار، صارت الأصوات أقرب والكلام أوضح، لتلتقط أذناه:

- «بس بقى اخرسى، اخرسى خالص».

- «أخرس؟! انت! بتقول لي أنا أخرس؟! طيب وحياتك أمك ما إنت بايت فيها».

- «يكون أحسن، سايبها لك مخضرة».

كان (عمر) يهبط آخر درجة من السلم حين سمع صوت (يوسف) يصرخ بالعبرة الأخيرة من خلف باب الشقة الذي انفتح فجأة، ليندفع (يوسف) نفسه خارجًا منه بوجه مكفهر محتقن، ثم يصفقه خلفه بعنف ارتج له البيت كله، وصراخ (زينب) من خلفه لا ينقطع:

- «في ستين داهية تاخدك انت واللي جابوك».

وقع بصر (يوسف) على (عمر) ليتجمد الاثنان، وخرج الموقف

يعجزهما عن الحركة والكلام، و(زينب) لا تزال تصرخ:

- «.. أنا هلاقيها منك ولأ من الزفتة الثانية اللي عاملة مناحة وجاية تعيط لي؟!»

فهم الاثنان على الفور من تعني، لينعقد حاجبا (عمر)، في حين تتسع عينا (يوسف)، وتصدر منه حركة عصبية بلا معنى، كأنه يريد أن يفر هاربًا، ويعود للداخل كي يسكت زوجته، ويسد أذني (عمر)، في نفس الوقت. لكنه لم يتمكن من فعل أي من ذلك، والسيف يسبق العذل، و(زينب) تكمل برطمتها العالية التي تصلها كاملة:

- «بعد ما كانت بتعيط لنا عشان نخلصها منه، جاية دلوقت تعيط عليه؟! مش ده اللي كان مطلع عينها هي وابنها، وفالقها وفالقنا بيها؟! مش ده (فؤاد) اللي مات بناءً على طلب الجماهير؟!»

لم يسمع (عمر) شيئًا من برطمة خالته بعد تلك العبارة، أو سمع ولم يفهم، فلا تحرك ولا تكلم، تجمد في مكانه واجمًا مشدوفاً فاغر الفم، شاعرًا بضباب يكتنف سمعه وبصره وعقله، كأنه سيفقد وعيه، أو فقده ولم يسقط بعد فحسب.

(يوسف) كذلك لم يكن أفضل حالًا. لون وجهه الأحمر المحتقن تحول للأصفر الشاحب في ثوان، وعيناه المتسعتان تتنقلان بعصبية أقرب للجنون، بين وجه (عمر) الذاهل، وباب شقة (صابر) المقابل.

أخيرًا، بعد بضع ثوانٍ بدت كالدهر لكليهما، تمكن (عمر) من رفع يده ببطء، مشيرًا إلى شقة خالته، متسائلًا بصوت متكسر محشرج:

- «إيه الـ... إ.. إيه الـ...؟!»

لم يتمكن من إتمام عبارته، لا من تأثير الصدمة فحسب، بل لأن (يوسف) كذلك تمكّن من الحركة والكلام هو الآخر، ليقبض على ذراعه الممدودة بيسراه، ويجذبه بسرعة نحو بوابة البيت التي أولج فيها مفتاحه بيمناه، قائلاً:

- «تعالّ معايا».

بدأ تجمد الصدمة ينفك عن (عمر) الذي حاول التملص من قبضته، معترضاً:

- «لأ أنا عايز أفهم».

لكن (يوسف) استمات على ذراعه وهو يفتح البوابة، ساحباً إياه ليخرجها منها معاً، قبل أن يعيد غلقها خلفهما، وهو يقول:

- «أنا هفهمك، تعالى».

- «فاكر من 3 شهور، لما جدك وخالتك (زينب) طلّعوا يعملوا غمرة سوا؟»

قالها (يوسف)، متطلّعاً عبر زجاج سيارته الأمامي، لـ (عمر) الجالس بجواره، والذي لم يرد ولم يعلق، ولا حتى بهمة مقتضبة خافتة، فقط ظل يحدق به صامتاً مقطباً، منتظراً أن يكمل من تلقاء نفسه، ليكمل بالفعل، قائلاً:

- «والدتك في الفترة الأخيرة كانت.. بتشتكي كثير من والدك، إنه

يعني.. بيقسى جامد عليها وعليك.. وبيضربها و...».

بتر عبارته وكأنه يبحث عن كلمات مناسبة يتمها بها، ثم بدا وكأنه عدل عن ذلك، ليبدأ عبارة جديدة، قائلاً:

- «والغمرة دي كانت عشان..».

وطال صمته هذه المرة. لم يكن ينظر مباشرة لـ (عمر)، وكأنه يتجنب عينيه، لكن انفعال الأخير لم يكن محتاجاً للنظر كي يُحس، كان عاتياً لدرجة مخيفة، تجعل الأعمى نفسه يراه، كأن له وجوداً مادياً، كشخص ثالث يجلس بينهما، انفعال بدا وكأنه يتأجج بصمت (يوسف) المتكرر، الذي عاد يقول:

- «.. كانت بنية إن.. يعني إن ربنا يهدي والدك، ويخف أذاه عنكم شوية أو...».

لم يحتج (يوسف) لإتمام عبارته هذه المرة، لأن (عمر) هو من أتمها، قائلاً:

- «.. أو يموت؟»

العباسية

12 أغسطس

2016

وعاد (عمر) إلى (العباسية). كان يجب أن يعود، لأنه، بغض النظر تماماً عما قاله (يوسف)، عن صدقه فيه أو كذبه، عن علمه بالحقيقة

أو جهله بها، فما قالت (زينب) لا جدال فيه، لم يخطئ في سمعه، ولا يمكن أن يخطئ في فهمه أي إنسان على وجه الأرض. وإن كلام الأول يمكن أن يكون موضع شك، لأنه قيل تحت ضغط وبغرض التبرير، فكلام الثانية كان من الواضح أنه الحقيقة ولا شيء سواها، لأنه خرج منها تلقائيًا، بلا ذواق أو حذر.

إن لم يؤكد له كل هذا، صدق كلام والده، فهو، على الأقل، يدعم الشكوك التي زرعها في عقله تجاه أمه وجده والعائلة كلها. كلهم فعلًا تمنوا موته، حتى لو لم يقتلوه. بعبارة أخرى، كلهم قتلوه بشكل أو بآخر. الجريمة وقعت بالفعل. ما يريده الآن هو تحديد أداتها، ما إذا كانت الغمرة والدعاء عليه، والتوجه لله فعلًا كما قال (يوسف)، أم.. شيء آخر؟؟

أجندة (فؤاد)

((كنت قد أخبرتك - آنفًا - أن جدك كان يتجنب كثرة الصدمات المباشرة بيننا، وأن علاقتنا لم تكن حربًا مستعرة مستمرة. لكن هذا لا يعني أننا كنا في حالة سلام. لم تكن صداماتنا فعلًا كثيرة ولا مباشرة، لكنها كانت تحدث أحيانًا بشكل غير مباشر. ولم تكن الحرب بيننا مستعرة مستمرة حقًا، بل باردة متقطعة، تتخللها هدنات تطول أو تقصر، لكنها تظل - على طول الخط - حربًا رغم كل شيء.

كنت أعلم كذلك أن صلتي بعالم الجان لن تظل خفية عنه للأبد. علمت أنه سيعلم يومًا ما، وحسبت حساب ذلك اليوم، مؤمنًا نفسي بمبدأ تكافؤ القوى: لن يؤذيني بسهولة وسيفكر ألف مرة قبل أن

يفعل، لأنه يعلم أنني أستطيع أيضًا أن أؤذيه، والعكس صحيح.

وهكذا، بمرور الوقت وتراكم المشاكل والخلافات، بدأنا أنا وجدك نلعب - أحيانًا - بأوراق مكشوفة بعض الشيء، دون أن يتعدى أي منا - أبدًا - الحد، خط الوسط الوهمي، القوي رغم ذلك، المرسوم بيننا، الذي يمنع تفلّت الأمور من عقالها.

حتى بدأت الأمور - مؤخرًا - تفلّت من العقال.

لا أعلم من أدخل في عقل والدتك، تلك المعلومة التي نقلتها لجدك، والذي لم يَر فيها إلا مسمار جحا الذي أسعده ظهوره فيما أعتقد، باعتباره الحجة التي ستمكنه أخيرًا من إطلاق كل المكبوت المعتمل بداخله نحوي، طوال كل تلك السنين.

أما المعلومة فهي أنني سأتزوج على والدتك، أو أطلقها وأتزوج من أخرى، وأما أساسها من الصحة، فغير موجود على الإطلاق.

طبعًا مُزج ذلك الادعاء بشكوى والدتك المعتادة مئي، أنني قايّس متوحش لا قلب لي، وأنها ستموت على يدي يومًا، ضربًا أو كمدًا، ليفضي كل ذلك في النهاية إلى تبنيّ النية على التخلص مئي، قبل أن تظهر تلك البديلة أو الشريكة المزعومة في ميراثي، بالإضافة لمن قد أنجبهم من أبناء - ذكور بالأخص طبعًا - منها.

كل ذلك لم أعلمه إلا مع أولى محاولات قتلي، التي نبهتني لما يحاك ضدي، حين بلغني من قريني وبعض خدامي، أن نفرًا من الجان، من قبيلة الغيلان، الذين يستطيعون تغيير هيتهم والتشكل

على أي صورة يريدون، اقترب مني - متخفياً - بشكل مريب، كأنه يحاول اختبار دفاعاتي، أو اختراقها والهجوم علي مباشرة، وأن ذلك الغول واحد من خدام جدك.

طبعًا تعاملت خدمتي معه، وعززت أنا دفاعاتي، مشددًا الحراسة حولي، بعد تلك الواقعة، والتي وصفتها بالأولى لأنها لم تكن الوحيدة ولا الأخيرة، ولأن الحرب بعدها، بيني وبين جدك، لم تعد باردة ولا خفية، بل مكشوفة إلى حد كبير، ولا أظنها ستنتهي إلا بانتهاء حياتي، لتصبح آخر محاولاته في التخلص مني، هي الأخيرة فعلاً.

المشكلة الآن أن تكافؤ القوى لم يعد يحميني، ولا حتى الصبر أو طول النفس. أولاً، لأن الحرب بيننا تحولت من محاولات تهديد أو ردع، أو حتى أذى - كبير أو صغير - إلى محاولات قتل مباشر صريح، المنتصر فيها قاتل والمهزوم قتيل. لا حلول وسط. مهما بلغت قوة ضرباتي، فلن تردعه وإن أوجعته. لن آمن على حياتي مادام حيًا، ولا أمل لي في النجاة إلا بموته، والذي هو بيد الله لا يدي، أو قتله، وهو ما لا أستطيعه للأسف، لأنني لست قاتلاً مثله.

ثانيًا، لأن جدك ذكي بما يكفي كي يفهم أن اللعبة لم تعد أصلًا لعبة قوة، وأنها لن تجدي في حالتنا لأنها شبه متعادلة فعلاً، لهذا لم يعد يلجأ إليها، بل للحيلة، للغدر والمكر، وهو ما يجعل الأمور أصعب بكثير، لأنك لا تعرف متى أو كيف، أو من أين ستأتي الضربة التالية، التي قد تكون الأخيرة القاضية.

أنا خائف فعلاً يا بني، ومنهك العقل ومرهق الأعصاب. حياتي

صارت سلسلة عذاب ملتفة حول عنقي، حلقاتها تفكير مضي، وقلق وتوتر، وحذر وترقب، كمحكوم عليه بالإعدام، ينتظر تنفيذ حكم، لا يعرف متى أو كيف حتى سيكون.

هذا هو كابوسي، وتلك هي قصتي، هنا تنتهي، وهنا أخبرك بأهم سببين حكيتها لك لأجلهما. أما الأول فأحسبه بات واضحاً بعد كل ما قرأت، ألا وهو خوفي عليك، رغبتني في تحذيرك مما يحيط بك إحاطة السوار بالمعصم، في فتح عينيك على ما يخفى عليك من مخاطر تعيش وسطها، ولا تراها رغم ذلك.

وأما الثاني، فهو أمر أريده لنفسي، سأرجئه قليلاً لأن هناك ما أود أن أخبرك به أولاً. أعلم أنني أبدو كمن يكتب رواية يعتمد تأخير ذروة معينة فيها بغرض الإثارة، ويعلم الله أن الأمر ليس كذلك أبداً، وستفهم حالاً الغرض الحقيقي من ذلك التأخير.

في حساب بنكي فتحتَه باسمك منذ مدة، ستجد مبلغاً محترماً من المال، لم أرد أن يعلم به، أو أن يشاركك فيه، أحد. ثروة صغيرة تكفيك وتغنيك تماماً - إن أردت - عن الإرث الأصلي الذي ستشاركه مع والدتك. أعلم أن في هذا مخالفة لشرع الله، لكنني أطلب منه أن يسامحني، وأن يحاسبني حساب المضطر، لأنني اضطررت حقاً لما فعلت، لسببين.

الأول، هو أنني - وأنت تعلم الآن الأسباب - لا أثق بعائلة والدتك البتة، لا أعلم ما يمكن أن يفعلوه بك وبمالك، وبحصتك الشرعية من الإرث، بل إن أحد جوانب الكابوس الذي أنام وأصحو على

خوفي من تحققه، هو فكرة تركي لك وسطهم بلا تأمين، بلا باب خلفي يسمح لك بالرحيل عنهم إن ساءت الأمور، أو حتى إن أردت فحسب.

والثاني، أنني أعلم أن ثقتك أنت أيضًا بهم قد تهتز، أن ما ستعرفه وأنت هنا، حتى لو لم تصدقه، إن لم يفزعك منهم، فعلى أقل تقدير، سينبت قلقًا في قلبك، وشكوكًا في رأسك حيالهم، قد تجعلك ترغب فعلاً في الانفصال عنهم، أو حتى تشعر أنك تستطيع متى شئت، وأن ظهرك محمي بشبكة أمان، مستعدة لتلقفك في أي وقت.

لهذا أردت أن أضمن لك - ولو جزءًا - من ذلك الأمان، لا سيما أنني أنا من هزرت أمانك وسط أهلك، بفتح عينيك على حقيقةتهم، لذا تحتم ووجب علي أن أتحمل مسؤولية ما قصصت عليك، لأنه لم يكن من العدل - أبدًا - أن أخيفك من أناس، ثم أتركك بينهم بلا ملجأ أو مهرب، ولا عون أو سند.

قد تتساءل - وهذا حقك - عن مصير ذلك المال في حالة عدم مجيئك إلى هنا. فأجيبك بأنني أراهن رهائًا أتمنى أن أكسبه، أراهن بك عليك، على محبتك لي، على أي قدر - ولو ضئيل - منها في قلبك، يمكن أن يدفعك للمجيء إلى هنا، ولو طلبًا لأثر أو ذكرى مئي، لا يهمني متى، فرهاني غير محدد بوقت معين، متى تذكرتني وأتيت، كسبت أنا الرهان، وكسبت أنت ثروتك.

أما إن اخترت ألا تأتي أبدًا، إن أردت نسياني ونسيان كل شيء عني، وارتحت واندمجت وسط أهل والدتك، فلا بأس، سأكون قد خسرت رهاني، لكنني لن أغضب أو أحزن، سأرتاح في موتي ما

دمت مرتاحاً في حياتك، وستجد أنت في إرثك الشرعي ما يكفيك
وزيادة.

بالنسبة لكل ما يخص المال، من أوراق وبيانات، فستجدها هنا
في غرفتي، في حقيبة سفر سوداء قديمة أسفل فراشي. أخبرك
بكل هذا أولاً، كي لا تعتقد أن له أي علاقة بما سأقوله في السطور
التالية، كي تفهم أنني لا أضعه مقابل ما سأطلبه منك، وأنت مخير
تماماً، إما أن تأخذ الأوراق وترحل، أو تكمل القراءة.

الآن أخبرك بما أريده، بالسبب الثاني، الذي قصصت عليك كل هذا
لأجله.

ما أريده يا (عمر).. هو الانتقام..))

أجندة (فؤاد)

((أعجب رغبة انتقام في التاريخ، انتقام لما سيكون، لا ما كان، رغبة لا أقدر على تلبيتها بنفسي، لأن ما أريد الانتقام لأجله لم يقع بعد، لكنه بعد أن يقع، لن أكون قادرًا على أي شيء.

أعلم أن ما أقوله صعب، وما أطلبه مريع، أكثر من قدرتك - أو قدرة أي إنسان - على التحمل، لهذا أكرر تأكيدتي على أنك مخير تمامًا فيه، كما أود التأكيد على نقاط أخرى أيضًا، غاية في الأهمية.

أولًا، أنا يجب أن نتيقن - قبل أي شيء - من وقوع الجريمة أصلًا. موتي الطبيعي احتمال لا ينبغي إغفاله، وفي تلك الحالة، لن يكون هناك احتياج لأي انتقام من الأساس.

ثانيًا، وهو ما لن يطبق إلا في حالة التأكد من النقطة السابقة، أنك لن تكون المنفذ الرئيسي أو الوحيد لأي شيء، سيكون لك رفيق معين، ذراع أيمن يحميك، توجهه كيف ومتى وأين تشاء، أدرك بالطبع أن التعامل معه - أو حتى مجرد رؤيته - قد يخيفك، لكنني أؤكد لك أنه لن يؤذيك أبدًا، كما أضمن لك طاعته وإخلاصه، بل وحسن تصرفه في حدود إمكانياته. هذا الرفيق هو قريني.

إن قبلت ما أطلب منك، ونويت الشروع فيه، فستجد في الصفحات التالية شروحا لكل ما قد تحتاج إليه من وسائل وأدوات ومعلومات، بما في ذلك طريقة استدعاء قريني والتواصل معه، ورصده لخدمتك وحراستك.

ولدي الحبيب، (عمر)،

سَرّني حديثي الطويل إليك، الذي أتخيلك الآن تقرأه وكأنك تسمعني. ويعز عليّ فراقك، لكن لا راد لقضاء الله. سامحني يا بني على كل ما اقترفت في حقك، واعلم جيدًا أنني لم أحب في حياتي أكثر منك.

لم يبقَ الآن إلا أن أودّعك، مستودعًا إياك الله الذي لا تضيع ودائعه أبدًا.

والدك

فؤاد

العباسية

12 أغسطس

2016

خواء وكآبة، وحيرة وتشوّت وارتباك، ورغبة في الصراخ والبكاء. كل هذا شعر به (عمر) وهو يرفع عينيه عن الأجندة ليحيلهما حوله ببطء وشروء، بلا وعي أو هدف، قبل أن يعود لخفضهما مجددًا، كأنه لا يعرف ما يفعل بهما أو بنفسه. مرّ بهما على آخر صفحة قرأها، ثم كالمخدر، قلب الصفحات التالية لها، متأملًا ما فيها بنصف فضول واهتمام.

كلام كثير لم يلتقط إلا هيئته العامة، وبضع كلمات من عناوينه مثل: استنطاق، زجر، عزيمة، دعوة.. مع بضع رسومات بسيطة، بعضها يبدو كالأشكال التوضيحية، والبعض الآخر كجداول أو مربعات غريبة التكوين. لم يفهم من كل ذلك شيئًا، بالأحرى، لم يحاول حتى أن يفهم، مر على الصفحات كمقالات في مجلة لا تعنيه، مكتوبة بلغة بالكاد يفك الخط فيها. لا طاقة له بكل هذا، بأي من هذا، ولا بأي شيء على الإطلاق.

ماذا يفعل الآن؟

بعد أن غادر الشقة وهبط من العمارة، سار (عمر) في الطرقات شاردًا، كالسائر نائمًا، وذلك السؤال يصرخ في عقله، متفرغًا لأسئلة أخرى متشعبة كالأوردة. هل يتجاهل كل شيء؟ كل ما حدث؟ وما قرأ وسمع ورأى؟ يأخذ المال ويتجاهل كل ما عداه؟ أهذا هو الحل، أو القرار الأصوب، حقًا؟ وهل هو مُجدٍ أصلًا؟ هل لو تجاهل كل شيء، سيتجاهله كل شيء؟ ألن تظل فكرة مقتل أبيه تشغله؟ ألن يورقه الشك في جده وأمه وأهله كلهم، حتى يجن أو ينتحر؟

شك؟ ألا يزال ما بداخله مجرد شك حقًا؟ ألم يتأكد بنفسه أنهم تمنوا موته، أي قتلوه بشكل أو بآخر، بالفعل؟ ألم يذهب للشقة اليوم خصيصًا لتحديد أداة ذلك القتل؟ بلى، لكن الأجندة لم تمنحها له مباشرة للأسف، للأسف حيّره والده أكثر، صعبها عليه أكثر، لم يعطه إلا طريقة مفزعة يحددها بها بنفسه.

لكن.. ماذا كان يتوقع فعلاً؟! ماذا كان بوسع والده أن يفعل أصلًا؟!

كيف يجيبه بشكل قاطع حاسم على أمرٍ كان بالنسبة له لا يزال في علم الغيب؟! كيف يمنحه دليلاً ملموساً قوياً على جريمة لم تكن قد حدثت بعد؟! بل، على حد قوله، حدثت بطريقة خارقة للطبيعة، لا ريب أن أدلتها وكل ما يخصها، خارق للطبيعة بدوره مثلها. ثم..

ألم يتمنى هو نفسه من قبل، مرارًا، موت أبيه؟

شبرا

12 أغسطس

2016

لم يتوقف عقل (عمر) عن العمل حتى عاد إلى غرفته واستلقى على سريره. كان جسده مكدودًا من طول اللف في الشوارع، ورأسه يئنُّ بما يحمله، يطن به كالموتور المعطوب، حتى لم يعد قادرًا على البقاء في أي وضع رأسي. ورغم ذلك كله، لم يكف عقله، لحظة واحدة، عن التساؤل والتفكير.

هل يعود لشقة (العباسية) فعلًا ويفعل ما طلبه أبوه؟ كيف وهو يخشى مجرد الدخول للجزء الداخلي منها للإتيان بأوراق البنك؟! كيف يتوغل في عالم الجان والقرناء هذا بكامل إرادته، وهو خائف حتى من التوغل في الشقة فحسب؟! كيف؟!!

حتى لو استجمع شجاعته ودخل، وانتزع الأوراق وفر هاربًا بسرعة البرق، ولم يعد بعدها أبدًا، هل سيسكت عقله أو يخرس ضميره؟؟ ألن يظل ذلك المال شوكة تنغزه في قلبه طوال حياته،

تذكره دائمًا بأنانيته وجبنه، وتقاعسه عن إراحة أبيه القليل في تربته؟؟ بلى، هو ليس حرجًا وسيظل يتعذب، حتى وهو يعلم أنه مخير تمامًا، ويستطيع فعلًا أخذ المال وتجاهل كل ما عداه، كما أكد له أبوه نفسه، حين قال أنه لا يربط طلبه بالمال، وأنه لن يغضب أو يحزن.

أكان لا بُدَّ أن يقول ذلك؟! ليته ما قاله. هل نسي أنه هو من سيحزن ويغضب وينقم على نفسه إن فعل؟! أم تعقد إشعاره بالذنب؟! لماذا أصلًا يحفل ضميره بذنب لا ذنب له فيه؟! أكان لا بُدَّ أن يبدو طيبًا مسكينًا هكذا في الأجندة، بطريقة تجبره على الإشفاق عليه والتعاطف معه؟! أين الرجل الذي كتب هذا الكلام، من الوحش الذي عاش معه طوال حياته؟! وإن كان طيبًا فعلًا كما يبدو في الأجندة، فلماذا لم يترك له اسم البنك ورقم الحساب فيها، ويرحمه من التوغل في الشقة التي يهابها كالموت؟؟!!

ماذا يفعل؟؟ بل بـمَ يشعر؟؟ لم تعد حيرته مقصورة على قراراته فحسب، الحيرة زحفت عليه حتى غمرته وشملت مشاعره كذلك! أيبكي حزنًا على أبيه أم يصرخ غضبًا منه؟ يسخط أم يشفق عليه؟ يحبه أم يكرهه أكثر؟

مهلاً، ماذا لو تجاهل الأمرين، المال والطلب، معًا؟ ألا يريحه هذا من كل شيء؟ لكن.. ماذا يفعل إذًا في مصيبة أمه التي أدخلت غريبًا شريكًا معهما في التركة، والله وحده يعلم ما قد تفعل لاحقًا؟؟

ازدادت حدة الحيرة واليأس على رأسه حتى أثقلته، وشعر أنه بدأ يدوخ ويرغب في النوم هربًا من كل شيء، وعقله، رغما عنه، لا

يزال يفكر. لا زال الحل الذي يمكن أن يريحه ويريح ضميره، أو حتى يسكنه فحسب، قائماً رغم كل شيء، وهو اعتبار كل ما قاله والده عن القتل والجنان، محض خيال ناتج عن مرض أو اضطراب نفسي، هلوسات وضلالات لا أساس لها من الصحة، حتى لو ثبتت له صحة أجزاء أخرى من كلامه، كتلك المتطابقة مع كلام خالته (هالة)، فهذا لا ينفي فرضية الخلل النفسي، المريض النفسي يمكن أن يبدو عاقلًا، وأن يقول كلامًا صحيحًا، في أحيان كثيرة، لا يشترط إذاً أن يكون كل ما يقوله تخريفاً، هذا إن اعتُبر كلام (هالة) مصدرًا موثوقًا أصلاً، تتحدد به صحة الأشياء من عدمها.

تراخى جفناه وبدأ الخدر يسري في جسده، والأفكار تفقد تماسكها وتسلسلها في رأسه، لكنه لا يزال يفكر. لا زال لا يملك دليلاً قوياً على أي قتل أو جان، حتى موت (حسام) لا دليل عليه.. آه، (حسام). والده قال إنه رأى قرينه مع (يوسف)، الذي رأى هو قرين والده معه فوق الـ... ماذا دهاه؟! هل سَلَم بأن ما رآه كان قريباً حقاً؟! هل اقتنع أخيراً بكلام أبيه؟!

لا، لا، ليركز على (يوسف) الآن فحسب، لا يدري لماذا يشعر أنه يجب أن يفعل. نعم، (يوسف) كان عاملاً مشتركاً في الواقعتين، لكنه أنكر أنهما رأيا والده، قائلاً إنه «هَيَّ لهما»، فلماذا؟ ولماذا حين يسترجع ردة فعله الآن، يذكر أنها كانت غريبة بعض الشيء؟ كأنه كان خائفاً أكثر مما ينبغي، وليس من القرين وحده، بل من شيء آخر كذلك، أو... كأنه لم يكن خائفاً فقط، بل حزيناً يائساً مرتاعاً كذلك، كأنه يواجه كارثة أو ينتظر وقوعها.. فلماذا أيضاً؟!

الآن ذلك الموقف ذكره بالموقف السابق، حين رأى قرين (حسام)؟
لأنه فهم ما تعنيه رؤية القرين، وخشي، مثلًا، أن يكون التالي؟ ألهذا
أصر على النزول من السطح وإنكار الأمر برمته وتجاهله تمامًا؟
من فرط خوفه؟ ألا يعد هذا دليلًا على صدق كلام أبيه، حول هذا
الموضوع على الأقل؟

لكنه يعود ليتساءل، وهل ظهور قرين أي ميت أصلًا، لا بُدَّ أن يعني
أنه قُتل؟ حسب كلام أبيه نفسه، فالإجابة هي: لا، لأن (حسين) لم
يُقتل، ورغم ذلك، رأى قرينه كل من كان يعيش في شقة (العباسية)
وقتها، حتى (حلمي).

كل دليل إثبات يقابله دليل نفي، فماذا يصدق؟ وماذا يفعل؟؟ هل
كلام والده تخريف تغلغل في عقله حتى صار يخرف مثله، محاولًا
إثباته؟ أم حقائق يحاول إنكارها إراحة لنفسه وضميره، وخشية مما
قد يترتب عليها؟

وانطبق جفناه، وبدأ يدخل برزخ النوم واليقظة، وعقله لا يزال
يعمل..

شبرا

2015

- «يا ساتر يا رب! الصوات ده جاي منين؟؟»

هتفت (نازك) بالتساؤل بتوتر واضطراب، والصراخ يبلغ أذني
(عمر) ليوتره بدوره، وإن ظل مظهره محتفظًا بهدوئه، وهو يسترشد

بأذنه متتبعًا مصدر الصوت، ليتجه لأقرب نافذة له وينصت مليًا،
تتبعه أمه التي عادت تتساءل بجزع:

- «شقة خالتك؟؟ الصوت جاي من عندهم؟؟»

- «لأ، شكله كده من العمارة اللي جنبنا».

اقتربت من النافذة بدورها، مرهفة سمعها، لكن العمارة كانت لصق
عمارتهم تقريبًا، والصوت نفسه ارتفع حتى لم يعد محتاجًا لأي
إرهاف، بات واضحًا أنه شجار عنيف بين ذكر وأنثى، اختلط فيه
الصراخ بأصوات أشياء تتصادم وتتحطم، لتتسع عينا (نازك)، وهي
تقول بصوت خفيض:

- «ده صوت (إيناس) بنت الحاج (عيسى).. واللي بيتخانق معاها
ده تقريبًا كده جوزها».

تبادلا نظرات التوتر والقلق في صمت، وجدة الشجار تتعالى بشكل
جنوني، حتى قال (عمر) بانفعال:

- «هي بتصرخ كده ليه؟؟! هو بيعمل لها إيه، ولأ إيه اللي بيحصل
بالظبط؟؟ نتدخل طيب ولـ...؟؟»

- «بخ بخ جلجلوت بهللت، بصمصام طمطام وبالنور والضياء،
بطمطام مهران به النار أخدمت».

شبرا

12 أغسطس

فتح (عمر) عينيه فجأة، وعقله يسترجع بقية الذكرى بوضوح...

شبرا

- «ده إيه ده؟ إيه اللي قلتيه ده؟»

ألقي (عمر) سؤاله بفضول على أمه بعد العبارة الغريبة التي قالتها، لتشير له بيدها علامة الصبر، وهما لا يزالان ينصتان للشجار الذي بدأت حدته تخفت، لتبتعد (نازك) عن النافذة وتقترب من أخرى، معاودة الإنصات، كأنها تتأكد أن الأمور في طريقها للهدوء بالفعل، و(عمر) يتبعها، معيذاً سؤاله باهتمام:

- «إيه بقى الكلام العجيب اللي قلتيه ده؟»

بابتسامة صغيرة بها بعض الزهو، قالت:

- «خذت بالك إني أول ما قلته، الدنيا بدأت تهدأ؟»

- «أيوه هو إيه بقى؟؟»

بدأت تتشاغل بما كانت تفعله قبل سماعهم للشجار، وهي تقول:

- «دعاء مستجاب».

- «غريبة! عمري ما سمعته ولا سمعت حتى حاجة شبهه. ده إيه

اللغة دي؟؟ عربي؟!»

- «ماعنديش فكرة والله».

- «أمال جبتيه منين؟ مين قال لك عليه؟»

- «جدك».

شبرا

12 أغسطس

2016

هل قالت وقتها دعاء أم دعوة؟؟

انتفض (عمر) جالسًا على سريريه بتحفز، ويده تلتقط تليفونه المحمول من جانبه. وقتها لم يكن يعرف معاني تلك الكلمات ولا دلالتها، واليوم لا زال لا يعرف معانيها، لكنه، بعد كل ما قرأ في الأجندة، شبه متأكد من دلالتها، وبعد بضع ثوانٍ، سيزيل كلمة «شبه» هذه من العبارة، ليصبح متأكدًا تمامًا.

دعاء أم دعوة، لا يهم، المهم هو الكلمات الغريبة نفسها، التي رسختها في رأسه غرابتها، والتي يبحث بها الآن على الإنترنت.. وها هي ذي النتائج تظهر متراصة أمامه، قاطعة كل شك بسكين اليقين.

ما قالته أمه كان جزءًا من شيء يذكر أنه قرأ اسمه بالنص في أجندة أبيه، في الأجزاء الخاصة بالسحر والجان، شيء يدعي: «الدعوة الجملوتية».

المهندسين

13 أغسطس

2016

- «كنتي واحشاني أوي يا (نرمين)».

قالها (عمر) بابتسامة هادئة تخفي كل ما بداخله. أما هي، فقد أشرق وجهها كله بحب وحنان دافقين، وهي تقول بحرارة:

- «وانت كمان، أوي والله».

بهتت ابتسامته لكنها ظلت ملتصقة بوجهه، وشرد ببصره قليلاً خلال نافذة المقهى الذي يجلسان فيه، قبل أن يعود لتأملها ملياً، بنظرة تسلل لها شيء من الحزن، كأنه يحتضنها بعينيه مودعاً. والتقطت هي ذلك الحزن، لكنها لم تعلق عليه أو تشر إليه خشية إغضابه، وإفساد لحظة صفاء بينهما، صارت عزيزة المنال مؤخرًا. التقطت كذلك إحساس المودع ذاك، فتعجبت، وانقبض صدرها لحد خشيت وعجزت معه عن التعبير عما بداخلها، إلا باعتصار قبضتيها المتشابكتين في حجرها، أسفل سطح المنضدة، وشحب وجهها، لكنها احتفظت بابتسامتها المشرقة فوقه كما هي.

- «ممكن أسألك سؤال؟»

قالها مثبتًا عينيه عليها، فأسرعت تقول:

- «أكيد طبعا».

صمت قليلاً، ثم ببطء وخفوت، قال:

- «لو حصل في حياتي تغيير.. لو حصل لي أنا نفسي أي تغيير، كبير أو صغير، هل هياثر على علاقتنا؟ يعني.. ممكن يخليكي تبقي عايزة تسيبيني؟»

فتحت فمها كأنها ستجيب، أو كأنها دهشت، لكنها قبل أن تجد الفرصة لقول أي شيء، عاد يقول، مستدركا:

- «أنا سألت بصيغة غلط معلى، أنا مش باستنكر، أنا باسأل بجد، لو حصل، مثلاً، إني افتقرت أوي، أو اغتنيت أوي، أو سبت الكلية، وسبت أهلي، وبدأت حياة جديدة خالص، مختلفة تمامًا ومش سهل تحمّلها.. لو أنا نفسي طباعي اتغيرت، أو حتى شكلي.. هل هتكوني قادرة تكملني معايا؟»

كادت تجيب هذه المرة أيضًا لكنه أوقفها بإشارة من يده، مضيّفًا:

- «معلى خليني أكمل، وماتتسرّعيش، الموضوع مش سهل أبدًا ومحتاج تفكير، أنا حتى مش هاقدر أقول لك بالضبط إيه التغير اللي ممكن يحصل في حياتي، لأن فيه أجزاء منه، أنا نفسي لسه مش عارفها، أو.. مش متأكد منها، وأجزاء.. هاكون صريح معاكي وأقول لك إني ماقدرش أقولها لك».

توقف قليلًا ليلتقط أنفاسه، وفهمت هي أنه سيكمل فصمتت، ليكمل بالفعل:

- «مش عايزك تكملني معايا شفقة أو عطف أو تعوّد، ممكن ننفصل ونفضل صحاب، بدل ما نستمر وتكرهيني، انتي حلوة ولسة صغيرة، وممكن تبدئي من جديد مع شخص حياته أقل تعقيدًا من حياتي،

اللي انتي عارفة قد إيه هي معقدة، وباقول لك دلوقت إنها، للأسف،
ممكن جدًا تزداد تعقيدًا».

أنهى كلامه وتنهد بعمق، متراجعًا بظهره للوراء، محتفظًا بتثبيت
عينيه عليها، فقالت:

- «خلصت كلامك؟»

أومأ برأسه إيجابًا، ففكت تشابك يديها لترفع يمناها وتمدها نحو
كفه المبسوطة فوق المنضدة، لتمسك بإبهامه بيدها الصغيرة وهي
تقول:

- «لو السما انطبقت على الأرض يا (عمر)، عمري ما هاسيبك».

العباسية

14 أغسطس

2016

وقف (عمر) أمام الشقة يتأملها، شاعرًا أنها تتأمله بدورها. كان قد
اتخذ قراره منذ ليلة أول أمس، منذ تذكر واقعة الدعوة الجلجوتية
إياها، وها هو ذا الآن يقف عند نقطة في الزمان والمكان، ستتغير
حياته بعدها إلى الأبد.

عند مدخل الطرقة الطويلة، وقف يتأمل الجزء الداخلي من الشقة،
الذي لم يطأه منذ بدأ كل شيء، إلا مرة واحدة فقط، قبل أن

يحدث شيء، أو يعرف هو أي شيء. أقرب جزء له منها كان مضاءً بما يتسرب له من ضوء الصالة الأبيض الفلورسنت، والجزء الأوسط بمصباحها هي، الطريقة، الأصفر الخافت، أما أبعد وأعمق جزء، والذي يصب في طريقة أخرى أصغر، تطل عليها غرف النوم، فظلته شبه تامة.

وقف (عمر) بثبات يتأمل هذا كله، والسؤال الذي طرحه على نفسه سابقًا، يعود ليطرق ذهنه من جديد، لكن بأسلوب مختلف قليلًا.

ما أسوأ ما يمكن أن يصيبه؟

قبل أن يجيب، رتب في ذهنه كل ما يمكن أن يُطمئنه من معطيات ومعلومات. أولًا، والده لا يمكن أن يعرضه لخطر بالغ، ومادام هو من طلب منه ما سيقدم عليه الآن، فعليه إذن أن يصدّقه، لا يملك الآن أصلًا إلا أن يصدّقه، وبالتالي تأتي ثانيًا، قوله بأنه أمّن الشقة كلها وحضنها داخليًا وخارجيًا، وداخليًا هذه تعني أن قوة الجان بداخلها تضعف، إلى درجة تهبط بقدراتهم هبوطًا عظيمًا، يحجم من تأثيرهم إلى حد كبير، ويجعل الراغب منهم في الإيذاء، غير قادر عليه. هكذا قال بالنص.

إذن، فإجابة السؤال هي: الخوف ليس إلا، صغيرًا سيكون أو كبيرًا. لن يكذب على نفسه ويقول أنه اعتاده أو صار أشجع، سيقول فقط أنه صار متأهبًا له، يتوقعه في كل لحظة وكل مكان، ليس هنا فقط، فإن لم يكن من الخوف بد، ف...

فليتقدم إذًا.

خطا (عمر) داخل الطَّرقة لا مسرعًا ولا متباطئًا، غير متظاهر بالشجاعة ولا مستسلم للجبن. سار بهدوء أقرب لبرود حاول أن يجعله يشمل ظاهره وباطنه، حتى وصل لمفتاح إضاءة طَّرقة غرف النوم فضغطه، متوقعًا للحظات، أجال فيها عينيه في المساحة التي بددها الضوء الخافت من الظلام، قبل أن يتابع سيره نحو غرفة أبيه، التي قرأ، أول ما دخل، في بداية آخر جزء من الأجنحة، الخاص بشروح طرق كل ما سيتوجب عليه عمله، أن كل ما سيحتاجه تقريبًا، موجود في نفس حقيبة السفر التي تحوي أوراق البنك، أسفل سريرها.

حتى الآن لم يحدث شيء، لكن ما يمكن أن يحدث هو.. كل شيء، أي شيء يظهر أمامه فجأة، يلمحه بطرف عينه بسرعة، يلمس يده حتى أو يحتك بها وهو يضغط أي مفتاح إضاءة، أو...

أو أن يجد باب غرفة والده مغلقًا، رغم تأكده التام أنه، حين دخل إلى هنا، ترك أبواب كل غرف الشقة كما وجدها، مفتوحة.

طبقًا لا مجال لفرضيات من نوعية تيارات الهواء أو ما شابه، لأن كل شرفات ونوافذ الشقة مغلقة، ولا للفرع المبالغ فيه كذلك لأنه.. لأن ما هو مقبل عليه، بالتأكيد، سيكون.. ليرجئ كل الفرع والهلع لوقتها إذا.

مدّ (عمر) يده، التي لم يتمكن من منع ارتجافة خفيفة سرت فيها،

نحو مقبض الباب البارد كالثلج، وهو يتمتع بالتعود والبسمة، وبنفس التوسط ما بين التسرع والتباطؤ، والرعونة والتؤدة، أدار المقبض ودفع الباب.

من الفرجة التي راحت تتسع تدريجيًا، تبدت له معالم الغرفة كما عرفها دومًا، بقدر ما تسمح به القتامة التي لم يفلح في تبديدها الضوء المتسرب من مصباح الطرقة الخافت أو خصاص الشرفة المغلق، القتامة التي تعم الشقة كلها، والتي صار يعرف الآن سببها.

بسرعة لم يتعمدها، ضغط مفتاح النور وسحب يده من فوقه سريعًا. حبس أنفاسه حتى توقف ارتعاش ضوء اللبة الفلورسنت وثبت، لتسبح الغرفة في الضوء الأبيض المزرق الباهت، ويتمكن هو من التنفس وهو يتفحصها جيدًا بعينه، ثم يخطو داخلها.

هبط على ركبتيه بجوار السرير وانحنى بجذعه قليلًا. هل سيضطر للبحث عن الحقيبة من بين أخريات؟ أو الدخول برأسه ويده أسفل السرير لسحبها؟ من كليشيهات الرعب المحفوظة جدًا، أن يجد شيئًا ما هنا، يحدق فيه بعينين متسعيتين، أو يقفز في وجهه فجأة. لكن الحقيبة كانت قريبة من حافة السرير لحسن الحظ، ولا حقائب سواها، وعلى الأرجح لا دور للحظ في هذا، لا ريب أن والده، الذي عرفه دومًا منظمًا منمقًا في كل تفصيلة من حياته، هو من قصد وضعها هكذا، ليسهل عليه إيجادها.

أسهل وأصعب جزء من المهمة انتهى. هكذا فُكّر (عمر) وهو يجذب الحقيبة ويحملها، مسرعًا بها إلى الصالة. الأصعب لأنه كسر لجليد الخوف، خطوة بداية البدايات غالبًا صعبة. والأسهل لأنه... سيعرف

بعد قليل، كم كان ذلك الجزء سهلاً يسيراً.

أول ما ينبغي فعله هو استدعاء القرين ورصده لخدمته، هكذا كتب والده في الأجندة، وهو ما جهز (عمر) كل شيء أمامه للبدء فيه، بعد أن وجد كل ما احتاجه لتجهيزه موضوعاً ومنسقاً في الحقيبة بالفعل. مبخرة وبخور ومقص، وكتاب وُضعت علامات عند الصفحات والأجزاء المطلوب قراءتها، و... و... لم ينس والده أي شيء، حتى القداحة وكيس الفحم سريع الاشتعال، اللازمين لإشعال البخور، موجودان كذلك.

رحمه الله كان دقيقاً منمقاً طيلة حياته، يكاد لا يترك شيئاً أبداً للظروف. كذا فكر (عمر)، حائزاً بين شكر والده على التنسيق الذي يسهل عليه مهمته، والنقمة عليه لطلبه للمهمة نفسها أصلاً. لكنه سرعان ما تجاهل تلك النقطة، ليركز وهو يراجع كل شيء عدة مرات، مقارناً إياه بالمكتوب في الأجندة عشرات المرات، ليس لأنه قلق موسوس بطبعه فحسب، وإنما لأن الخطأ هنا، على الأرجح، لن يكون خطأ بل كارثة، لا يدرك حتى أبعادها أو نوعها، تطبيق عملي مفرع للعبارة المفزعة في حد ذاتها، «الغلطة بفورة».

ثم سحب ل صدره نفساً عميقاً، زفره وبدأ.

فوق البخور الذي أشعله، ألقى (عمر)، بيد مرتجفة، خصلة الشعر الصغيرة التي قصّها من مؤخرة رأسه، من ثم أمسك بالكتاب، فاتحاً

إياه على الصفحة المعلم موضعها بوريقة صغيرة مثبتة أعلاها. وعلى الجزء الذي يجب أن يبدأ من عنده، المعلم عليه بقلم رصاص، ثبت عينيه، وتنحنح ليسلك حلقه، ثم بدأ يقرأ بصوت مرتجف رغم ارتفاعه:

- «بسم الله الرحمن الرحيم، بمهمهوبٍ مهمهوبٍ ذي لطف خفي، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، بصعصعٍ صعصعٍ ذي النور والبهاء، أشرق نورك فأنجلت الظلمات، اللهم إني أسألك بعرشك الذي تغشاه الأنوار، بما فيه من أسرار، أسألك بعظمة الألوهية، وعزة السرمدية، بحق ملائكتك أهل الصفات الجوهريّة، بحق اسمك المكتوب على جناح جبريل، وبحق اسمك المكتوب على جبهة إسرافيل، وبحق اسمك المكتوب على كف عزرائيل، إلا ما قضيت حاجتي، بطهطهوبٍ طهطهوبٍ ذي العز الشامخ والعظمة والكبرياء، ارفع عني حجاب الظلمات، وأرني بنورك ما أظهرته لعبادك أهل القلوب الطاهرات، وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين».

مع نهاية كلماته، التقط أنف (عمر) رائحة قوية لا تشبه رائحة البخور، ولا حتى الشعر المحترق، بل اللحم المحترق، ليقشعر جسده قليلاً وهو ينظر حوله في كل اتجاه، متأهباً متحفزاً، متوقعاً، بل منتظراً، ظهور أي شيء فجأة، أو تحرك أي شيء من مكانه، داعياً الله في سره أن يكون نطقه للكلمات جاء صحيحاً، ففي الأجندة تشديد من والده على أهمية تلك النقطة، وفي الكتاب علامات تشكيل صغيرة رسمها له بالقلم الرصاص على كل كلمة قرأها وسيقرأها، مع بضع تعديلات وملاحظات في بعض المواضع. ورغم

أنه حرك بها شفتيه بلا صوت على سبيل التدرب عليها قبل تلاوتها بصوت عال، إلا أنه ظل خائفًا مرتاعًا من احتمالية الخطأ.

مرّ عليه وهو على تلك الحال ما لا يتعدى ربع دقيقة، بدا له، من فرط التحفز والتوتر، طويلاً ثقيلاً كالدهر. ثم بدأت أذنه تلتقط الصوت، نفس الصوت الذي سمعه أكثر من مرة من قبل، أو يشبهه كثيرًا.. كأنه شيء، أو شخص، يتحرك، يأتي من نفس المكان، من عمق الشقة، من غرفة والده على الأرجح.

في كل مرة سمع فيها ذلك الصوت، كان يفزع ويفر هاربًا، لكنه الآن لا يستطيع الهرب للأسف، ولا منع الارتجافة التي شملت جسده كله، أو العرق الذي بدأ يطفر من جميع مسامه.

والتصقت عينا (عمر) المتسعيتين المتصلبتين بمدخل الطرقة، والصوت المنبعث منها يزداد وضوحًا، ومصدره يزداد اقترابًا و... وظهر والده خارجًا منها، أمام عينيه.

للهولة الأولى، شعر (عمر) أن في الأمر خدعة ما. من هذا؟ ومن الذي مات إذن؟ من الذي وقف على غُسله وحمل نعشه على كتفه وأنزله لقبره بيديه؟ كيف غادر قبره؟ كيف خرج من داخل الشقة؟ وكيف ينتصب واقفًا أمامه هكذا؟ كيف؟؟!!

بعد الصدمة الأولى، بدأ يعوب إلى رشده ليتساءل في قرارة نفسه، أهذا هو القرين إذًا؟؟ لكنه يبدو كأبيه بالضبط! بشحمه ولحمه و.. هنا بدأ يفطن للاختلافات بين الشيء الواقف أمامه وأبيه. لا، ليس

هذا لحقًا، أو هو لحم غير بشري، أو غير حي. أولًا، هيئته غريبة، كأنه مصنوع من شيء غير مادي، لا يشغل حيّزًا من الفراغ، أو يشغله كصورة هولوغرامية، لا كتلة لها ولا وزن.

ثانيًا، لونه شاحب بشكل غير طبيعي، باهت إلى حد مخيف، أقرب للون أقنعة الموت الشمعية أو الجثث، الأمر الذي ينطبق على تعبير وجهه كذلك، تعبير اللا شيء على الإطلاق، اللا تعبير، حتى عينيه بدتا وكأنهما لا تنظران إلى أي شيء، كأنه جمّة واقفة مفتوحة العينين.

انتبه (عمر) في تلك اللحظة إلى أنه لا يزال ممسكًا بالكتاب الذي قرأ منه منذ قليل، والذي نبهه بدوره إلى ما كان يفعله من الأساس، وإلى ضرورة إكماله، حتى لو كان لا يزال مفزوعًا مبهوثًا هكذا، بل لهذا السبب، بالذات، يجب أن يكمل، فمن غير المنطقي أن يفزع نفسه كل هذا الفزع، بلا طائل أو نتيجة في النهاية.

بصعوبة أبعد عينيه عن القرين قليلًا ليعاود النظر في الكتاب، محتفظًا بالأول في مجال إبصاره رغم ذلك، كأنه يخشى أن يقفز في وجهه بغتة، أو يأتي بأي حركة مفاجئة. لكن القرين ظل ثابتًا جامدًا في مكانه كالتمثال، و(عمر) يقلّب في الكتاب حتى يصل إلى صفحة أخرى معلّمة الموضع والفقرة، ثم بصوت مرتفع مرتجف كالمرّة السابقة، يقرأ منها:

- «السلام عليك يا قرين (فؤاد)، يا من ولدت حين ولد، وبكيت حين بكى، ومشيت حين مشى، يا يغموش يا يغموش، مرش مرش، مربوش مربوش، عزّمت عليك بفتح بيننا بحق كتب الله، اهيا

شراها كيموش كيموش، بحق كل عزيمة عزمها مخلوق من طين
على مخلوق من نار، اهيا شراها ادوناي اصابؤت، اخضع لمقامي
مستكين مستكين، الوحا الوحا، العجل العجل، الساعة الساعة».

أنهى (عمر) القراءة بزفرة كانت محبوسة في صدره، أخرجها ببطء
وحذر من بين شفثيه المرتجفتين، معلقًا عينيه بالقرين، يكاد ينافسها
تصلبًا وجمودًا. ولبضع ثواني، ثبت المشهد تماقًا، كأنهما تمثالين
متقابلين أو لوحة مرسومة، ثم...

تحرك القرين، حركة طفيفة لكنها ملحوظة، كأنه يعدل وضعه كي
يواجه (عمر)، ناظرًا في عينيه وهو يقول:

- «وعليك السلام».

لم يفلح ما قرأه (عمر) عن وصف والده لصوت القرين، في تهيئته
لسمعه. تذكره بوضوح، وفهم كم كان صادقًا دقيقًا، لكن هذا لم
يخفف ذرة من رعبه وهو يسمع التجسيم الحي لما قرأ، غليظ
محشرج، مربع لدرجة لا تصدق، أكثر حتى من الوجه، تركيبة كلها
مفزعة.

ذكره هذا أيضًا بما قاله عن كونه لن يؤذيه أبدًا، فحاول طمئنة
نفسه بذلك، وإن ظل محتارًا مرتبكًا لا يعرف ماذا يفعل أو كيف
يتصرف. حسب كلام والده، يمكنه الآن أن يطلب من القرين أي
شيء، أو يسأله عن أي شيء، على أن يكون بسيطًا واضحًا محددًا
في كلامه وأسئلته قدر الإمكان. طبقًا الغرض من هذا كله أصلًا يدور

حول موت أبيه، لكنه لا زال لا يعرف كيف يبدأ بالضبط، مازال مبهوًا وجلاً مما يحدث، جسده يرتجف وأطرافه باردة كالثلج، والموقف كله عجيب جديد تمامًا عليه.

المشكلة أن وقفة القرين العابثة ونظراته الجامدة المحدقة فيه، تزيدان الأمر سوءًا، تشعرانه أنه مراقب أو مرصود، لكنه يجب أن يفعل شيئًا، أي شيء، أن يجرب حتى يتحدث إليه، أن يكسر الجليد بأي طلب أو سؤال ولو تافه للغاية، ليرى ما سيحدث، بالتالي يحاول التأقلم والتعود عليه.

- «ممكن تقعد...».

قالها بلهجة شعر أنها غبية جدًا، لا هي سؤال ولا هي طلب. ماذا سيفعل القرين الآن؟ بل ماذا يفعل هو؟ هل يعيد ما قال؟ هل يوضحه؟ هل...

لكن القرين قطع عليه تساؤلاته وأراحه من حيرته، وجلس على المقعد المقابل له بحركة آلية.

ارتجفت زاوية فم (عمر) فيما يشبه ابتسامة خفيفة، متسائلًا في سره، أيمكن أن يكون الأمر أسهل مما توقع؟

فكر قليلًا فيما سيقول تاليًا، ثم قال:

- «إنت عارف أنا مين؟»

- «عارف».

لا زال الصوت يزعجه ويثير القشعريرة في جسده كله، لكن لا بأس،

سيعتاده، سيحاول أن يعتاد هذا كله، سيلقي مزيدًا من الأسئلة كي..

- «إنت اللي كنت بتعمل صوت في المرات اللي فاتت؟؟»

اندفع بلا وعي يلقي السؤال الذي لام نفسه عليه فور تفوهه به،
يجب أن يهدأ ويعيد صياغته، فقد كان أبعد ما يكون عن الوضوح
والتحديد والـ..

لكن القرين عاد يفاجئه، قائلاً:

- «أنا كنت هنا».

ضيق (عمر) عينيه، إجابة غامضة مبهمة إلى حد كبير، لكنها أفضل
مما توقع، عليه إذن أن يتروى، الأسئلة بداخله متشابكة معقدة،
وكثيرة متلاحقة، تكاد تضغط على حلقه كي تندفع خارجة من فمه
كالصرخة دفعة واحدة، لكنه يجب أن يهدأ ويفكر قبل كل سؤال، كي
يحصل على ما يريد من إجابات.

- «إنت كنت فوق سطح بيتنا في (شبرا) من أسبوعين؟»

- «أيوه».

تألقت عينا (عمر) بمزيج من الظفر والانفعال والارتياح، وتتابع
الأسئلة، وبدأت الأمور تتضح...

((بعد موت الإنسان، يعتقد قرينه أحيانًا - لفترة من الزمن - أنه
هو نفسه ذلك الشخص، لهذا، وكأنما بتأثير قصور ذاتي، يظل مدة
يعيش حياة صاحبه كأنها حياته هو، فيتردد على نفس الأماكن

ويقوم بنفس الأفعال، لا سيما تلك التي تسبق الوفاة مباشرة أو بوقت قصير. في تلك الفترة، يتجلى القرين - أحيانًا - للأحياء، فيسمع أو يرى، أو ترصد آثاره، لهذا يقول البعض أنهم يرون ذويهم بعد وفاتهم، في نفس الأماكن التي عاشوا فيها.

في بعض حالات الموت العنيف، تزداد حدة كل هذا، لأن القرين يكون أكثر حزنًا أو غضبًا، بالتالي أكثر جلاءً وصخبًا، فتزداد احتمالية رؤيته أو سماعه، أو ملاحظة آثاره. لكن الأمور تصل لأقصى حد لها، في حالات القتل، لا سيما تلك التي لم تُحل قضاياها، والتي يحاول قرناء ضحاياها - أحيانًا - لفت الانتباه لهم، أو الإشارة لأشياء مثل قاتليهم، أو مواضع جثثهم، أو طرق قتلهم.))

هذا ما كان القرين يفعله بالضبط إذن!

كذا فكر (عمر) وهو يرفع عينيه عن الأجندة. كان قد قرأ ذلك الجزء من القسم الأخير من الأجندة قبل استدعاء القرين، لكنه لم يشعر أنه فهمه فعلاً إلا الآن، بعد ما حصل عليه من إجابات عن الأسئلة التي ألقاها عليه، مكملاً الصورة في رأسه بما قرأه عنه سابقًا، مع القليل من استنتاجاته هو.

لم يكن مجنونًا إذن، لا هو ولا والده، هذا يريحه إلى حد كبير، ما يحنقه هو أنه فهم الآن أن أمه رأت القرين وشعرت به مثله، ورغم ذلك تركته يعتقد أنه مجنون، وأن واقعة الحمام لم تحدث إلا في خياله. شعر في تلك اللحظة بمقت قاتل نحوها، لم يشعر بمثله نحو (يوسف)، رغم إنكاره هو الآخر لرؤية القرين فوق سطح البيت، ربما لأن رد فعله كان أكثر آدمية، يجعله يشعر بالشفقة لا السخط عليه،

ملتصمًا له نفس العذر الذي التمس له والده من قبل، الخوف، الفزع من فكرة أن يكون هو التالي في سلسلة القتل المربعة هذه، أو ربما لأن (يوسف)، ببساطة، ليس إلا زوج خالته، ليس أمه، بالتالي لا ينتظر منه ما ينتظره منها.

لا يهم، ليس هذا وقته، لا تزال هناك بعض القطع الناقصة في هذا البازل العجيب، لذا تابع (عمر) أسئلته للقريين:

- «ليه صوتك هنا دلوقت، مختلف عن الصوت اللي كنت بتهمس بيه في ودني بالليل في (شبرا)؟»

- «غيرته عشان ماتخافش».

- «وليه مش بتغيره دلوقت؟»

- «الشقة مانعاني».

آه، الحماية التي وضعها والده على الشقة، والتي تحجّم قدرات الجان، بما فيهم القرناء على ما يبدو، الأمر الذي لا بُدّ وأنه يفسر كذلك أن...

- «عشان كده خطك هنا مهزوز؟»

قالها (عمر)، رافعًا الورقتين المقتطعتين من الأجندة، فقال القريين:
- «أيوه».

المزيد من قطع البازل تسقط في أماكنها، والمزيد من ال... ماذا؟ ماذا يسمى شعوره نحو القريين؟ انبهار؟ استغراب؟ رهبة؟ ذهول؟ المزيد من... المزيج من هذا كله إذًا، يعتمل داخله. لم تكن لديه أي

مرجعيات عن طبيعة القرناء أو قدراتهم، سوى ما قرأه في أجنده أبيه، أما معلوماته عن علاقة الجان بالشعر، فتكاد تتلخص فيما هو معروف عن وادي (عبر).

لكن هذا القرين مميز بالفعل فيما يبدو كما قال والده، فالقصيدة العانية، الفصحى، كانت، بعكس الأولى، مهموزة الحروف، مما قد يعني أنه كان يحاول مقاومة حماية الشقة، يتطور كأن له ما يشبه الشخصية بالفعل! ثم إنه استطاع الرسم على التابلت! هذا مذهل بكل المقاييس، حتى لمن لا يملك أية دراية عن تلك الأمور، ويعني كذلك أن والده نفسه..

- «(فؤاد) كان يرسم ويكتب شعر؟»

- «أحيانًا».

غريبة! لم يره أبدًا يفعل أيًا من الأمرين، ولا ذكر في الأجنده أي شيء عنهما. لأنه لم يرَ داعيًا لذلك؟ ربما. الأكيد هو أنه لم يرث موهبة الرسم وحبه من جهة عائلة أمه فحسب كما كان يعتقد، بل من أبيه كذلك دون أن يدري، والأكيد أيضًا أن الأخير ترك بعضًا من إنتاجه في مكان ما.

- «فين رسوماته وأشعاره؟»

أشار القرين بلا كلام إلى حقيبة السفر التي كان (عمر) قد تركها مفتوحة على أريكة الأنتريه، والتي لم تكن تحوي أوراق البنك وكتب السحر وأدواته فقط، بل أشياء أخرى كذلك، تبدو طبيعية عادية، ملابس وأكياس وما إلى ذلك، وُضعت على الأرجح كنوع من

التمويه، لثدس أشياء السحر والبنك بينها، فلا يسهل عثور من قد يفتح الحقيبة عَرَضًا أو عن طريق الخطأ، عليها.

نهض (عمر) يبحث بين هذا كله حتى وجد ظرفًا بنيًا كبيرًا، بداخله كراستان صغيرتان، وبضع أوراق منفصلة متباينة المقاسات والأنواع. أخذ الظرف وعاد لمجلسه متفحصًا محتوياته. الكراستان حوتا كلامًا بدا، من الخطوط وأنواع الأقلام المستخدمة، أنه كُتب في أزمنة متفرقة، بعضه له مظهر شعري، والبعض الآخر بدا نثريًا، كالخواطر أو ما شابه. أما الأوراق، فكلها كانت رسومات من شتى الأحجام، استُخدمت فيها أقلام مختلفة كذلك، وإن كان لها جميعًا نفس الأسلوب الذي ميزه (عمر) على الفور، والذي رُسمت به لوحات التابلت الثلاث.

أعاد كل ذلك إلى مكانه وعاد يرفع عينيه إلى القرين، شاعرًا، في تلك اللحظة، أن نظرتة له، وشعوره نحوه، بدءا في التغير، في التحور إلى ما يشبه الألفة والامتنان. عاد يحس أن هذا هو والده الذي عاد للحياة، لا قرينه، أو على الأقل، جزء منه، شيء يحمل رائحته وبصمته. والده نفسه قال في الأجندة إنه اعتبره توأمه. بالمفردات العاطفية إذًا، هو أشبه بعمه الذي لم يكن يعلم بوجوده فحسب. وبمفردات أكثر علمية، هو أقرب لروبوت له نفس هيئة والده وذكرياته، مُدار بنظام ذكاء اصطناعي، يجعله متمشيًا بدقة شبه تامة، مع الصفات التي خلعها عليه والده، التصلب، محدودية التفكير، وآلية الحركة والحديث.

لكن هذا ليس وقت التأثيرات العاطفية أو التأملات الفلسفية، ولو

على العاطفة، فعاطفته نحو أبيه يجب أن تدفعه لإتمام ما بدأ فيه، وإن كان يعرف أنه سيكون مؤلماً مخيفاً، ويشعر في قرارة نفسه أنه كان يماطل ويؤخره عامداً لخشيته منه. لذا، سحب نفساً عميقاً إلى صدره كأنه يهدئ نفسه ويؤهبها لما هو آت، قبل أن يقطب، قائلاً بصوت أجش خفيض:

- «مين قتل (فؤاد)؟»

- «(حافظ)»

قالها القرين بنفس بروده وآليته، لتذوب التقطية من على وجه (عمر)، مفسحة المجال للدهشة التي حلت محلها.

ماذا؟! ليس جده إذًا؟!!!

تصلب وجه (عمر) على تعبير المبهوت المرتبك الحائر، الغير فاهم لأي شيء، لبضع ثوانٍ، كاد عقله خلالها يصرخ ويلطم خديه من ضغط الأسئلة التي راحت تتكاثر داخله كخلايا السرطان. هل يتنفس الصعداء ويرقص طرباً احتفالاً ببراءة جده؟ أم ينتقم من (حافظ)؟ لكن كيف ينتقم؟ من (حافظ) هذا أصلاً؟ كيف وأين يجده؟ لماذا قتل والده؟ ولماذا لم يشك والده فيه؟ ماذا كانت علاقته به؟ عمل؟ صداقة؟ عداوة؟ تبا له، لماذا لم يكن ابناً باراً يعرف كل معارف أبيه، كي يتمكن من الانتقام منهم وقتما يشاء؟؟

ما هذا العبث؟! انتشل (عمر) نفسه من حالته تلك، لتعود التقطية إلى وجهه، وهو يعاود سؤال القرين بانفعال:

- «(حافظ) مين؟؟»

- «(حافظ بن بارق)».

اسم عجيب! له وقع شبه خليجي أو تاريخي، لا يذكر أنه سمعه في حياته من قبل، ورغم ذلك يبدو له مألوفًا بطريقة ما، فما معنى هذا؟؟ ازدادت تقطيعته عمقًا وفكر قليلًا.. الاسم لن يفيد على الأرجح، ذكاء القرين يشبه الذكاء الاصطناعي فعلاً فيما يبدو، فلو ظل يسأله في منطقة الاسم، لن يصل إلى أي شيء، ولو وصل إلى اسم الجد السابغ لذلك الشخص، سيظل مجهولاً بالنسبة له، لأنه لا يملك، بالطبع، طريقة بحث في قاعدة بيانات السجل المدني، ترشده لبقية ما سيحتاجه من معلومات عنه وعن كيفية إيجاده، بافتراض أن هذا شخص مصري أصلاً. السؤال إذاً يجب أن يكون:

- «إيه علاقة (حافظ) بـ (فؤاد)؟»

- «(حافظ) كان خادم (فؤاد)».

خادم؟! أي خـ...؟!

هنا فهم (عمر)، فجأة، لماذا بدا له الاسم مألوفًا. وبانفعال بالغ ولهفة، التقط الأجندة وقلب في صفحاتها حتى وصل لبغيته التي أكدت له ما فهم، أن (حافظ بن بارق) هذا.. اسم جني!

((استنطاق الخدمة: هذا هو اسمه في الأوساط الروحانية، أما معناه، فهو استدعاء خدام الجان لاستجوابهم، تمامًا كما يحدث في عالم البشر من استجواب لمتهمين أو شهود.

لن أطلب منك طبقًا، ولن تقدر أنت أصلًا على استجواب خدامي كلهم، فهم كثر، ولا أريدك أن تشغل بالك بعددهم أو أسمائهم، أو أي شيء عنهم. اثنان فقط قد تحتاج لاستجوابهما، هما: (حافظ بن بارق) و(قاصي بن قيعان)، والسبب في ذلك أنهما - بالإضافة لقريني بالطبع - ملازمين دائمين لي كالحرس الخاص، إلا حين آتي إلى هنا، وقتها يرافقني قريني فقط، هو الوحيد الذي يعلم بأمر الأجندة وما أكتبه لك، بالتالي، إن حدث لي شيء خارج هذه الشقة، فستفيدك شهادتهما.))

رفع (عمر) عينيه عن الأجندة بعد أن أعاد قراءة ذلك الجزء الذي مر عليه سريعًا بعينه قبل البدء في أي شيء، لهذا سجل اسم (حافظ بن بارق) في عقله دون أن يدري.

واحد من خدام والده إذًا، بل أحد اثنين من خاصته المقربين جدًا منه، هو من قتله؟! ووالده لم يشك فيه على الإطلاق؟! كيف؟! ولماذا؟!!!

حين قال إنَّ منقذ جريمة قتل (حسام)، كان نفرًا من الجن، لم يقل إنَّ (حسام) نفسه كان يملك أي خدام، بالتالي فهم (عمر) وقتها أن ذلك الجني كان واحدًا من خدام جده، هذا منطقي ومفهوم، كما يحدث في عالم الإنس بالضبط، حين يسلط شخص واحدًا من «رجاله» على شخص آخر، لكن لماذا يقتل الخادم سيده؟!!

- «ليه (حافظ) قتل (فؤاد)؟؟»

قالها (عمر) بانفعال، فلم يجب القرين ولم يتحرك، لينفعل الأول

أكثر، معيّدًا سؤاله بعصبية:

- «ليه قتله؟؟ ليه؟؟»

ظل القرين على حاله، ثابتًا صامتًا، و(عمر) يتفرس فيه متفكرًا، أتراه يرفض الإجابة أم يجهلها؟ ألم يقل والده أنه عرف كيف يجعله عصيًا على الاستجواب؟ ما هي حدود معرفة القرناء أصلًا؟ هل هم قادرون على الكذب أو التلاعب؟ وهل تسري قواعدهم العامة على قرين والده الذي يعرف جيدًا أنه مميز مختلف عنهم؟

تكوّن له ما يشبه الشخصية، ولم تعد تصرفاته محض ردود أفعال. هكذا قال والده بالحرف، ما أدراه إذًا ما يمكن أن تفعله به «شبه الشخصية» هذه؟؟ لو كانت قادرة على الخداع أو التلاعب فعلاً، فما أدراه أنها لم تخدع والده نفسه؟؟ وقتها يكون تأكيده على أنه لن يؤذيه، بلا أي معنى على الإطلاق!

أطرق (عمر) برأسه بيأس وجسده كله يرتجف خوفًا وعصبية. هل أدخل نفسه فيما لا طاقة له به؟ هل فات أوان التراجع والانسحاب؟ ماذا يفعل الآن؟؟

أجابت الأسئلة نفسها بداخله واحدًا تلو الآخر، فكانت: نعم، على الأول والعاني. أما الثالث، فقد أدرك جيدًا أنه كان استنكارًا، أو استبشاعًا، أكثر منه استفهام، لأنه يعرف جيدًا أن ما ينبغي فعله هو العودة للأجندة، لتنفيذ الجزء الذي خشي، منذ وقعت عيناه عليه، مجرد التفكير فيه، جزء استنطاق الخدمة.

كان الأمر هذه المرة أصعب وأعقد من سابقتها، وبادئ ذي بدء، يتطلب مساحة من الأرض العارية. هكذا، أبعد (عمر) مناضد الأنتريه، محتفظًا بوحدة فقط بقربه، خصصها لوضع ما سيستخدمه من أدوات، ثم لَفَّ السجادة ودفعها إلى جانب إحدى الحوائط، تاركًا مساحة من البلاط العاري في منتصف الصالة.

التقط كيسًا من القماش يحوي رملاً، راح يسكب منه بحرص على الأرض، راسقًا به دائرة قُطَرها متران تقريبًا. ومن ظرف فيه رزمة أوراق بيضاء، التقط واحدة قصها بالمقص على هيئة إنسان، ووضعتها في طبق مسطح على المنضدة، ثم بحرص بالغ، مستخدمًا قلم بوص وقنينة مiece، كتب على الأطراف الأربعة لذلك الشكل الإنساني، بخط صغير وحروف غير منقوطة: طاغر، كهطم، طبكل، قسورة. نهض بعدها ومعه القلم والقنينة، معيّدًا كتابة نفس الكلمات على الأرض حول دائرة الرمل، مكونًا بهم مربعًا وهميًا، تتماس أركانه مع محيطها.

أفرغ المبخرة ليعيد تعبئتها بفحم جديد، واضعًا بجوارها كيس خلطة البخور التي سيستخدمها هذه المرة، قبل أن يبعد كل ما لن يحتاجه كي لا يشتته، تاركًا على المنضدة ما سيستخدمه فقط، المبخرة والقداحة والبخور، القلم والمiece، الطبق الذي يحوي ورقة الشكل البشري المقصوص، وكتاب يشبه الكتاب السابق، مفتوح على الصفحة المعلّمة التي سيقرا منها. كل هذا والقرين ثابت في مكانه، صامت كالتمثال.

في النهاية، بعد أن تتم (عمر) على كل شيء، مراجعًا كل تفصيلة

ألف مرة كعادته، وقف يلهث والعرق يتفصد من جبينه من أثر
المجهود والتوتر.

كل شيء جاهز ومعد للبدء الآن.

- «جهطيل مهططيل انوخ شنوخ، أقسمت عليك بالله، بعزة أشمخ
شماخ العالي على كل براخ، عَزُمت وألهبت بحق شردِيخ شردِيخ
مردِيخ مردِيخ، بحق دعوة التيجان إليك، وبحق سطوته عليك، أن
تنزل يا (حافظ بن بارق) حتى يراك الناظر بعينه، ويكلمك بلسانه،
ويسألك عما شاء، بارخ بارخ باروخ باروخ، زجري إليك إن لم
تحضر بكل أولاد الجان، من أولاد كاح وحمال سلاح وسكان رياح،
الغائصين في الثرى والطائرين في الهواء والسابحين في الماء،
بفعشلشاخ مالخي هملوخيم، احضر واسمع وأطع».

قرأها (عمر) من الكتاب وصوته هذه المرة يكاد ينحشر في حلقه
الجاف من فرط الرهبة. كان قد أشعل البخور قبل الشروع في
القراءة، فلما انتهى، أمسك بالمبخرة والدخان يتصاعد منها، ونهض
متجهاً لدائرة الرمال، وبحرص بالغ، أمالها لينثر القليل من البخور
فوق كلمة (قسورة)، المكتوبة بالميعة على الأرض، وهو يقول:

- «قلنهود قلنهود، نارت فاستنارت».

وفوق كلمة (طبكل)، كرر نفس الفعل، قائلاً:

- «غلمش غلمش، دارت فاستدارت».

وفوق (كهطم):

- «خوطير خوطير، حول العرش دارت».

و(طاغر):

- «بشكليخ بشكليخ، في علم الله سارت».

وأخيرًا، أعاد المبخرة للمنضدة، مختتمًا بـ:

- «الوحا الوحا، العجل العجل، الساعة الساعة».

فانطفأت الأنوار في الشقة كلها فجأة.

لم يتحرك (عمر) ولم يصدر عنه أي صوت، الهلع جمده في مكانه تمامًا كالتمثال، حتى أنفاسه أبطأها وخفض صوتها، كأنه يخشى أن تُسمع، أو أن تخرج روحه من جسده معها، حتى مخه، شعر أن جزء التفكير فيه انطفأ مع أنوار الشقة، ليحل محله سواد مماثل لذلك المحيط به، يعبث الخوف بداخله كيفما شاء.

بصعوبة تذكر أن والده كتب في الأجندة أن هذا سيحدث، وأنه يعني أنه يسير في الطريق الصحيح، لكن هذا لم يطمئنه كثيرًا، فقط جعله يلوم نفسه لأنه لم يسارع قبل حدوثه بإلصاق ظهره بأقرب حائط له، كان من الممكن أن يشعره ببعض الأمان، فهو عاجز الآن تمامًا عن التراجع أو الإتيان بأدنى حركة، ويشعر أنه مهدد ومحاط بأشياء.. تراه ولا يراها.

لماذا لا تعتاد عينه الظلام كعادته؟! لماذا يشعر أن هذا أثقل وأكثف ظلام حوطه في حياته؟! ماذا عن القرين؟ ماذا يفعل؟ وأين هو

الآن؟ ثابت في مكانه كما كان أم يتحرك؟ أمن المفترض أن يطمئنه وجوده أم يفزعه أكثر؟ أمن الممكن أن يكون أمامه بالضبط ولا يدري؟ هل القرناء يبصرون في الظلام؟

عشر ثوان مرت على (عمر) وهو في تلك اللوثة وكأنها عشر سنين، ثم أضاء شيء، لا، ليس مصابيح الشقة، بل الدائرة، دائرة الرمال المرسومة على الأرض، توهجت وكأنها اشتعلت تلقائيًا، هي والكلمات الأربع المحيطة بها، بضئ أزرق لا أحمر، يشبه نار شعلات البوتاجاز، صانعة ظلالًا خافتة، وتأثيرًا مخيفًا مقبضًا، أكثر حتى من الظلام الذي سبقه.

كل هذا قرأ أنه سيحدث في الأجندة، كله بالضبط، لكنه لم يخفف من وطأة رؤيته ومعايشته ذرة واحدة.

ثم عاد التيار الكهربائي أخيرًا، وعادت الأضواء من جديد، لكنها لم تعد وحدها، بدت وكأنها جلبت شيئًا معها، ففي وسط دائرة الرمال، كان هناك دخان أسود غريب، لا مصدر له ولا نار، يتحدى كل قوانين الطبيعة، ويتموج متخذًا هيئة شبه بشرية.

وقف (عمر) فاغر الفم متسع العينين أمام المشهد الرهيب، وإلى أنفه، تسربت رائحة قوية، تشبه الشياطين أو الكبريت المحترق. تدريجيًا، بدأت ملامح ذلك الشيء تظهر، والدخان ينزاح عن صورته، أو يتحول إلى صورته، ليتجسد في النهاية على هيئة مادية واضحة، لا تكفي كلمة «مفزعة» لوصفها.

مخلوق شبه بشري، لكنه مشوّه بشدة، ويغلب عليه طابع حيواني ما. يعلو رأسه قرنان، ويغطي جلده شعر أسود كثيف. له أذنان طويلتان، وفك عريض بارز الأنياب. أما عيناه، فثاقبتان كأعين البوم، مشقوقتان بالطول كأعين القطط، ومخيفتان لحد يصعب معه وصفهما، أو النظر لهما طويلاً.

وكانما أوصل بتيار كهربائي، راح جسد (عمر) ينتفض لا إرادياً بلا توقف وهو يتطلع لذلك الشيء الذي لا تفصله عنه إلا بضع خطوات. ازداد اتساع عينيه حتى كادت تخرجان من محجريهما. تملجت أطرافه. تجمد لسانه وأحباله الصوتية فلم يقو على النطق أو الصراخ أو حتى الشهيق. جف حلقه وكأن كل ما في خلاياه من ماء تفصد فجأة من مسامه العرقية، مغرقاً جسده الذي سرى فيه تنميل جعل ساقاه شبه عاجزتين عن حمله، حتى اضطر للتشبث بأقرب مقعد له كي لا ينهار مغشياً عليه.

أما المخلوق، أو الجنى، فما أن تم تجسده، حتى تلفت حوله، قبل أن تتشوه ملامحه أكثر، ويبدأ في التحرك متقدماً نحو حافة الدائرة.. نحو (عمر).

بمجرد ما رأى (عمر) الجنى وهو يهم بالتحرك نحوه، تراجع غريزياً بحركة حادة وهو يشهق بعنف، ليرتطم رأسه وظهره بالجدار خلفه، ويسقط متكوماً على الأرض، وقد عجزت ساقاه عن حمله أكثر من ذلك.

لكن الجنى لم يصل إليه، لم يتمكن حتى من تعدي دائرة الرمال

المتوهجة، التي ما إن وصل لحافتها، حتى ازدادت توهجًا، في نفس الوقت الذي ظهرت فيه، من العدم، في موضع تماسه معها، ما يشبه شرارات كهربائية، سرت في جسده وأحاطت به، ليتراجع صارخًا، والدخان ورائحة الاحتراق يتصاعدان منه.

أما صراخه، فكان أغرب ما سمع (عمر) في حياته. لم يكن صراخًا بالمعنى. لم يكن له وقع الصراخ على أذنيه أصلًا، ليس البشري على الأقل. بدا له أقرب لمزيج عجيب جدًا، من الصرير والصفير، والأزيز والتزييق، يأتيه على هيئة موجات فوق أو تحت صوتية، كأنه لا يسمعه بقدر ما يستشعره، مخلقًا في نفسه شعورًا كريهًا وقشعريرة مزعجة، أشبه بما كان يحسه وهو طفل، حين تحتك أظفاره بسطح سبورة الطباشير في المدرسة.

((حماية الشقة تهبط قدرات الجان، أما دائرة الرمال المعزم عليها، فتجعلها تقترب من الصفر.))

استرجع (عمر) عبارة الأجندة، مرددًا إياها بداخله مرارًا كالورد، كأنه يحصن نفسه أو يطمئن بها. لم تكن ساقاه قادرتين على حمله بعد، لكنه تمكن من الاستناد على المقعد الذي سقط بينه وبين الجدار، كي يعتدل جالسًا، معلقًا عينيه بالجني الذي بدا كالليث الحبيس داخل الدائرة. لم يزل خوفه بالطبع، لكنه خفت قليلًا بعد زوال تأثير الصدمة الأولى، وبعد أن تأكد بعينه مما قرأ في الأجندة، من أنه، المفروض، في مأمن من هذا الشيء. أورثه هذا القليل من الهدوء، كما مكنه موضعه المنخفض من ملاحظة بضع تفاصيل في الجني، لم يتمكن من ملاحظتها مع صدمة الوهلة الأولى.

أولاً، قدميه المثيرتين للرجفة، الشبيهتين بأقدام ماعز تخرج منها مخالب. ثانياً، قامته القصيرة، القريبة من طول القرد. أما ثالث ما لاحظته، أو استرجعه في ذهنه، هو تشابهه مع الشكل الكروكي المرسوم في الأجندة، والذي، كالعادة، لم يخفف من صدمة الحقيقة كثيراً. رغم ذلك، فعليه أن يعترف أن دقة والده تجعل الأمور، رغم ثقلها وشناعتها، منظمة محكومة إلى حد كبير. لم يُغفل الأخير فعلاً أي تفصيلة تقريباً، حتى الآن على الأقل، حتى صوت الجنى وصراخه، أخبره ألا يقلق منه لأنه لن يكون مسموعاً لأي مخلوق، إنس كان أو حتى جان، خارج الشقة و...

لحظة.. الرسم!

بدا (عمر) في تلك اللحظة وكأنه تذكر شيئاً، أو انتبه إلى شيء، دفع دفقة من الأدرينالين فجأة في عروقه، لينتصب واقفاً، مجبراً نفسه على التحديق في وجه الجنى المرعب.

قرنان وشعر أسود كثيف، أذنان طويلتان وأنياب، والعينان.. هاتان العينان، كل هذا مطابق للرسم بالضبط! ليس «الكروكي» الموجود في الأجندة، بل التفصيلي الدقيق، في لوحة التابلت!!

قطعة أخرى من البازل تسقط في مكانها، وتأكيد جديد على سيره في الطريق الصحيح. كذا شعر (عمر) وعيناه تتنقلان بين الجنى والقرين.

واحدة تمثله، وأخرى تمثل قرين والده، وثالثة تمثل مخلوقاً غريباً

مرعّبًا. أخيرًا فهم ما كان هذا يعنيه، دون حتى حاجة لسؤال القرين. لوحات التابليت العلاث كانت لأبطال هذا المشهد الغريب جدًا، كانت تمثل ما يحدث هنا الآن بالضبط، هذا إذن ما كان يريده القرين ويشير إليه.

وأنت إذا قاتل أبي.

لم ينطق بها لسان (عمر)، لكن أعماقه صرخت بها وهو يعبث عينه على الجنى، (حافظ)، محدجًا إياه بنظرة طفى ما فيها من مقت على ما فيها من خوف. وبهدوء أقرب للبرود، اتخذ مجلسه، وبدأ في الاستجواب.

العباسية

14 أغسطس

2016

- «أنت (حافظ بن بارق)؟»

بدأ (عمر) بذلك السؤال الروتيني، تنفيذاً لما جاء في الأجندة، وأيضاً كي يكسر حاجز الرهبة النفسي بداخله، كأنه «يسخن» استعداداً للاستجواب الحقيقي، فخوفه لم يكن قد زال بالطبع، ولا اعتادت عينه أو نفسه غرابة المشهد أو الوضع كله، إلا أنه حاول استعادة حالته الأولى التي دخل بها الشقة، التوسط بين التسرع والتباطؤ، والرعونة والتؤدة، بلا تظاهر بالشجاعة، ولا استسلام للجبن.

لكن (حافظ) لم يجب، فقط حدق فيه بنظرة بدت له غاضبة متحدية، أخافته لكنه حاول إخفاء خوفه، مذكراً نفسه أنه، كما تقول الأجندة، من يملك اليد العليا في هذا الموقف الرهيب، ويعلم ما ينبغي فعله إن رفض الجني الإجابة عن أي سؤال يوجه له.

بيد حاول جعلها ثابتة، أمسك (عمر) بقلم البوص وغمسه في قنينة الميعة، ثم بحرص بالغ، مس به الذراع اليسرى للشكل الورقي المقصوص في الطبق، لترتسم عليه نقطة واحدة صغيرة. بمجرد ما فعل ذلك، عاد صراخ (حافظ) يتعالى، وخيط رفيع من الدخان يتصاعد من ذراعه اليسرى.

انتظر (عمر) حتى هدا صراخ (حافظ) وخف تصاعد الدخان من ذراعه، ليعيد سؤاله. صمت الأخير قليلاً معتصراً ذراعه بيده الأخرى، لكن صمته لم يطل هذه المرة، ليقول في النهاية بصوته الغريب المخيف:

- «أنا (حافظ بن بارق)».

اقشعر جسد (عمر). لم يكن قد رآه وهو يتكلم من قبل، سمعه فقط وهو يصرخ، لكن الكلام شيء آخر، له وقع أعجب وأكثر إفزاعاً بكثير. منظر الأسنان الحادة في الفم شديد الاتساع، وهو يتحرك مكوّناً كلمات تخرج بهذا الصوت، كان مرعباً لحد لا يصدّق، يجعل من يراه يفقد رباطة جأشه وسيطرته على أعصابه، فيبكي ويصرخ ويبال ملابسه كالأطفال، أو يسقط على الفور مغشياً عليه.

لكن (عمر) تمالك نفسه، محاولاً السيطرة على رجفة جسده وتهديج أنفاسه، ورغم ذلك، خرج صوته محشرجاً مرتعشاً، وهو يسأل من جديد:

- «انت قتلت سيدك، (فؤاد) ابن (علي)؟»

عاد الجنى لصمته، لكنه لم يكن متحدثاً كالمرّة الأولى، بل أقرب للعصبية أو الخوف، كفأر في مصيدة يتململ متلفئاً حوله، بحثاً عن طريق أو وسيلة للهروب. لكنه حين رأى يد (عمر) الممسكة بالقلم، تعود لتمتد نحو القنينة، صرخ فجأة قائلاً:

- «لأ ماقتلتوش».

ما إن سمع (عمر) صرخة الجنى، حتى توقفت يده في منتصف طريقها متجمدة، قبل أن تعود لتتخفّض، والوجوم يرتسم على وجهه، متحوّلاً إلى حيرة حدق بها في الجنى لحظات، ثم تقطّبة عقدت حاجبيه بشدة، وهو يدير رأسه نحو القرين.

هل تلاعب به؟؟ هل كذب عليه؟؟

نقل تساؤليه من عقله للسانه، قائلاً:

- «انت مش قلت إن (حافظ) قتل (فؤاد)؟!»

- «أيوه».

- «(حافظ) بينكرا»

- «(حافظ) بيكذب».

- «لأ مش باكذب».

خرجت الأخيرة بحدة من (حافظ) نفسه، لتتسع عينا (عمر) وهما تنتقلان بينهما بعصبية أقرب للجنون.

ما هذا العك؟! كيف يتصرف الآن وأيهما يصدق؟؟ الأجندة تقول أنّ الجان قادرون على الكذب والتلاعب، بل كثيرًا ما يلجؤون إليه، أما القرناء فلا. لكن والده يثق في القرين ثقة عمياء لا يملكها هو، بل لا يفهم كيف تكونت لدى والده أصلًا، وهو من قال أنّه ليس كباقي القرناء، وأنّ له ما يشبه الشخصية! أي كائن له شخصية ولو بسيطة جدًا، وإرادة ولو ضعيفة جدًا، قادر على التلاعب، حتى الحيوانات.

ثم إنه لا يعرف عن القرين إلا ما قرأه في الأجندة، لم يقابله وجهًا لوجه إلا اليوم فحسب، كيف إذن يكشف تلاعبه بلا أي مرجعية شخصية عنه، بعبارة أخرى، بلا طول عشرة بينهما، تمكنه من التفرقة بين صدقه وكذبه؟! كيف يتبين كذب شخص، بل شيء! يقابله للمرة الأولى في حياته، ولا يملك وسيلة ضغط تـ...؟!

لكنه يملكها مع الجني. من بين الاثنين، الجني هو الطرف الذي يستطيع الضغط عليه ليتأكد من صدقه أو يعبت كذبه. لكن.. حتام سيظل يعذبه؟؟ حتى يقول الحقيقة؟ ماذا لو كان ما قال هو الحقيقة؟ أو لو قتله من فرط التعذيب قبل أن يعرف الحقيقة؟ ماذا سيستفيد؟ وهل ستمر فعلته تلك بسلام أصلاً؟ ألن يُعتبر قاتلاً؟ أليس الجان أقوام من خلق الله؟ أليست لهم قواعد تنظم حياتهم ومماتهم، وتعاقب من يقتل أحدهم بغير ذنب؟ ماذا سيكون مصيره وقتها؟؟

حتى لو لم يمت، بل لو ظل حيًا سيكون الأمر أسوأ بكثير. لو ثبت كذبه سيأمر القرين بقتله وتنتهي المشكلة. لكن، ماذا يفعل به لو اتضح صدقه؟ التصرف الصحيح هو أن يحرره، أو ربما تمكن هو، بأي وسيلة أو لأي سبب، من تحرير نفسه بنفسه. في الحالتين، فالسؤال هنا هو، بعد كل ما سيكون قد لاقاه من عذاب على يديه وهو برئ، ألا يُحتمل أن ينتقم منه؟ كيف سيكون انتقامه؟؟

بعيدًا عن هذا كله، عن النظرة العملية النفعية الباردة للأمور، من المنظور النفسي أو الإنساني، أو الديني أو الأخلاقي، ما مدى تحمل أعصابه أو تقبل ضميره لفكرة تعذيب مخلوق، بغض النظر عن بشاعة

خلقته، هو غير متأكد أصلاً من استحقاقه لهذا العذاب؟

حتى لو تخطى كل تلك المخاوف والعقبات، وأثبت صدق الجنى بطريقة أو بأخرى، كيف يجبر القرين على البوح باسم القاتل الحقيقي؟؟

لكن، لحظة، ما هذا الغباء؟!

لو تأكد من صدق الجنى، وبالتالي كذب القرين، فلماذا يفترض أن كذبه ينحصر في شخصية القاتل فحسب؟!

لَمْ لا يكون كاذبًا في نقطة القتل نفسها من الأساس؟؟؟

شعر (عمر) أن مخه، بل جهازه العصبي كله، يكاد يحترق. لماذا ورت نفسه في هذا العبث المخيف؟! أي كابوس هذا الذي يعيشه؟؟ وحيد في شقة مهجورة مع كائنين مرعبين! لن يخرج منها إلا قاتلاً أو مقتولاً!! أين كان عقله حين بدأ هذا كله؟!

المصيبة أن أوان التراجع فات منذ زمن. أي تقهقر أو انسحاب الآن لن يمر مرور الكرام، ولن يكون دون ثمن. حتى لو كان القرين مسالماً كما قال والده، ماذا عن الجنى؟ بغض النظر تمامًا عن شكله المفزع الذي لا يوحى بأي سلام، لو كان مسالماً هو الآخر، لما كانت دائرة الرمال المحبوس داخلها ضرورية.

لا يمكن أن يترك كل شيء على حاله تلك فجأة ويفر هاربًا، في الأجندة تحذير شديد من هذا، ولو حاول إعادة كل شيء لما كان عليه، وحرر الجنى، ما أدراه ما يمكن أن يفعله؟ والده في الأجندة

وضع طرق استدعائه واستجوابه ثم تحريره وصرفه بلا مشكلة، لكن باعتباره شاهدًا لا متهمًا، لأنه لم يشك فيه، بالتالي لم يحسب حساب الموقف الحرج الحاصل الآن، لم ير الهاوية التي يقف (عمر) على حافتها، فلو كان (حافظ) هذا هو قاتل أبيه فعلاً، لن يستبعد أن يقتله هو الآخر فور تحرره، بل هو التصرف الأقرب للمنطق أصلاً. إن لم تكن عهوده مع سيده نفسه قد منعت من قتله، فما الذي يمكن أن يمنعه من قتل ابنه؟!

في تلك اللحظة، وفي خضم كل ما يدور داخل (عمر)، تكلم القرين فجأة، قائلاً جملة عجيبة جداً:

- «(قاصي بن قيعان) بيطلب الإذن للحضور والكلام».

للهولة الأولى، لم يفهم (عمر) ما قيل، بل خُيِّلَ إليه أنه لم يسمعه جيداً، ليحرق في وجه القرين ذاهلاً للحظات، قبل أن يقول:

- «...إيه؟؟؟!»

ظَلَّ القرين صامتاً، وشعر (عمر) أنه يكاد ينفجر من شدة الضغط على أعصابه. بأعجوبة منع نفسه من الصراخ، زَمَّ شفثيه وكزَّ على أسنانه، تقلصت كل عضلة في وجهه وهو يحاول تهدئة أنفاسه، ليقول:

- «عيد اللي إنت قلتة تاني ببطء ووضوح».

ففعل القرين، ليردد خلفه مقطبتاً:

- «قاصي بن قيعان)!»

ازداد وجهه تقلصًا وكأنه يعتصره مع عقله محاولًا الفهم، مفكرًا بصوت عالٍ:

- «مين (قاصي بن قيعان) ده؟؟»

فجأة فهم، أو بالأحرى، تذكر، وفي لمح البصر، اختطف الأجندة ليتأكد مما فهم وتذكر، في نفس اللحظة التي ظنَّ فيها القرين أن سؤاله الأخير كان موجَّهًا له، لتأتيه الإجابة من المصدرين معًا، الأجندة التي قرأ فيها:

((اثنان فقط قد تحتاج لاستجوابهما، هما: (حافظ بن بارق) و(قاصي بن قيعان)...))

والقرين الذي قال:

- «خادم (فؤاد) الثاني».

في تلك الأثناء، لم يعر (عمر) (حافظ) أي انتباه تقريبًا. استحوذ أمر الخادم الثاني، (قاصي)، على عقله، لدرجة ألهمته عن الأول، وجعلته لا ينتبه للتغير الذي طرأ عليه منذ بدأ الحديث عن (قاصي). لم يعد يزمجر غاضبًا أو يدور حول نفسه بعصبية كالليث الحبيس، ولا حتى يتململ متلفئًا حوله بخوف وعجز كفأر في مصيدة.

منذ ذكر اسم (قاصي)، و(حافظ) متكوم على الأرض ككلب كُسرت قوائمه، بوجه ثابت على تعبير غريب، أقرب لمزيج من الذعر والألم

والذهول، كأنه ميت، أو ينتظر الموت.

أما (عمر)، فبعد أن تخطى مرحلة عدم فهم ما قيل، وجد نفسه في مرحلة أصعب وأسوأ بكثير..

كيف يتصرف حيال ما قيل؟؟

لم يمر عليه في الأجندة أي إشارة لطريقة التعامل مع موقف كهذا. لكنه يجب أن يتأكد. بيدين ترتجفان، راجع الجزء الأخير كله حتى وصل لآخر صفحة بلا جدوى. لا شيء مفيد. أياكون الحل أمامه ولا يفهمه؟ أو لا يراه من فرط لهوخته وتوتره؟ يجب أن يعيد الكرة إذا، بتؤدة وتمغن أكثر، الحل موجود بلا شك، لكن.. حل ماذا أصلاً؟؟ من قال إنه فهم حقًا ما قاله القرين؟! ما فهمه لم يكن إلا المعنى اللغوي الحرفي للجملة، وليس ما تعنيه فعليًا على أرض الواقع. «يطلب الإذن للحضور والكلام». الحضور من أين؟ أين هو أصلاً؟ كيف تواصل مع القرين؟ وكيف يمنحه هذا الإذن الذي يطلبه؟ شفهيًا؟ أم أن له طريقة من نفس نوعية الطريقتين السابقتين؟ أين هي إذا؟؟!!

وترته هذه الأسئلة أكثر، لتسري رجفته من يديه إلى جسده كله. لم يعد راغبًا في الصراخ بل في البكاء كالأطفال، كل هذا أكبر منه، أكبر منه بكثير جدًا.. جدًا!!!

يعني هي موتة ولا أكثر؟

برزت الجملة في عقله فجأة، جملة التي قالها لنفسه مرارًا من قبل، رئت في رأسه كأنها وحي من عقله الباطن، محاولة من جهازه

العصبي للسيطرة على نفسه بنفسه، لإنقاذه من انهيار شعر أنه كان بالفعل موشكًا عليه. الغريب أن حيلة عقله اللاواعي هذه أفلحت، انطلت فعلاً على عقله الواعي، وسرت منه إلى أعصابه فهدأت، ليس تمامًا بالطبع، لكن للحد الذي صفى أفكاره قليلًا، ومكنه من إعادة النظر في الأجندة. لم يجد طريقة مباشرة للتعامل مع الموقف لكنه وجد الحل، بالأحرى، فطن إليه حين خفت اضطرابه، إلى أنه كان موجودًا فيها منذ البداية، ليس في الجزء الأخير منها، وإنما في أجزاء تسبقه قليلًا فحسب.

ذراع أيمن يحميه، يوجهه كيف ومتى وأين يشاء، مضمونة طاعته وإخلاصه وحسن تصرفه. هكذا وصف والده قريبه في الأجندة، فإن أضاف لذلك الوصف، معلومة أن الجان أضعف من القرناء بوجه عام، الموجودة أيضًا في الأجندة، في الجزء السردى منها، يكون لديه حارس خاص وفي، قوي لدرجة أن الجن الأزرق نفسه، حرفيًا، ما يقدرش عليه!

مم يخاف إذن؟ منه هو نفسه؟ لماذا؟ لماذا شك فيه أصلًا؟ لا سبب عنده لهذا الشك الآن سوى خوفه الشديد جدًا، واضطرابه وارتيابه في كل شيء. لكنه إن أزاح هذه المشاعر جانبًا، ونظر للأمور بشكل واقعي منطقي، فالقرين لم يصدر منه ما يبرر هذا الشك على الإطلاق، حتى الآن على الأقل، لا بفعل ولا بقول. صحيح أن الأمر كله لا يزال عجيبيًا مخيفًا للغاية، لكن القرين بالذات، هو أقل ما أخافه حتى الآن، حتى في هيئته وشكله، بل إنهما، والسبب بديهي طبعا،

أقرب للطمئنة أصلاً.

بل إنه أن أراد نظرة أكثر واقعية، عليه أن يكون صريحاً صادقاً مع نفسه، أن يعترف أن لا حل أمامه سوى تصديقه والوثوق به والاعتماد عليه، كما تقول الأجندة، وكما يقول العقل.

لذا، رفع (عمر) عينيه نحو القرين، سائلاً:

- «هل فيه أي خطر من السماح لـ (قاصي) بالحضور؟»
- «لا».

- «هل هاجتاج دايرة زي دي عشان أقدر أتواصل معاه؟»
- «لا».

- «إيه اللي هو عايز يقوله؟»

صمت القرين لحظات، قبل أن يجيب:

- «عايز يتكلم معاك بنفسه».

سحب (عمر) لصدره نفساً عميقاً، زفره ببطء، ثم قال:

- «إزاي أقدر أسمح له بالدخول؟»

- «هو موجود هنا دلوقت».

وعادت عينا (عمر) تتسعان.

- «أمال هو بيطلب الإذن عشان إيه بالضبط؟؟!»

هتف بها (عمر) والقشعريرة تعود لتزحف على جسده، وعيناه تتحركان حوله بجنون في كل اتجاه. الجنى الآخر هنا؟ أين؟؟ كيف؟؟ منذ متى؟؟

- «الحضور والكلام».

قالها القرين بلهجته الباردة التي تجعل (عمر) راغبًا في شد شعره، لكنه سيطر على نفسه كي لا يتمكن منه العصبية التي ستعجزه حتمًا عن التفكير السليم، ليقول بصوت حاول جعله هادئًا:

- «تقصد إيه بكلمة الحضور؟»

- «التجسد».

ابتلع (عمر) ريقه بصعوبة، وقلبه يدق بقوة، والقشعريرة تكاد تقشر جلده عن لحمه.

- «إدي له الإذن».

قالها بصوت تحشرج رغما عنه، وهو يتراجع بظهره في مقعده، قابضًا يديه لا إراديًا بقوة على مسنديه، وعيناه تمسحان كل ما حوله بدقة كالرادار، وعقله يحاول تصور الطريقة التي سيظهر بها الجنى، أو كما قال القرين، يتجسد.

مرت ثوان لم يحدث فيها شيء، وإن خيل لـ (عمر)، أثناء دورانه بعينه في كل اتجاه، أنه لمح بطرف عينه حركة طفيفة في موضع ما، وثره عجزه عن تحديدها بدقة، لكنه سرعان ما فطن لها حين وضحت أكثر، وكانت آخر ما يمكن أن يتوقعه على الإطلاق.

فمن خلف أحد مقاعد الأنتريه، ذلك المجاور للذي يجلس عليه
القرين، خرج فأر أسود صغير.

(ميكي)؟؟!!

لم يتجاوز تساؤل (عمر) شفتيه، لكنه لم يكن استفهامًا عن كونه
نفس الفأر أم لا، ولا استغرابًا من ظهوره في تلك اللحظة بالذات،
بقدر ما هو ذهول من الطريقة التي تصرف بها، فبعكس كل الفئران
التي تركض كالبرق هاربة من البشر، وكل الحيوانات التي يوترها
مجرد شعورها بوجود الجان والعفاريت، سار الفأر بعثة وعلى مهل
حتى خرج من ظلام ما خلف المقعد، إلى مجال الضوء أمامه.
ثم بدأ يزوم.. ويتضخم.

كاد ظهر (عمر) يخترق مقعده والصوت الصادر من الفأر يتعالى
حتى يصبح أقرب للزئير، وجسده يتضخم ويستطيل، ويتحول
بالتدريج متحولًا لهيئة شبه بشرية، تتفق مع شكل (حافظ) في
بعض الجوانب، كالقرنين البارزين من الرأس، والقدمين الشبيهتين
بأقدام الماعز، والعينين المشقوقتين بالطول، لكنها تختلف في
جوانب أخرى، فالقامة كانت أطول أو أنحف، ولون الجلد أفتح أو
يكسوه شعر أقل، أما الوجه، فكان مخيفًا أكثر، وأقبح بكثير.

فلما اكتمل هذا التحول أو التجسد، خفت الزئير، ليصدر بدلًا منه
صوت آخر لا يختلف عنه كثيرًا، حلقي خشن غليظ جدًا، خرج من
الفم الذي تحرك قائلاً:

- « السلام عليكم يا (عمر) ».

جف حلق الأخير فلم ينطق بكلمة ولا صدر عنه أدنى صوت، جمد وجهه وجسده تمامًا، فيما عدا قبضتيه اللتين ازداد اعتصارهما لمسندي مقعده، حتى كاد الدم ينفجر من أطراف أصابعه، والصوت الذي يجعله راغبًا في حك طبلتي أذنيه حتى يمزقهما، يعود ليقول:

- «أنا (قاصي بن قيعان)، واحد من خدام والدك، (فؤاد بن علي)».

وحده في شقة مهجورة مع قرين ميت واثنين من الجن.

نقل (عمر) بصره بين المخلوقات الثلاث، وتلك الفكرة تتردد في رأسه، والكابوس الحي أمامه يجعله يعود للشك في وعيه وعقله وعينييه. لا، ليس هذا كابوسًا ولا خيالًا، أسوأ كوابيسه لم تكن أبدًا بهذا السوء، لأن خياله لم يكن يومًا بهذا الجموح. ورغم كل ما طمأن به نفسه منذ قليل، عاد الذعر يملكه ليتنزع من أعصابه الهدوء، ومن عقله المنطق، وكل ما قرأ في الأجندة.

زادت الأمور سوءًا بانتباهه في تلك اللحظة لتفصيلا لم يكن قد لاحظها، وهي أن الجني الثاني، (قاصي)، له ذيل في مؤخرة ظهره، يتلوى خلفه كالشعبان، بطريقة أثارت في نفس (عمر) قشعريرة، امتزج فيها الرعب والذهول، بالتقرزز والنفور، وبدا وكأن تفصيلا الذيل هذه بالذات، عادت تذكره، وتؤكد له، أنه البشري الوحيد هنا.

مع كل هذه المشاعر المختلطة المرتبكة، توقف عقله تقريبًا عن العمل، إلا الجزء الخاص بالخيال، والذي نشط بشدة، مُنبئًا في رأسه

أسئلة مفزعة، واحتمالات أكثر إفزاعًا..

ماذا لو اتفق هؤلاء الثلاثة عليه؟ أو كانوا متفقين من البداية، منذ.. منذ متى؟؟ منذ بدأ طقوس استدعائهم اليوم؟ أم منذ أتى إلى هنا أول مرة؟ أم منذ مصرع والده؟؟ ماذا لو كان عبث والده بهذه الأمور، بهذه النار، هو ما تسبب في موته احتراقًا بها، وما سيتسبب في احتراقه هو أيضًا الآن؟ ماذا لو كان هؤلاء الثلاثة هم أصلًا من قتلوا والده، بالتالي يكون كل ما حدث من البداية، مجرد استدراج له هو إلى فخ، إلى الوضع الذي هو فيه الآن؟ ماذا إذن سيكون مصيره؟؟ الموت؟ التعذيب حتى الموت؟ أم الجنون؟ أم ما هو أسوأ؟؟ أهنالك ما هو أسوأ؟؟؟

- «ماتخافش، أنا مش هأذك، مش في مصلحتي إني أذك، ولأني مش هاقدر حتى لو عايز».

انقطع حبل هواجس (عمر) فجأة بعبارة (قاصي) التي لم تطمئنه، ولا حلت عقدة لسانه، بل ربما أخافته أكثر، شكته في احتمالية قراءته لأفكاره، لكنها على كل حال، أجبرت تركيزه على الانصباب عليه وهو يضيف:

- «أولًا، سامحني على ظهوري قدامك بشكلي الحقيقي، اللي أنا عارف إنه أكيد مخيف جدًا بالنسبة لك، لكن غصب عني، فرغم كوني من قبيلة الغيلان، واللي معناه إني، في الظروف الطبيعية، أقدر أغير هيئتي زي مانا عايز، إلا إن هيئة الفأر هي الوحيدة اللي مسموح لي أتشكل عليها وأنا هنا، أي تشكّل على أي هيئة ثانية ممكن يؤذيني، عشان كده فضلت محتفظ بيها، عشان مافزعكش وماسببش مشاكل،

لغاية ما تسمح لي أتجسد قدامك وأكلمك».

ظل (عمر) على صمته، وظلت عيناه معلقتين بـ (قاصي) الذي جلس على مقعد مواجه له، مجاور للقرين، مكملًا:

- «ثانيًا، عايزك تعرف إن مصلحتنا واحدة، لأن هدفنا واحد، وعشان تفهم قصدي، اسمح لي أشرح لك، وأحكي لك الموضوع من أوله، وأول حاجة لازم تعرفها، هي إن تارك مش مع (حافظ)، لأن مش هو قاتل (فؤاد) الحقيقي».

ولماذا يصدقه؟ لم لا يكون ما يقوله محاباة لـ (حافظ) ومداواة على جرمه لأن كليهما من الجان؟ وقتها تكون ضمائر الملكية في كلامه، في «مصلحتنا»، و«هدفنا»، عائدة عليهما. لكن.. لماذا إذن يثق به القرين ويدعي عدم خطورته؟! لماذا وكلام الواحد منهما مناقض تمامًا للآخر؟! هل بدأ فصل جديد من العبث؟ هل سيشقّطونه لبعضهم البعض كالكرة هكذا للأبد، أو حتى.. حتى ماذا؟ يموت أو يجن؟؟

فجأة برقت في ذهنه فكرة على هيئة إجابة للسؤال الذي طرحه على نفسه منذ قليل.. أهنأك ما هو أسوأ من كل هذا، من كل ما فكر فيه؟؟

وكانت الإجابة هي: نعم..

أن يكون ميتًا الآن بالفعل ولا يدري، وكل ما يحدث له هنا ليس إلا تعذيبًا وحسابًا على ما اقترفت يداه لأنه.. هو فعلاً قاتل أبيه!

عات كل ذلك فسادًا داخل رأس (عمر)، منضقًا إلى سابقه مختلظًا به، ضاغظًا على عقله، ومانعًا إياه من تحويل أي منه إلى كلمات ينطقها بلسانه، في حين تابع (قاصي):

- «ده طبعا لا يعفيه من أشد العقاب، لأنه خان سيده وخرق عهده معاه، لكنه في النهاية كان مجرد أداة تنفيذ في إيد العقل المدبر للجريمة، المجرم الحقيقي اللي تارك، وتاري أنا كمان، معاه».

لم تختف مخاوف (عمر)، فقط أزاحتها عبارة (قاصي) الأخيرة للخلفية، لمؤخرة رأسه، تاركة المجال لنصف تركيز زائغ أولاه له، ليتكون داخله السؤال الذي صرخت به أعماقه، وإن لم يتخطى شفتيه..

من؟؟؟؟

ليجيبيه (قاصي) وكأنه سمع صرخته الداخلية:

- «(صابر بن عبد الرحمن)، جدك».

- «العداء بين جدك ووالدك قديم، والجزء الأول من قصته، أو الجزء اللي والدك يعرفه، انت قريرته خلاص في الأجندة، لكن فيه أجزاء انت لسه ماتعرفهاش، ووالدك نفسه ماكانش يعرفها، وده اللي هاحكيه لك دلوقت».

وجد (عمر) نفسه، رغبًا عنه، منصقًا بكل جوارحه لـ (قاصي) الذي عاد يقول:

- «لما جدك فشل في قتل والدك بشكل مباشر، بسبب خدامه من الجان، اللي أنا كنت واحد منهم، واللي بيمنعوا أي حد يهجم عليه، أو حتى يقرب منه، لجأ للحيلة. جرب حاجات كتير، لكن أقدر حيلة لجأ لها، كانت أنجحهم للأسف، كانت الشيء اللي ماخطرش على بال والدك، واللي مكن جدك من اختراق الحراسة اللي كان محووط نفسه بيها، وهي إنه يعقد اتفاق، صفقة، مع واحد من أنفار الحراسة دي أنفسهم».

لم ينطق (عمر) بكلمة، منعه الذهول والرغبة، والتركيز في كلام (قاصي)، الذي أكمل قائلاً:

- «والدك، بعكس جدك، ماكانش راجل شرير، لكن كان قاسي جدًا. أغلبنا ماكانش بيعبه، كنا بنخاف منه، وكثير مننا ما صدقوا إنه مات عشان يهربوا من سطوته، وده اللي اعتمد عليه جدك في صفقته، مع بعض امتيازات تانية طبقاً، مش لازم تعرفها لأنها مش هتهمك في حاجة، ومش هتفهمها لأنها خاصة بعالمنا إحنا. الخلاصة هي إن التحرر من سيطرة والدك، بالإضافة للامتيازات دي، كانت التمن اللي جدك وعد بيه الجني اللي هيقبل يقتل والدك، وأول واحد اتقدم له العرض ده، ماكانش (حافظ)، كان أنا».

لم تعد الأسئلة تتراكم داخل رأس (عمر)، ولا المخاوف أو الشكوك، ولا أي شيء في الواقع. صار عقله، بل كيانه كله، أشبه بجهاز استقبال حساس، كل مهمته هي الإنصات لـ (قاصي) الذي استرسل في كلامه، مجيبًا كل سؤال ممكن، قبل حتى أن يجد الوقت الكافي

للتكون:

- «لكن الخيانة شيء حقير وبغيض جدًا في عالمنا، زي عالمكم بالظبط. أما خرق العهود، فمش بس بغيض وحقير، لكنه كمان بيستوجب أشد العقاب. العهد عندنا يشبه العقد الموثق عندكم، إن أخل أحد الطرفين اللي مضوا عليه بأحد بنوده، يُعاقب بالحبس أو الغرامة، فما بالك بقتل طرف للطرف الآخر».

صمت قليلًا وكأنه يعطي (عمر) فرصة للاستيعاب، قبل أن يكمل:

- «عشان كده اتفاق جدك ده كان طبقًا بيتضمن نوع من الحماية لمنفذ الجريمة، لكنه هش وسهل الاختراق، مجرد تأمين لهروبه، هيخليه يفلت فعلًا من العقاب، بس يفضل باقي حياته منبوز لأنه مجبر يبعد عن قبيلته، خايف لأنه طول الوقت حاسس إنه مطارّد، عارف إن أي حد ممكن يلاقيه ويجيبه ويوقع عليه العقاب، بس يكون عنده خبرة في الروحانيات، وعلم باللي حصل، وده اللي اعتمد عليه جدك، إن الموضوع يفضل طي الكتمان، الموت بيان طبيعي جدًا، فمايتشافش كجريمة أصلًا، بالتالي ماحدث يدور وراه».

كان (عمر) قد فغر فاه دون أن ينتبه، وهو ينصت ذاهلاً مبهوثًا، لـ (قاصي) وهو يتابع:

- «صحيح أنا ماكنتش باحب (فؤاد)، لكني كنت باحترمه، كان قاسي لكن حقاني، ومهما بلغت قسوته، عمري ما شوفته يستحق القتل عشانها، عشان كده رفضت عرض (صابر)، لأنني مش خاين، ولأنني ماكنتش عايز أعيش باقي حياتي خايف ومطارّد ومنبوز، لكن رفضي ده للأسف، هو اللي خلّاني من ساعتها، ولغاية دلوقت، عايش

خايف وهربان، وتقريبًا محبوس».

هنا لاحظ (عمر) تغيرًا خفيًا في ملامح (قاصي) المخيفة، كأنها تتأرجح بين الحزن والغضب، وهو يكمل قائلاً:

- «لما رفضت، (صابر) هددني إني لو حذرت (فؤاد) وقلت له على اللي حصل، هيؤذيني، أنا وأقرب أفراد قبيلتي ليا، وإنه كده كده هيقتله، ويلزق التهمة فيا. مابقيتش عارف أعمل إيه، عايز أحذر (فؤاد) ومش قادر، بس اللي ماتخيلتوش أبدًا، إن (حافظ) ممكن يوافق على ارتكاب الجريمة البشعة دي، ماشكيتش فيه، (فؤاد) نفسه ماكانش ممكن يشك فيه، ماكانش يبان عليه إنه ممكن يخرق العهد اللي بينه وبين سيده، ويخونه ويقتله».

- «أنا ماخنتش، (صابر) هددني زي ما هددك بالظبط».

جاءت العبارة الأخيرة بلهجة حادة من (حافظ) الذي أدار (قاصي) رأسه له، قائلاً بصرامة:

- «انت قلتها بنفسك، هددني زي ما هددك، لكن أنا رفضت الخيانة، وانت قبلتها».

- «ورفضك ده وداك فين؟! مانت محبوس زيي زيك».

- «ماتحاولش تبرر اللي عملته وماتساوينيش بيك، انت عارف كويس مصيرك هيكون إيه».

- «انت مش أحسن مني، ولا تقدر تعمل لي أي حاجة».

صرخ بها (حافظ) وهو يخمش الأرض بمخالبه، و(عمر) يتابع كل

هذا متسع العينين فاغر الفم، في حين عاد (قاصي) يوجه كلامه للأخير، قائلاً بحزم:

- «سيبك منه».

بصعوبة أبعد (عمر) عينيه عن (حافظ)، محاولاً تجاهل صوت مخالفه المثير للشعريرة، لينصت لـ (قاصي) الذي عاد يقول:

- «لما حصل اللي حصل، واتفاجئت بـ (حافظ) بيزق (فؤاد) في الحمام، حاولت أمنعه وأنقذ (فؤاد)، لكنه كان أقوى مني بكثير، وبمجرد ما فاضت الروح لبارئها، هرب القاتل، وفوجئت أنا بأنفار من الجن، فهمت أنهم من خدمة (صابر)، بيحاولوني ويحاولوا يهجموا عليا، ماأنقذنيش منهم إلا قرين (فؤاد) اللي طلبت مساعدته في التصدي ليهم، وفي إخفائي بعيد عنهم وعن عيون (صابر) وبطشه، والمكان الوحيد اللي أنا وهو نعرفه، المناسب لده، هو هنا، الشقة دي».

تقلص وجه (عمر) مع تلك التفاصيل المؤلمة لموت والده الغادر، وصمت (قاصي) قليلاً وكأنه يتفهم ما يعاينه، ويعطيه فرصة لاستيعابه وهضمه، قبل أن يكمل:

- «بمساعدة القرين، قدرت أدخل، لأنني ماكنتش أقدر أدخل لوحدي، لكنه ماقدرش يساعدي أكثر من كده، ففضلت مستخبي، أو بمعنى أصح، محبوس، لأنني عارف إنني بمجرد خروجي، خدمة (صابر) هترصدني وتجيبيني، ماكانش قدامي إلا إنني أفضل كده لحد ما (صابر) يموت، أو أدور على حل».

كانت ثورة (حافظ) قد بدأت تهدأ، وكأنه مل أو تعب، ليعود لتكومه اليأس على الأرض، و(قاصي) يتابع:

- «في البداية تملكني اليأس، شعوري بالخوف والضياع، خصوصًا مع حماية الشقة اللي بتفقدني جل قدراتي، حسسوني إن اللي أنا فيه مالوش حل فعلاً، لغاية ما افكرت حاجة حسيت إنها ممكن تكون مهمة. (فؤاد) قبل موته بفترة وجيزة، كان بيتردد على الشقة هنا وحده ومعاه قرينه بس، ماكنتش أعرف هو بيعمل إيه أو بيعطي لي، لأنه ماكانش بياخد حد فينا معاه، ولا بيقول لأي حد أي حاجة عن الموضوع ده، بس أكيد كان فيه سبب لمجيه، والسبب ده أكيد برضو كان شيء سري ومهم، أخطر من إنه يقوله لأي حد، وممكن جدًا يكون بداية طرف خيط لحل أو أمل أتمسك بيه».

ثم تحركت عيناه قليلًا نحو غرفة الصالون، لتتحرك عيناه (عمر) تلقائيًا معهما في نفس الاتجاه، والأول يقول:

- «ودّرت فعلاً على الشيء ده، على سبب مجي (فؤاد) هنا قبل موته، ولقيت الأجندة اللي كتب لك فيها قصة حياته كلها تقريبًا، وفهمت إن خيط الحل اللي بادور عليه، الأمل اللي هاتمسك بيه، هو أنت يا (عمر)».

سرت في جسد الأخير قشعريرة فهم لا رعب، وعيناه تعودان للتحديق بـ (قاصي)، وصورة البازل تكاد تكتمل تمامًا في عقله، حتى لم تعد في حاجة إلا لبعض القطع القليلة جدًا، بعض الأسئلة التي ستـ..

قاطع (قاصي) حبل أفكاره مرة أخرى، مجيبًا عن تساؤلاته

الداخلية وكأنه يسمعها، قائلاً:

- «كنت عايزك تيجي هنا بأي شكل، بس ماكانش عندي طريقة مباشرة أقدر أعمل بيها كده، همزة الوصل الوحيدة بيننا كانت القرين، لكني لا أملك فرض قيود أو سلطة عليه، ماقدّرش أخليه يأتّمر بأمرّي أو ينفذ كلامي بدقة، أقدر بس أطلب منه مساعدات صغيرة أو طلبات محدودة جدّا، زي ما طلبت ينقّذني من خدمة (صابر)، وزي ما حاولت أخليه يوحي لك بالمجي هنا، لكنه كان بيتصرف بمحض إرادته أغلب الوقت، عشان كده اعتمادي الأكبر كان على رغبته هو كمان في الانتقام، اللي هتخليه يحاول ينبهك ويديك إشارات تخليك تيجي هنا عشان تشوف الأجندة، من نفسه».

تنقلت عيناه بين الصالون وباب الشقة، وهو يتابع:

- «لما جيت أول مرة وشوفت خياله من ورا الشّراعة فخوفت ومشيت، حسيت إن الأمل رجع يتسحب مني، ولما جيت ثاني وكنت هتمشي من غير ما تنتبه للأجندة، اضطرّيت أتدخل، وألفت نظرك ليها».

كان ذلك هو (قاصي) إذن، هو من ألقاها على منضدة الصالون لتحث صوت ارتطام، تاركًا إياها على ذلك الوضع الذي لا بُدَّ وأن يقتحم أي عين تقع عليها. كذا فكر (عمر)، والأول يعاود إدارة عينيه نحوه، قائلاً:

- «ماكانش ممكن أتدخل أكثر من كده أو أظهر لك بشكلي الحقيقي، قبل المرحلة اللي إحنا فيها دلوقت، لأنه كان هيجيب نتيجة عكسية تمامًا، قلبك كان ممكن يقف وتموت، أو على أحسن

الفروض، تترعب من الشقة وماتجيش ثاني أبداً، كان لازم تخلص قراية عشان تفهم اللي حصل واللي هيحصل، وتتأهب للي هتشوفه وتسمعه».

صمت هنيهة بعد عبارته الأخيرة، أضاف بعدها:

- «دلوقت انت عرفت الحكاية كلها. ناوي تعمل إيه؟»

خيم صمت عميق بعد سؤال (قاصي) الأخير، و(عمر) حائر مرتبك، لا يعرف كيف يجيب.. ماذا يفعل؟! هو من يريد طرح ذلك السؤال أصلاً، أو على الأقل، يرغب في مهلة للتفكير، لكن تفكيره لم يقده لإجابة، وإنما لأسئلة أخرى، شعر أنه يجب أن يعرف إجاباتها أولاً، قبل التفكير في أي شيء. لذا، تنحنح ليسلك حلقه الجاف ليتمكن من الكلام، ورغم ذلك، خرج صوته مبحوحاً مكتوماً محشرجاً، وهو يقول:

- «فيه حاجات عايز أسأل عنها الأول».

- «أسأل».

- «مين من العيلة يعرف.. اللي انت حكيتة لي ده؟»

- «ماحدث يعرف التفاصيل اللي انت عرفتتها دلوقت، لكن كلهم عندهم، بشكل أو بآخر، فكرة عامة عن الموضوع».

رغم توقعه للإجابة، اتسعت عيناه (عمر) رغماً عنه، وارتجفت شفاته وهو يقول:

- «كلهم عارفين إن جدي قتل أبويا؟!»

- «أيوه».

- «.. حتى أمي؟!!»

- «هي أصلاً اللي طلبت من (صابر) يخلصها من (فؤاد)».

تذكر في تلك اللحظة بكاء أمه المتكرر، وتذمر خالته (زينب) منها
و..

- «أمال كانت بتعيط عليه ليه؟!!»

- «لأنها رجعت ندمت على طلبها، وادعت إنها ماكانتش تقصد إنه
يخلصها منه بالقتل».

ارتسم وجوم الفهم على وجه (عمر) في تلك اللحظة وقد فطن
لشيء آخر، لهذا كانت تحتضن ملابس أبيه وتبكي مرددة: «ليه
عملت كده؟». كان سؤالها موجهاً لجده بالفعل، لكنه لم يكن اعتراضاً
على تزويجها لأبيه كما ادعت وقتها، بل على قتله. لا يعفيها هذا
من الذنب بل يجعله يكرهها أكثر وأكثر لأنها.. حرفياً، قتلت القتل
ومشت في جنازته باكية عليه. كل هذا لا يجعله راغباً في الانتقام
من جده فحسب، وإنما منها كذلك، بل منها أكثر، منهم كلهم لأنهم
شركاء صامتون في الجريمة، دم أبيه موزع على أياديهم التي
تستحق البتر، وذنبه معلق في أعناقهم التي يجب أن تحز.

خفض (عمر) عينيه، مقطباً حاجبيه، مستحضراً الصورة كاملة. لم
يعد من مجال للشك في أي خطأ أو كذب، ليس لأن كل قطع البازل
سقطت أخيراً في أماكنها فحسب، بل لأن كل مجموعة من القطع

جاءت من مصدر مختلف، الأجندة، كلام (هالة)، كلام أمه وتصرفاتها، جملة (زينب) المفزعة التي سمعها عن طريق الخطأ، تبرير (يوسف) الأكثر إفزاعًا لها، كلمات القرين المحددة المقتضبة، القصة التي حكاها (قاصي)، اعتراف (حافظ) الضمني اليائس، اتفاق كل هذا مع بعضه البعض لا يضع القطع في أماكنها الصحيحة فقط، بل يعشقها كذلك مع بعضها البعض، مكونًا صورة قوية واضحة، لم يعد ينقصها إلا برواز.

والآن، بعد اكتمال الصورة، يأتي السؤال المصيري المترتب عليه، ماذا بعد؟ أو كما قال (قاصي) ..

ما الذي ينوي أن يفعله؟

شبرا

15 أغسطس

2016

كعادتها كل صباح في نحو التاسعة، وقفت (نازك) تعد لنفسها كوب الشاي بالحليب الذي لا تبدأ يومها إلا به، والذي كادت تسقطه من يدها مجفلة، هاتفة:

- «بسم الله الرحمن الرحيم! انت هنا من امتي؟!»

- «لسة جاي حالًا».

قالها (عمر) الواقف عند باب المطبخ، لتعيد هي وضع الكوب على

المنضدة، مستندة عليها بيد، واضعة الأخرى على صدرها، فعاد يقول:

- «مالك؟»

- «الخضة بس دوختني شوية».

- «طب تعالى اقعدي».

- «أعمل لك تفطر؟»

- «لا مش دلوقت، تعالى أنا عايز أتكلم معاكي».

قالها وسبقها إلى شرفة الصالة، فحملت كوبها وتبعته. جلس فجلست في مواجهته بعينين متسائلتين، وأخذت من كوبها رشفة قبل أن تقول:

- «شكلك لسه صاحي».

هز رأسه إيجابًا، وشرد لبضع ثوان في العالم الخارجي، قبل أن يعود للالتفات لها، قائلاً:

- «بقيتي أحسن؟»

زفرت متممة:

- «الحمد لله».

عاد يشرد صامتًا بوجه لا يحمل أي تعبير، فعادت تقول:

- «خير؟ كنت عايزني في إيه؟»

ظل على حاله بضع ثوان أخرى، قال بعدها:

- «أنا مش عايز علاقتنا تفضل كده يا ماما».

- «ولا أنا والله».

- «إحنا الاتنين في الفترة الأخيرة عملنا حاجات.. ماكانش لازم نعملها، بس إحنا في النهاية مالناش غير بعض، فلابزم نتحمل بعض، ونسامح بعض، ونفتح صفحة جديدة، موافقة؟»

امتلات عينها بالدموع حتى فاضت وسالت على وجنتيها، وهي تقول:

- «طبعا موافقة يا حبيبي ومسامحك، من قلبي، قلبي وربي راضيين عنك يا بني».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو يقول:

- «أنا كده ارتحت».

هم بعدها بالنهوض لتستوقفه قائلة:

- «رايح فين؟؟ ماتخليك قاعد».

- «هاخد دش في السريع».

- «أحضرك الفطار على ما تخلص؟»

أومئ مبتسما فبادلته الابتسام وهو ينهض مغادرا الشرفة. أما هي، فشربت ما تبقى في كوبها دفعة واحدة، قبل أن تنهض بدورها متجهة للمطبخ، وقبل أن تبلغ بابه، سمعت صوت مفتاح يدور في باب الشقة، فتوقفت ملتفتة نحوه بعينين متسائلتين، اتسعتا حتى

كادتا تخرجان من محجريهما بمجرد ما انفتح، ليظهر من خلفه..
(عمر).

سقط الكوب من يد (نازك) متحطفاً على الأرض، وعيناها
الجاحظتان تحدقان في (عمر) الواقف عند الباب، الذي بدا على
وجهه مزيج من الاستغراب والحيرة وعدم الفهم، وهو يدخل
متسائلاً:

- «فيه إيه؟؟؟»

تراجعت بظهرها رافعة يدها أمامها كأنما تحمي نفسها أو تشير
إليه، هاتفة بأنفاس مبهورة:

- «.. انت إزاي؟! لحقت تـ...؟! جيت من هنا إزاي؟! انت.. انت
إيه؟؟؟ انت مين؟؟؟!»

- «أنا مين يعني إيه؟!»

قالها عاقداً حاجبيه وهو يهم بغلق الباب خلفه، لتصرخ قائلة:

- «لا لا ماتقفلش الباب، ماتقفلش وماتدخلش، خليك عندك، خليك
عندك باقول لك».

- «فيه إيه يا ماما انتي بتعملي كده ليه؟؟؟!»

ارتجف فمها وانحشر صوتها في حلقها ليخرج الكلام مبعثراً متهتئاً
وهي تحاول نطقه بصوت عالٍ:

- «بخ بخ.. بـ.. صمصام طم.. طام..».

قاطعها صوت همس في أذنها فجأة:

- «انتى مش حافظة غيرها ولأ إيه؟»

التفتت ناحية الصوت بحركة حادة واضعة يدها على أذنها وصارخة بهيستريا، ليصرخ بدوره بصوت أعلى من صوتها:

- «بظلي صريخ وفهميني فيه إيه!!!»

التفتت له مذعورة دامعة وهي تقول:

- «فيه صوت.. حاجة.. حاجة كلمتني في ودني!»

- «حاجة إيه؟؟؟!»

- «مش.. مش عارفة».

- «طب اهدي».

قالها زافراً بقوة، مقترباً منها، فعادت تتراجع صارخة:

- «لا لا ماتقربليش، فهمني الأول انت جيت مين وخرجت امتى وإزاي».

قلب كفيه لأعلى علامة الحيرة وهو يقول:

- «خرجت من امبارح، وبيت عند (مصطفى) صاحبي، ولسة جاي حالاً من هناك».

- «بيت عند.. انت كنت بايت برة؟؟؟!»

- «أيوه، وبعث لك رسالة بالكلام ده، وظهر عندي إنك شوفتيها».

- «ما حصلش!»

- «افتحي تليفونك اتأكدي».

ارتجف جسدها كله وهي تقول ذاهلة:

- «أمال مين اللي جوة؟؟!!»

- «جوة فين؟؟!!»

قالها عاقداً حاجبيه، فقالت بصوت مختنق، مرتجف كيدها التي رسمت بها في الهواء خطاً بين المطبخ والشرفة والحمام:

- «ف... فيه واحد.. شبهك بالضبط، جه وكلمني.. وقعد معايا و..
بعدين قال هيروح الحمام و.. وم...!»

عجزت عن إتمام عبارتها، في حين بدا الوجوم على وجهه، وهو يقول:

- «واحد مين يا ماما؟؟!!»

بكت بخوف قائلة:

- «ما عرفش! واحد شبهك بالضبط يا (عمر)، في كل حاجة، شكلك
وصوتك وحركاتك، انت بالضبط!!»

صمت قليلاً قبل أن يقول:

- «وهو فين دلوقت؟»

- «المفروض في الحمام».

سار نحو الحمام فتبعته بتردد، تاركة إياه يسبقها بخطوتين أو

ثلاث، فما إن اقتربا من بابه المغلق، حتى حبست أنفاسها معتصرة فمها بيديها، كأنها تخشى أن تفلت منها صرخة مفاجئة، وصوت المياه المنهمرة بقوة من الدش يصك أذنيها. أما هو، فتبادل معها نظرة قلقة، قَرَب بعدها رأسه من الباب منصتًا بحذر، قبل أن يعود ليبعده، قائلاً:

- «ما فيش حد في الحمام».

سقطت يدا (نازك) من فوق فمها، قبل أن تقول بذهول:

- «ما فيش حد إزاي؟! أنا سامعة صوت الدش من هنا!!»

- «بيتهيا لك أكيد، قَرَبِي اسمعي بنفسك».

قالها متراجعًا، مفسحًا لها المجال، فلم تتحرك من مكانها وحدثته بعينين متسعيتين، نقلتهما بينه وبين الباب، فعاد يقول بصوت هادئ:

- «تعالى ماتخافيش، ما فيش حد».

بصعوبة حركت قدميها شاعرة أنهما رخوتان تكادان تعجزان عن حملها. لم تحتج للاقتراب كثيرًا من الباب لأن صوت الدش القوي وصلها كاملاً، لتلتفت إلى (عمر) بانفعال، هامسة وكأنها تخشى أن يسمعها من الداخل:

- «الصوت واضح جدًا!! انت إزاي مش سامعه؟!»

بدا عليه ما يشبه القلق وهو يقول:

- «ماما انتي فيه إيه في ودنك؟ سامعة إيه بالضبط؟»

حدقت في وجهه بوجوم لحظة، قبل أن تقول بخفوت:

- «انت بتردّها لي؟؟!»

- «بارد لك إيه؟؟»

قالها بصدق أحنقها، فاختلج وجهها بشيء من العصبية، شاعرة أنها فهمت خدعته أو مقلبه، أن الدش يعمل بالفعل لكن الحمام خالٍ، وأنه، بطريقة ما، رثب هذا كله ليخيفها، فعادت تستدير نحو الباب لتمسك بمقبضه محاولة فتحه، لكنها لم تستطع، حاولت ثانية بعصبية أكبر بلا جدوى، بدا أنه موصد من الداخل. ذاهلة حائرة، تراجعت خطوة للخلف، وقبل أن تقدم على أي فعل آخر، أو تنطق بكلمة أخرى، جاءها صوت (عمر) من داخل الحمام، مختلطًا بصوت الماء المندفع من الدش، متسائلًا:

- «فيه حاجة يا ماما؟؟»

تسمرت (نازك) في مكانها تماقًا، شاعرة أنها ستنهار صارخة فاقدة وعيها، لكنها قبل أن تجد الفرصة لتفعل، سمعت نفس الصوت مرة أخرى، والذي ميزت هذه المرة لمحة التهكم فيه، كما ميزت نبرته، نبرة صوت ابنها، (عمر)، الواقف على يمينها، الذي كلمها حالًا من داخل الحمام، والذي همس في أذنها اليسرى، قائلاً:

- «بعد كل اللي عملتيه، انتي بقى اللي مسامحاني، مش كده؟!»

تمكنت أخيرًا من الصراخ بعلو صوتها، ممسكة بأذنها، متلفتة يمنة

ويسرة بجنون، لكنها على كلا الجانبين، لم تجد أي شخص يقف بجوارها، ولا في أي موضع في محيط نظرها.

صرخت (نازك) كما لم تصرخ في حياتها من قبل. حركت عينيها في كل اتجاه شاعرة بالرعب من كل ما حولها، كل باب مغلق أو مفتوح، كل قطعة أثاث، كل ما يمكن أن يختبأ شخص أو شيء خلفه، ليظهر فجأة قافزًا في وجهها. دارت حول نفسها مرارًا وتعترت مرارًا، لكنها وجدت نفسها لا إراديًا تتجه نحو باب الشقة، رغبة في الفرار منها، وقبل أن تصل لوجهتها، شعرت بجسدها يصطدم فجأة من الخلف بشيء آخر، جسد آخر، لتنفلت أعصابها تمامًا ويزداد صراخها عنقًا، وهي تضرب ذلك الشيء بهياج جنوني، دافعة إياه بعيدًا عنها، قبل أن تتبين أخيرًا، بصعوبة من بين صرخاتها، صوت يصرخ بدوره، قائلاً:

- «فيه إيه يا (نازك)؟! إيه يا (نازك) مالك؟!!!»

من بين دموعها، تمكنت من تبين الصوت وصاحبه، لتتشبث بملابسها، منتحبة بانهيان:

- «(زينب).. الحقيني يا (زينب)، الحقيني».

لتفاجأ بالأخيرة وهي تبكي بعنف هي الأخرى، قائلة:

- «الحقيني انتي.. بابا مات يا (نازك).. أبوكي مات!!!»

منذ خرج (صابر) على المعاش، وروتينه الصباحي لا يكاد يتغير. يستيقظ في الثامنة صباحاً، فيتوضأ ويصلي الصبح، ثم يتناول وجبة خفيفة من الشاي بالحليب والبقسماط في شرفته المفضلة. وفي التاسعة إلا الربع، يأخذ حمامه اليومي الذي لا تزيد مدته عن عشر دقائق أو ربع الساعة، فلا تدق الساعة التاسعة، إلا وهو خارج من الحمام، يستعد لتناول وجبة إفطاره الرئيسية أمام شاشة التلفزيون.

لكن روتين (صابر) تغير قليلاً ذلك اليوم، بالأحرى، الجزء الثاني منه فحسب. أما الجزء الأول، فسار بشكل طبيعي، منتهياً في التاسعة إلا الربع كالمعتاد بدخوله إلى الحمام، فلما خلع ثيابه وبدأ يستحم، لم تكد بضع دقائق تمضي، حتى فوجئ بتحذيرات من خدامه المحيطين به، الخمسة الذين لا يفارقونه أبداً، وتنبيهات بأنهم يشتبكون مع هجوم غير متوقع عليه.

كانت عيناه مغلقتان من أثر الماء والصابون اللذين يغطيان رأسه وجسده، لكنه ما إن سمع ما يقال له، حتى انفتحت عيناه تلقائياً عن آخرهما، لتصطدما بقرين (فؤاد) الذي يحاول الهجوم عليه، مشتبكا بضراوة مع خدامه.

ووقف (صابر) ثابتاً، في نفسه من الدهشة والحيرة، أكر مما فيها من الخوف، وبتوجس ساءل نفسه، لماذا يهاجمه قرين (فؤاد) الآن؟! لقد رآه بضع مرات منذ موت صاحبه، لكنه لم يهاجمه بهذا الشكل أبداً، لم يحاول مهاجمته أصلاً، فلا فائدة ترجى من ذلك، لأن خدامه يصدون أي محاولة هجوم أو حتى اقتراب منه، صحيح أن القرين لا

يموت ولا يمكن قتله، لكنه كذلك لن يقدر على قتل خمسة من الجان بمفرده، ومن غير الممكن أن يظل في حالة اشتباك وقتال معهم هكذا إلى الأبد.

كل ذلك دار في عقل (صابر) فيما لا يزيد عن سبع ثوان، وفي العانية العامة، كان قد فهم.. ما يحدث ليس هجوماً حقيقياً بل حيلة، لا هدف لها إلا تشتيت خدامه الخمسة المنشغلون عنه فعلاً، تماماً الآن، والذي يعني أنه يحتاج لعدد أكبر من الخدام لحمايته، عدد لن يستطيع استدعاءه إلا بخاتمه الروحاني الذي يخلعه من إصبعه ويتركه في غرفة نومه قبل دخوله إلى الحمام، وأن فرصة نجاته الوحيدة، معلقة بوصوله لذلك الخاتم.

لكنه قبل أن يخطو خطوة واحدة، فوجئ بقرين (فؤاد) يظهر أمامه، واحد آخر غير المشتبك مع خدامه، وفي لمح البصر، وقبل أن ينتبه خدامه، أو يتمكن هو من تنبيههم، دفعه ذلك القرين الثاني دفعة قوية مدروسة، لينزلق ساقطاً بحيث يكون رأسه أول ما يصطدم بحافة البانيو، ويكون وجه (فؤاد).. آخر ما تراه عيناه.

في ذلك اليوم، خرج (صابر) من الحمام في العاشرة إلا الربع لا التاسعة، محملاً على الأكتاف لا سائراً على قدميه.

شبرا

15 أغسطس

2016

وقف (عمر) مع باقي رجال العائلة يتلقى العزاء في جده، والحزن البادي على وجهه يضاهي ذاك الذي كان عليه وهو يتلقى العزاء في والده، فما أشبه الليلة بالبارحة، أو للدقة، بالماضي القريب.

لكن حزن (عمر) لم يكن ظاهريًا سطحيًا فحسب، بل متغلغلًا في نفسه فعلاً، مختلطًا بمشاعر أخرى كثيرة، وذكريات عديدة، قريبة وبعيدة، وإن كان أقربها، وأهمها على الإطلاق، هو ما حدث ليلة البارحة...

العباسية

14 أغسطس

2016

والآن، بعد اكتمال الصورة، يأتي السؤال المصيري المترتب عليه، ماذا بعد؟ أو كما قال (قاصي)، ما الذي ينوي أن يفعله؟

لم يجب (عمر) السؤال، لكنه، عاكسًا الآية، رفع عينيه إلى كل من (قاصي) والقرين، موجهًا هو سؤالًا لهما معًا:

- «إيه اللي ممكن يتعمل؟»

لم يصدر عن القرين أي رد فعل، أما (قاصي) فقال:

- «ده شيء انت اللي لازم تحده».

- «مانا عشان أحد، لازم يكون عندي محددات، حاجة أبني عليها، معطيات أقدر أخرج منها بنتائج، تمكّني من رسم خطة لتنفيذ المطلوب».

- «أفهم من كده إنك اتخذت قرارك خلاص؟»

- «أيوه».

- «وإيه هو؟»

صمت (عمر) قليلًا، خافضًا عينيه كأنه يفكر، مقطبًا كأنه يصارع شيئًا بداخله، قبل أن يقول:

- «من قتل يُقتل».

- «متأكد؟»

- «متأكد».

- «يبقى أول حاجة لازم تتعمل، هي التخلص من الخائن ده».

قالها مشيرًا لـ (حافظ) الذي انقلبت سحنته بطريقة زادت بها بشاعة، مطلقًا صرخات اختلطت فيها كلمات الغضب بالندم، واليأس بالتهديد، و(عمر) يعطي أمر القتل للقرين، لينهض الأخير منفذًا مهمته بآلية وبرود.

بعد انقشاع الدخان الكثيف المختلط بالغبار، الناجم عن تفحم (حافظ)، ظلت عينا (عمر) المتصلبتان معلقتين بما تبقى من جثته، حتى قال (قاصي):

- «ماتقلقش، شوية وكل ده هيتحول لحاجة شبه الرماد، وهيبقى سهل التخلص منه».

بصعوبة أبعد (عمر) فكره وعينيه عن المشهد الرهيب، ليبدأ (قاصي) كلامه، قائلاً:

- «خدمة جدك فيها ما يزيد عن مية نفر من الجان، أغلبهم مرتبط بخاتم مَرَوْحَن. كلمة مروحن دي مشتقة من كلمة روحاني، والخاتم المروحن، أو الروحاني، بيكون عادة خاتم فضة عادي، تتم رَوْحنته عن طريق حفر طلاسَم معينة عليه، تمكن صاحبه من استدعاء خدمته وقتما يشاء».

- «أنا عارف الخاتم ده، بيلبسه في إيده الشمال».

قالها (عمر)، فأومئ (قاصي) برأسه، مكماً:

- «الخاتم بيكون متصل بصاحبه، يعني ماينفesch حد غيره يلبسه أو حتى يلمسه، بالتالي سرقة مستحيلة، لأنها بتعرض السارق لأذى لا يمكن تصوره، مهما بلغت درجة قرابته لصاحب الخاتم».

مقطباً بتركيز، أنصت (عمر)، و(قاصي) يتابع:

- «أما الخدام الحراس، اللي مش بيحتاج لأي أداة لاستدعائهم،

لأنهم ملازمين ليه طول الوقت، فعددهم خمسة. وبالقياس، بالنسبة والتناسب، ممكن تتصور مدى صعوبة، أو تقريبًا استحالة، مجرد الاقتراب منه. لما محاولات الهجوم المباشر على والدك، اللي كان راصد اتنين بس لحراسته، كانت شبه مستحيلة، فلك أن تتخيل الوضع مع جدك عامل إزاي».

ازدادت تقطية (عمر) عمقًا وقد بدأ يشعر بياس المحاضر، و(قاصي) يكمل:

- «ده معناه إننا مانقدرش نلجأ للهجوم المباشر إحنا كمان، لكننا برضو مانقدرش نلجأ للحيلة اللي استخدمها جدك، مش بس عشان هي جريمة غير أخلاقية، وممكن تعرضني أنا وانت لعواقب وخيمة، لكن كمان عشان طريق الوصول ليها صعب جدًا ومحفوف بالمخاطر، لدرجة تخليني مانصحكش أبدًا بالمشي فيه».

ثم صمت قليلًا، قبل أن يقول:

- «دي المحددات اللي طلبت تعرفها».

شرد (عمر) ببصره في صمت طال قليلًا، رفع بعده عينيه نحو (قاصي) والقرين، قائلاً:

- «أنا عرفت إحنا هنعمل إيه».

في تلك المرة، كان (قاصي) هو المنصت، و(عمر) هو الذي يتكلم، شارحًا خطته.

- «.. الخاتم مش هيكون معاه لأنه بيخلعه ويسيبه في أوضته قبل ما يدخل الحمام، بس كل شيء لازم يتم بمنتهى السرعة، قبل ما ينتبه فينبه الحراس، أو يخرج يجيب الخاتم».

هز (قاصي) رأسه موافقًا، و(عمر) يتابع بصوت بارد أجش:

- «لما تتأكد إن الحراس منشغلين تمامًا مع القرين، هتدخل بنفس هيئته، وبأقصى سرعة ممكنة، تنفذ المطلوب».

- «إيه الهدف من تشكلي على هيئة القرين؟ الفكرة كلها معتمدة على شغل الحراس مش خداعهم، التشكل أصلًا بيخدع عيون البشر مش الجان، فمش هيخدع الحراس، مش هيفرق في حاجة لأنه بيكون مكشوف تمامًا ليهم».

شرد (عمر) ببصره قليلًا، قبل أن يقول:

- «هيفرق بالنسبة له هو، هيبقى عنصر مفاجأة ممكن يعطله لفترة أطول، يشل حركته وتفكيره ولو لعانيتين ثلاثة زيادة، بالتالي يفسح لك مجال أكبر من الوقت لتنفيذ مهمتك، ده أولًا..».

صمت قليلًا وعيناه تشردان ثانية، فقال (قاصي):

- «وثانيًا؟»

التمعت عيناه وتقلص وجهه قليلًا وهو يقول:

- «عايز وش أبويا يبقى آخر حاجة عينه تشوفها وهو بيموت».

ساد صمت قصير بعد عبارة (عمر) الأخيرة، وقبل أن يقول (قاصي):

- «أعتقد كده كل حاجة بقت واضحة، وكل واحد عرف دوره».

رفع (عمر) سبابته، قائلاً:

- «فاضل حاجة واحدة بس، خدمة هاطلبها منكم، بمجرد ما تتأكدوا من تمام مهمتكم في الدور الأرضي، عايزكم تطلعوا شقتنا في الدور الثاني عشان تساعدوني في تنفيذها».

- «حاجة إيه؟»

عاد وجهه يتقلص، مع التواءة ساخرة خفيفة في ركن فمه، وهو يقول:

- «قرصة ودن خفيفة».

شبرا

15 أغسطس

2016

لم يكن الحزن البادي على وجه (عمر) خلال عزاء جده تمثيلاً، صحيح أنه صار يمقته، وأنه هو من قتله، لكن هذا لا ينفي حزنه عليه، على مشاعره كل هذا العمر تجاهه، وذكرياته الطويلة معه، كأنه اضطر لبتز طرف مريض من جسده، رغم علمه بأذاه، لا يزال يفتقده، ويشعر أنه سيفتقده إلى الأبد. غريبة حقًا هذه الدنيا، والده الذي عاش عمره كله يكرهه، أحبه بعد موته، وجدته الذي عاش نفس العمر يحبه، انتهى به الحال إلى قتله.

ورغم ما بدا عليه من انغلاق على ذاته، وانشغال بحزنه وخوابطه عن كل ما حوله، لم يكن (عمر) غافلاً عن أي شاردة أو واردة، عن كل ما يقال، همساً أو تلميحاً، عنه أو عن موت جده، أو الصلة بينهما. أما موت (صابر)، فلم يكن من الممكن ألا ينتبه الجميع لتلك المفارقة الغريبة، في تطابقه التام مع موت (فؤاد). وأما الجزء الخاص بـ (عمر)، الفرع الذي عاشته (نازك) صباح ذلك اليوم، فلم تترك الأخيرة فرداً في العائلة، إلا وحكته بأدق تفاصيله له، رغم ادعاء (عمر) نفسه لجهله التام به.

لهذا وذاك، ولوقوع الحداث في نفس اليوم، بل نفس الساعة تقريباً، نشأت الصلة بينهما، صانعة حول (عمر) هالة مخيفة، لم يعد أي واحد في العائلة يراه، إلا ويراه مرسومة حوله، محيطة به، فلا يجرؤ على الكلام صراحة عنها، ولا الإشارة مباشرة لها، من فرط خوفه منها.

في تلك الليلة، خيم ما يشبه غيمة سوداء فوق رؤوس الجميع، ساد بسببها خلال العزاء جواً من التوتر والتوجس، جعل كل من أتى معزياً العائلة، يقسم أن وجوههم لم تكن تحمل من الحزن، قدر ما تحمل من الخوف.

بعد انتهاء العزاء، صعد (عمر) إلى الطابق الثاني وحده. كانت (نازك) قد قررت قضاء الليلة في شقة أبيها بالطابق الأرضي، حسب كلامها، لسببين، أولهما، رغبتها في النوم في مكان يحمل رائحة الفقيد الغالي، والعاني، كي لا تترك (هالة) تبیت وحدها، خصوصاً في

تلك الليلة العصبية. أما السبب الحقيقي الخفي الذي فهمه الجميع، على رأسهم (عمر) نفسه، هو خوفها منه بصفة خاصة، ومن شقة الطابق الثاني كلها بوجه عام، وإن لم يقل أحدهم ذلك صراحة أو جهراً.

دخل (عمر) الشقة شاعراً بالراحة لقرارها ذاك، متمنياً أن تطول مدته، أن يستمر ليصبح عادة لا استثناء. اتجه رأساً إلى غرفته، وسكينة لم يحسها منذ.. منذ وُلد تقريباً، تملأ نفسه. لم يكن من النوع الذي تخيفه الوحدة أو تزعجه، بل كان طوال حياته محباً تواقاً لها. لكن ارتياحه وسكينته تلك الليلة بالذات، لم ينبعا من اختلائه بنفسه، لأنه لم يكن، أصلاً، وحده في الشقة.

كان في انتظاره في غرفته صديقان. لا، لم يكونا في انتظاره، لأنهما لم يفارقاه أساساً طوال اليوم، فقط ظهرا للعيان حين دخل ثلاثتهم إلى الغرفة التي أغلق (عمر) بابها خلفهم، قبل أن يستدير ليواجههما مبتسماً.

لم يكن قد اعتاد ملامح (قاصي) الحقيقية تمامًا بعد، كانت لا تزال مخيفة غريبة في نظره، ورغم عدم بوحه له بذلك، إلا أن (قاصي)، من تلقاء نفسه، تجسد فور دخولهم الغرفة على هيئة بشرية لشاب وسيم مريح الملامح، جعلت ابتسامه (عمر) تتسع رغماً عنه وكأنه يشكره، والأول يبادله الابتسام هازاً رأسه كأنما يقول له: العفو.

أما القرين، الذي سرعان ما اعتاد ملامحه بحكم تطابقها مع ملامح أبيه، فصار يجد صعوبة في منع نفسه من احتضانه، والبكاء تأثراً حين يراه، حتى تصلبه وجموده لم يعودا يخيفانه، بل يذكرانه

بملاح أبيه أكثر، التي كانت صارمة شبه جامدة أغلب الوقت، مثله.

- «مش عارف أشكركم إزاي على كل اللي عملتوه معايا».

قالها (عمر) بامتنان حقيقي، فلم يرد القرين كالعادة، لكن (عمر) لم يصدق عينيه، حين لمح شبح ابتسامة يرتسم على شفثيه. أما (قاصي) فقال، بصوت بشري كشكله:

- «أنا اللي المفروض أشكرك، اللي انت عملته معايا أعظم بكثير من اللي أنا عملته، انت حرفيًا أنقذت حياتي، واستحملت اللي أي حد في مكانك ماكانش ممكن يستحمله».

- «إحنا الاتنين أنقذنا بعض».

- «بس إنت دينك هيفضل في رقبتني لحد ما أموت».

خفض (عمر) عينيه بخجل ولم يعرف كيف يرد، في حين تابع (قاصي):

- «المهمة دي انتهت، لكن أتمنى إن علاقتنا ماتنتهيش».

للمرة الثانية لم يعرف (عمر) كيف يرد، بفعل الحيرة هذه المرة لا الخجل، وكأنه لا يفهم ما يقصده (قاصي)، الذي قرأ ما في وجهه، ليقول مفسرًا:

- «إنت مش مُطالب بأي حاجة، مش لازم تكون فيه بيننا قيود أو عهود خدمة، ممكن تعتبرني صديق، زي أي صديق ليك من البشر، أنا عرّفتك أسهل طريقة تقدر تستدعيني بيها، ولو احتجتني في أي وقت، هتلاقيني قدامك».

بتأثر قال (عمر):

- «صداقتك تشرفني يا (قاصي)».

- «الشرف ليا أنا يا (عمر). في أمان الله».

قالها مبتسمًا، ثم اختفى.

بعد رحيل (قاصي)، التفت (عمر) متأملًا ملامح القرين مليًا، ملامح أبيه، لتنحدر من عينه، رغما عنه، دمعة كان حرجه من (قاصي) يمنعها من التحرر. أخيرًا هما وحدهما تمامًا الآن، على راحتهما، بلا جن ظاهر أو خفي، بلا خوف أو توتر، أو خطط انتقام، هو ووالده فقط، أو كما وصفه في خياله من قبل، عمه، توأم والده.

بلهفة، اتجه (عمر) لمقعده الممتلئ بالملابس، فحملها ووضعها بعيدًا، قبل أن يشير له، قائلاً بحب:

- «اقعد».

فجلس، ليجلس بدوره أمامه على سريريه، ويبدئان في الحديث، ويطول حديثهما، متكررًا كل ليلة.

تـمـت